الدكتور محمود محمد الحويري

رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية

رؤية في
سقوط الإمبراطورية الرومانية

تأليف
دكتور محمود محمد الحويرى
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب بسوهاج – جامعة جنوب الوادى

الطبعة الثالثة
(منقحة)

١٩٩٥ م



دار المعارف

تصميم الغلاف: منال بدران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج.م.ع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

هذا الكتاب الذى يشرفنى أن أقدمه إلى القارىء العربى فى طبعته الثانية، تطلب منى شيئاً من المراجعة الجديدة، فأصلحت ما جاء بالطبعة الأولى من الأخطاء المطبعية، وأوردت إضافات من شأنها أن تجنب القارىء بعض الصعوبات التى يصادفها، كذلك وجهت عناية خاصة إلى التعريف فى الحاشية بالأدباء والمفكرين الذين جاء ذكرهم فى المتن.

ولا يسعنى إلا أن أزجى الشكر خالصاً للزملاء والأصدقاء الذين أفدت من ملاحظاتهم الناقدة واقتراحاتهم المفيدة، وأود كذلك أن أشكر أسرة دار المعارف على إنجاز الكتاب فى طبعته الجديدة، والله ولى التوفيق.

د. محمود محمد الخضيرى

ثكنات المعادى – أكتوبر ١٩٩٢ م

ربيع الثانى ١٤١٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

احتلت الأمبراطورية الرومانية مكانة خاصة فى التاريخ، اختلفت عن مكانة غيرها من الدول والأمبراطوريات التى قامت خلال عصور التاريخ. ولا ترجع أهمية هذه الأمبراطورية إلى اتساع رقعتها الجغرافية، التى اشتملت على مواطن أقدم الحضارات التى عرفها الإنسان، إذ ابتدأت فى القرن الثالث قبل الميلاد، واستمرت باقية إلى القرن الخامس الميلادى فى الغرب الأوربى وإلى القرن السابع فى الشرق، ولكن أهميتها ترجع أساساً إلى أنها وقعت تاريخياً فى نهاية العالم القديم. فقد تعرضت تلك الأمبراطورية منذ القرن الثالث الميلادى لعوامل الضعف والتفكك من داخلها وخارجها، ففى الداخل استشرى الفساد فى جميع النواحى الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، ولم تعد روما مركز العالم وحضارته، بعد أن أسس قنسطنطين العظيم عاصمته القسطنطينية فى أوائل القرن الرابع، ومن الخارج اشتدت غارات الجرمان والمتبربرين على حدود الأمبراطورية، حتى إذا أتى عام ٤٧٦م زالت تلك الأمبراطورية فى الجزء الغربى منها، وقامت على أنقاضها ممالك جرمانية عديدة. وهنا لا ينبغى أن نضع فى الاعتبار الرأى الذى نادى به بعض المؤرخين من أن عام ٤٧٦ يمثل بداية فترة العصور الوسطى بمعالمها السياسية والحضاريةالتى اختلفت أشد الاختلاف عما ألفته العصور القديمة بأسرها، وإن كنا فى الوقت نفسه نلتمس لهم العذر إذا كان الغرض تسهيل دراسة هذه الفترة الزمنية الهامة، التى امتدت ألف عام، وكانت أشبه بالوادى بين جبلين شاهقين أحدهما يمثل الماضى والآخر يمثل الحديث. والواقع أننا لا نستطيع على وجه الدقة أن نضع حداً فاصلاً – أو تاريخياً معيناً – يؤكد نهاية عصر وبداية عصر آخر، لأن الأحداث التاريخية متداخلة بطبيعتها، وإن كانت هناك خصائص عامة لفترة الانتقال التى انسلخت خلالها ملامح العصر الوسطى من العصور القديمة، أبرزها انحلال المجتمع

الروماني، وتأسيس الممالك الجرمانية، والقضاء على الوثنية وظهور الديانة المسيحية، ثم اتخاذها ديانة رسمية للأمبراطورية. ويمكننا أن نلمس فترة الانتقال ونتتبعها برجوعنا إلى الوراء عند مستهل القرن الثالث، دون أن نرتبط خلاله بسنة معينة نحدد بها مطلع العصور الوسطى.

وفي هذا الكتاب تناولت بالدراسة أوضاع الفترة الأخيرة من الأمبراطورية الرومانية، وهي فترة زمنية تميزت بتشعبها وشدة تعقيدها، لما حملته بين طياتها من تغييرات وأحداث هامة، تناولت جوانب التاريخ السياسي والعسكري والديني والاجتماعي والاقتصادي. وقد استهدفت من وراء ذلك الوقوف على سمات – أو فجر – العصور الوسطى الأوربية. ولابد لي من القول أن تلك الدراسة قد سبقني إليها أساتذة ثقاة أجلاء، متخصصون في تاريخ العصور الوسطى، ومن ثم لا أزعم أني أتيت بالجديد فيها. فمن الصعب على أي باحث أن يقدم شيئاً في موضوع طرقه غيره بعناية، وقد يكون التجديد في الطريقة – أو الرؤية – التي يعالج بها أحداث الموضوع، مع إبراز لنواح لم يطرقها غيره أو مسها مساً خفيفاً. وهو ما حاولت الوصول إليه، وكان من أسباب اختيار عنوان الكتاب على الوجه الذي صدر به.

وقد خصصت الفصل الأول لدراسة «أحوال الأمبراطورية الرومانية في القرنين الثالث والرابع»، فتناولت ما أصاب تلك الأمبراطورية من ضعف وجمود، انعكسا على جميع أحوالها. ذلك أن الفتوحات قد توقفت، وأضحى على الأمبراطورية أن تحافظ على حدودها، وتدهور النشاط الاقتصادي، وتضاءل نفوذ طبقة السناتو، وانحدرت الطبقة الوسطى، وانعدم النظام بين صفوف الجيش، لاسيما بعد أن استعان الأباطرة بالجند المرتزقة، وأدخلوا البرابرة في صفوف الجيش، مما أدى إلى القضاء على مجد الأمبراطورية الحربي. وقد تناولت في ذلك الفصل أيضاً التغير الذي طرأ على المنصب الأمبراطوري، والدور الذي لعبته الفرق العسكرية في تنصيب الأباطرة، بعد أن اختفت السلطة المركزية، وصارت الولايات تحت حكم زعامات محلية. وفي أواخر القرن الثالث وصل دقلديانوس

إلى عرش الامبراطورية، فأدخل بعض الاصلاحات وأعاد تنظيم الجيش، ثم أتى من بعده قنسطنطين العظيم الذى اعترف بالمسيحية من ناحية، ونقل العاصمة إلى القسطنطينية من ناحية أخرى. ولاشك أن ما قام به كل من هذين العاهلين ساهم فى إنهاء الأوضاع القديمة فى أوربا.

أما الفصل الثانى وعنوانه «المسيحية والإمبراطورية الرومانية»، فقد تحدثت فيه عن الديانات الوافدة من الشرق، وهى كيبيلى من آسيا الصغرى، وميثراس من فارس، وإيزيس من مصر، وأوضحت أن تلك الديانات رغم انتشارها الواسع بين الطبقات الفقيرة والوسطى، إلا أنها لم ترض بعض المثقفين، فاتجهوا إلى المذاهب الفلسفية، خاصة الرواقية التى اتفقت مع تقاليد المجتمع الرومانى. وكان أن ظهرت المسيحية التى أعطت الامل للمواطنين الرومان، وسط ظلام البؤس الذى أحاط بهم، ولكن التعاليم التى أتت بها تلك الديانة قوضت أركان العالم القديم، فلحق الأذى والاضطهادات بأتباعها، حتى كتب لها النصر فى النهاية. كما ألقيت الضوء على آباء الكنيسة، الذين كان لهم الفضل فى استئصال شأفة الوثنية.

وفى الفصل الثالث وهو بعنوان «المجتمع الجرمانى وعلاقته المبكرة بالأمبراطورية» تناولت فيه عادات ذلك المجتمع وتقاليده، كما وصفها المؤرخ تاكيتوس، وتعرضت لبنائه وجوهر تنظيمه السياسى ودور المرأة فيه. وفى هذا المجال أبرزت تحرك الجماعات الجرمانية من مواطنها الأصلية فيما وراء نهرى الراين والدانوب إلى حدود الأمبراطورية فى القرن الأول، ثم تتبعت غزواتها التى غدت بمثابة ضغوط مستمرة على طول الحدود منذ أواخر القرن الثانى.

أما الفصل الرابع وهو بعنوان «غزوات الجرمان وتأسيس ممالكهم فى غرب أوربا»، فقد عالجت فيه أهم الجماعات الجرمانية التى اقتحمت حدود الأمبراطورية الغربية ومزقت أوصالها، وهى جماعات الهون، والقوط الغربيين، والوندال، والأليمانى، والبرجنديين، والفرنجة، ثم تناولت كيف ظهرت تلك الجماعات تاريخياً، وعنيت بتوضيح أحداثها، خاصة بعد أن تغلغلت فى أراضى

الأمبراطورية الغربية حتى استطاع بعضها تأسيس ممالك على أنقاض تلك الأمبراطورية فى القرن الخامس الميلادى، والجدير بالذكر أن تلك الجماعات التى تغلبت على الأمبراطورية الغربية اختلفت فى طابعها، فمنها من نشر الرعب والفزع فى أنحائها مثل الوندال، ومنها من انتهى المطاف بها إلى العيش فى وئام مع الأمبراطورية ونهلت من حضارتها مثل البرجنديين، ومنها من أخذت تحركاتها طابع الاستقرار، بدلاً من مجرد غزو هدفه الحصول على كسب مادى، مثل الفرنجة.

وفى الفصل الخامس والأخير وهو بعنوان «سقوط الأمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوربى (٤٧٦م)» رأيت أن أبدأ بسنة ٣٩٥م، التى انقسمت فيها الأمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية، مما جعل الأحداث فى الشرق والغرب تسير فى طريقين مختلفين. ففى الغرب سيطر القادة العسكريون على مقاليد الأمور، وصار بيدهم تولية الأباطرة وعزلهم، فى الوقت الذى أخذت فيه الشخصيات الرومانية الطموحة تحارب بعضها بعضاً أملاً فى الوصول إلى العرش. وفى ذلك الفصل بينت أن أحداث الأمبراطورية الغربية فى تلك الفترة المظلمة من تاريخها، لا يمكن فصلها على أحداث الأمبراطورية الشرقية المعاصرة آنذاك. وقد عالجت انثيال العناصر الجرمانية والمتبربرة على إيطاليا سنة ٤٧٦ بحثاً عن الحظ والمغامرة، حتى استطاع زعيم متبربر عزل آخر أباطرة روما وإعلان نفسه ملكاً على إيطاليا. وفى نهاية ذلك الفصل أوردت آراء بعض المؤرخين حول تدهور الأمبراطورية الغربية، وسقوطها فريسة فى أيدى الجرمان.

والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه...

القاهرة فى ١٩٨١/٢/٣ م

١٤٠١/٣/٢٨ هـ

د. محمود محمد الحويرى

الفصل الأول

أحوال الإمبراطورية الرومانية فى القرنين الثالث والرابع

بلغت الامبراطورية الرومانية أقصى اتساع لها على عهد الأمبراطور هادريان (١١٧ - ١٣٨ م)، فصار حدها الشمالى عند السور الذى شيده ذلك الأمبراطور فى بريطانيا وعرف باسمه Hadrian's wall، وقد امتد ذلك السور فوق مرتفعات نورثمبريا، من البحر إلى البحر فى عرض الجزيرة، عبر الجهات الشمالية من مضيق السلواى Solway عند مدينة كارليل Carlisle الحالية غرباً، إلى مصب نهر التاين Tyne عند مدينة نيوكاسل الحالية شرقاً، ليكون حداً نهائياً بين بريطانيا الرومانية واسكتلنده. ثم تمتد الحدود الشمالية من البحر الشمالى حتى البحر الأسود، متبعة خطوط نهرى الراين والدانوب، وهى حدود رسمتها الطبيعة. وقد شمل النفوذ السياسى للأمبراطورية كل آسيا الصغرى، وشريط يمتد على السواحل الشرقية والجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، يشمل الشام ومصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش. ويمكن القول أن أراضى الأمبراطورية امتدت حول البحر المتوسط مركز العالم القديم، ذلك البحر الذى لا يدخل فى نطاقه - كما يرى الجغرافيون - مصر العليا وشمال شرقى أسبانيا وشمال إقليم الغال (فرنسا الحالية) والمناطق الممتدة بحذاء الدانوب[١]. غير أن نفوذ الأمبراطورية من الناحية الواقعية، لم يقتصر على البلاد الواقعة داخل حدودها السياسية، بل امتد حتى بلغ فارس والهند، وتطرق إلى بلاد النوبة والسودان، كما بلغ الشعوب الجرمانية الضارية فى مجاهل أوربا شرقى الراين وشمالى الدانوب[٢].

ويعتبر القرنان الأول والثانى فى حياة الأمبراطورية الرومانية - بوجه عام - قرنى ازدهار ورقى سلمى، إذ حدثت فيهما عملية صبغ غرب أوربا بالصبغة الرومانية، حتى أننا فى القرن الرابع نجد صورة مغايرة تماماً لما كان مألوفاً فى القرنين الأولين، ذلك أن الأمبراطورية كانت قد مرت بفوضى القرن الثالث

---

(١) Painter (S.), A History of the Middle Ages. 284-1500., (London, 1964), pp. 3 - 4.; Rainer (Robert M.), A Concise History of Britain., (London, 1965), p. 5., Hay (Denis), The Medieval Centuries., (London, 1974), p. 3.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى، جزءان، (القاهرة ١٩٧٥)، جـ ١ ص ١١ - ١٢.

واضطراباته، حتى تغير شكلها، ولم تكد تتماسك إلا بفضل الجهود اليائسة للامبراطورين دقلديانوس وقنسطنطين(١). وحتى القرن الثاني أيضاً، تمتعت الأمبراطورية بالأمن والسلام، ولم يعكر صفوها إلا بعض الإغارات الخفيفة التى كان يقوم بها جيران الأمبراطورية على حدودها. ففي الشرق والجنوب الشرقي، كان البربر في المغرب والقبائل البدوية في الصحراء مصدر إزعاج من وقت لآخر، ولكنهم لم يشكلوا خطراً فعالاً، إلى أن جاء الإسلام ووحد بينها، وأمدها بروح من عنده تخالف ما كانت عليه من قبل. كذلك كانت شعوب البكت Picts والسكوت Scots في بريطانيا، تعبر سور هادريان أحياناً، وتقوم بإحداث القلاقل وإزعاج الحاميات الرومانية، ولكن الامبراطورية كانت بعيدة عن أية أخطار حقيقية تأتي من ناحيتهم. أما في الشمال، فيما وراء نهري الراين والدانوب، فقد كان الجرمان يمثلون الخطر الأعظم، ذلك أن التصاقهم بحدود الأمبراطورية، فتح أعينهم على ما احتوته ولايات تلك الأمبراطورية من ثراء ورخاء، الأمر الذى جعلهم يقومون بإغارات بغية الحصول على غنائم مجزية وخيرات وفيرة. وهنا نلاحظ أن الحكومة الرومانية كانت قادرة على حماية حدودها، ورد غارات الجرمان بالقوة أحياناً، وبالطرق الدبلوماسية أحياناً أخرى. فقد جرى عقد اتفاقيات بين الحكومة الرومانية وزعماء القبائل الجرمانية المجاورة لحدود الأمبراطورية، نصت على أن تقوم روما بحماية تلك القبائل من جيرانها، في مقابل أن تقوم تلك القبائل بمنع رعاياها من الإغارة على أراضي الأمبراطورية. وعلى أية حال، فقد قامت القوات الرومانية المعسكرة على امتداد جبهتي الراين والدانوب في القرنين الأول والثاني بواجباتها لكبح جماح الغزاة المحليين، سواء في صورة شن هجوم واسع أو قيادة حملات تأديبية(٢). ولكن الأمر اختلف عنه منذ السنوات الأخيرة للقرن الثاني، وابتداء من القرن الثالث، وهو ما سنعالجه بعد قليل.

وعلى الرغم من الحروب الدائرة هنا وهناك على امتداد حدود الأمبراطورية، إلا أن السلام – كما ذكرنا – ساد بقاعها الواسعة بنظام الطرق الواسعة الرائعة

---

(١) Barrow (R.H.), The Romans , (Britain, 1975), pp. 163-164.

(٢) Jones (A.H.M.), The Decline World., (London, 1975), pp. 10-11.

الذى ابتدعته العبقرية الرومانية، وحد بين عواصم الأمبراطورية ومدنها، من بريطانيا وأسبانيا فى الغرب، حتى نهر الفرات فى الشرق. كذلك قامت المواصلات البحرية بدور حضارى لا يقل شأناً عن الدور الذى قامت به الطرق البرية، فقد شهد البحر المتوسط حركة ملاحية دائبة، ومياهه التى لم تعرف القراصنة آنذاك، كان لها الفضل فى توحيد المدن الكبيرة القائمة على شواطئه. ولما كان الأمن منتشراً فى جميع أنحاء الأمبراطورية، صار السفر ميسراً للمواطنين، طلباً للعمل أو للصحة أو للمتعة. ومما ساعد على إتاحة السفر وتسهيله، اللغة الشائعة فى الأمبراطورية، وتوفر العملة الدولية الصحيحة، وحماية القوانين، وهى أمور لم تعرفها الأمبراطورية فى القرون التالية. وليس أدل على ذلك من أن المرء كان بوسعه السفر من الفرات إلى أسبانيا، مستخدماً لغة واحدة مشتركة Lingua - Franca يمكنه التفاهم بها فى كل مكان. وصار من المستطاع سماع من يتحدث باللغة اليونانية فى شوارع المدن التجارية، مثل روما ومرسيليا والاسكندرية ويوربو، وعلى ضفاف أنهار النيل والعاصى ودجلة(١).

ومن السمات المميزة للأمبراطورية الرومانية، اختلافها عن أية أمبراطورية أخرى شاهدها العالم القديم. فمنذ اتسعت دائرة نفوذ الرومان، دخلت فى حوزتهم شعوب وأجناس متباينة، مارست أنظمتها الاجتماعية ومعتقداتها الدينية ولغاتها وتقاليدها وقوانينها، دون تدخل من قبل الحكومة الرومانية، طالما أن تلك المعتقدات والنظم لا تتعارض مع سلامة الامبراطورية وأمنها من ناحية، ومادام السكان يدفعون الضرائب المقدرة عليهم من ناحية أخرى. وبروح المرونة الكافية التى أظهرها الرومان تجاه الشعوب الخاضعة لهم، فضلاً عن الوحدة الحضارية والحكومة المنظمة التى أعطوها لجميع العالم المتمدن، لم يعرفوا العنصرية آفة العصور القديمة. وفى الأيام الأخيرة من حياة الأمبراطورية، اعتبر سكان الولايات البعيدة «رومانيين» مثل الذين ولدوا فى روما نفسها، وبذلك الغيت

---

(١) Lindsay (T M.), "The Triumph of Christianity", in Camb. Med. Hist., Vol. I., pp. 87-88.

الفوارق البغيضة، وصارت جميع الوظائف، بما فيها المنصب الأمبراطورى نفسه، ميسرة لجميع المواطنين شريطة استخدام اللغة اللاتينية فى الأعمال الرسمية والإدارات الحكومية والمعاملات العامة(١).

ولكن أحوال الأمبراطورية الرومانية أصابتها يد التبديل والتغيير فى القرن الثالث، بسبب ما أصابها من ضعف وجمود، انعكسا على جميع أحوالها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، مما أدى فى النهاية إلى القضاء على مجدها الزاهر ومكانتها العالمية. وأيسر ما يقال في هذا الصدد أن الرومان فى القرن الثالث كانوا يخدعون أنفسهم، صحيح أن البناء الخارجي لمجتمعهم ظل قائماً إلى حد ما، إلا أن روح الأمبراطورية كانت قد ماتت حقيقة من الداخل(٢). وبمعنى آخر يمكن القول أن المشاكل العديدة التى ألمت بالامبراطورية ابتداء من ذلك القرن وتضافرت ضدها، ساعدت في المقابل على إيجاد ثغرة استطاعت القبائل الجرمانية والمتبربرة أن تنفذ منها إلى قلب الأمبراطورية، وتعمل على سقوطها فى القرن الخامس.

الحالة الاقتصادية :

واكب فتوحات الأمبراطورية واتساع أملاكها فى أيامها الأولى تدفق الثروات الهائلة عليها، وكان لذلك أثره على ميل الطبقات العليا فى المجتمع الرومانى إلى الترف والرفاهية والإسراف الشديد، والتطلع إلى الكماليات، وتكالب تلك الطبقات — بصفة خاصة — على معدنى الذهب والفضة، اللذين ظهرا فى صورة أدوات للزينة أو أوان وصحاف. ولا ريب أن استغلال الذهب والفضة بهذه الوسيلة أدى إلى تجميدهما واستبعادهما من سوق التداول؛ وظل الوضع على ذلك، حتى بعد أن توقفت الفتوحات، وأضحى لزاماً على الأمبراطورية أن تحافظ على حدودها

---

(١) Hay, op. cit., p. 4.

(٢) Sinnigen (William G.) and Boak (E.R.), A Hist. of Rome To A.D. 565., Six edition, (U.S.A., 1977), p. 395.

ضد هجمات وإغارات القبائل الجرمانية خلال القرن الثالث، في الوقت الذي قل فيه الذهب ونضب معينه، ولم تحاول الحكومة البحث عن مصادر جديدة للمعادن الثمينة، تحل محل المصادر المألوفة في أيام الأمبراطورية الأولى(١). ومن الواضح أن ما جرى من نفقات باهظة حملت الأمبراطورية فوق ما لا تطيق، وألقت على كاهل الخزانة عبئاً جسيماً، فقصور الأباطرة الرائعة الضخمة الباذخة، والحشد الهائل من موظفي القصور والخدم والحراس، ونفقات الجيش، وإنتشار الرشوة والفساد، وقسوة الموظفين على أهالي الولايات التابعة للامبراطورية، وثقل الضرائب المفروضة، وأعباء الحروب الأهلية، كل ذلك يفسر لنا أسباب المتاعب الاقتصادية التي كانت تعانيها الامبراطورية إبان القرن الثالث. فأصيبت التجارة بالأضرار وتوقفت مسيرتها، ولم تعد طرق البحر المتوسط العظيمة تموج بالأساطيل التجارية الرومانية، بعد أن صارت وكراً يعج بقراصنة البحار. والطرق الرومانية البرية التي كانت دائماً دليلاً على عظمة الرومان وإعجازهم الهندسي، أضحت أطلالاً غير آمنة، لا تخلو من قطاع الطرق، وتبعث الأسى في النفس لمجتمع عرف تجارة عظيمة يوماً ما(٢).

وقد أدى استمرار الانهيار الاقتصادي إلى حدوث آثار سيئة على قيمة العملة النقدية المتداولة في ولايات الأمبراطورية. فالغزوات الجرمانية التي تعرضت لها الأمبراطورية في القرن الثالث، بما تخللها من نهب المزارع وإحراقها، وإفساد المحاصيل، وترك مساحات هائلة من الأراضي الزراعية خراباً بلقعا، والحاجة الماسة إلى المال لدفع رواتب الجند، أجبرت الأباطرة على إنقاص قيمة العملة المتداولة. وكان نصيب الدينار الفضي denarius في التدهور المستمر أكثر من الأوريوس الذهبي aureus وغيره من العملات النقدية الأخرى. ويلاحظ أن قيمة العملات الفضية أخذت في الهبوط المستمر منذ عهد الامبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ – ١٨٠م)، الذي أنقص الدينار إلى خمسة وسبعين في

(١) Kent (J.P.C.) & Painter (K.S.), Wealth of the Roman World. Gold and Silver. A.D. 300-700., (British Museum, 1977), p. 15.

(٢) Hay, op. cit., p. 5.; Painter, op. cit., pp. 8 - 9.

المائة من الوحدات الفضية، ويبلغ مقدار النقص فى قيمته خمسين فى المائة من الوحدات الفضية تحت حكم سبتميوس سفيروس (١٩٣ – ٢١١م)، ثم واصل الدينار انخفاض قيمته، حتى صار فى عهد جالينوس (٢٦٠ – ٢٦٨م) عملة نحاسية مغطاة بطبقة رقيقة من الفضة بلغت خمسة فى المائة من الوحدات الفضية. وعلاوة على ذلك، كان السسترتيوس البرونزى Sestertius (وقيمته ربع دينار) لايزال يصدر حتى سنة ٢٧٠ م، ثم اختفى من التداول بسبب الارتفاع الكبير فى الأسعار[١]. والأمر الذى لا خلاف فيه أن إنقاص العملة، وما صاحبها من ارتفاع كبير فى الأسعار، أديا إلى «التضخم» inflation. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رفض من يمتلك عملة فضية خالصة التعامل مع العملات المخلوطة الشائبة، فأدى ذلك إلى اختفاء المعادن الثمينة من التداول، فى وقت كانت الحاجة أشد ما تكون إليها. وفى مثل تلك الأحوال السيئة التى تدهورت خلالها العملة النقدية، أضربت الأسواق التجارية، ورفع التجار أسعار سلعهم. وتعتبر مزاولة التجارة فى مثل ذلك المناخ أمراً متعذراً، فبعد أن كانت قائمة على قدم وساق فى ولايات الأمبراطورية، لا تقف فى سبيلها أية عقبات أو حواجز، وصلت إلى درجة بالغة السوء، فاختفى الانتاج الكبير، وحل محله الانتاج المحلى الذى يتم تصريفه محلياً؛ وفى غياب عملة مستقرة، حلت المقايضة فى المعاملات التجارية بين الأهالى، وهى طريقة لا تفى بالغرض المنشود[٢]. ويمكن القول أن ما عرفته الأمبراطورية من ازدهار تجارى فى القرن الثانى، لم يعد بإمكانها استعادته فى معظم أنحاء الغرب الأوربى، وإن كان هناك استثناء وحيد نلمسه فى الأقاليم البعيدة، مثل بريطانيا، التى وصلت تجارتها إلى مرحلة عالية من التطور فى القرنين الثالث والرابع[٣].

---

(١) Charlesworth (M.P.), The Roman Empire., (Great Britain, 1961), pp. 132-133.,
على الغمراوى: دراسات فى تاريخ العصور الوسطى، جزءان (القاهرة ١٩٧٥)، جـ١ ص٨٠-٨١

(٢) Robinson (Cyril E.), A Hist. of Europe: Ancient & Medieval., (U.S.A., 1920), pp. 401-402.

(٣) Cary (M.) & Wilson (John), A Shorter Hist. of Rome., (London, 1963), p. 342; Grant (Michael), The World of Rome., (London, 1960), p. 67.

وبطبيعة الحال، انعكس التدهور الاقتصادى على الزراعة أيضاً، وكما ذكرنا من قبل، أصبحت حدود الأمبراطورية في القرن الثالث مناطق تتنازعها رياح القلق والفوضى، فانتشرت فيها المعسكرات الرومانية والقلاع والحصون، وأخذت تعج بالقوات المحاربة، وعاد كل ذلك على الزراعة بأوخم العواقب، فنزل بها التلف والخراب، وأصاب الجفاف مساحات هائلة من الأراضى الزراعية، ولحق التدمير بالمزارع ومبانيها ومخازنها، حتى صار من الصعب على مالكى الأراضى الزراعية استصلاح ما تخرب منها والبدء من جديد، لقلة المال وارتفاع التكاليف، لاسيما محصول القمح. وبات من الواضح أنه منذ منتصف القرن الثالث، لم يعد لأسبانيا فائض من محاصيلها ترسله إلى روما، وصارت أرض مصر الخصبة بوراً، ولذلك اضطر الامبراطور أوريليان Aurelien (٢٧٠ – ٢٧٥م) وخلفاؤه إلى اصدار قرارات الهدف منها تأمين مزارعين للحقول المهملة. كذلك أدت قلة المحاصيل الزراعية إلى استحالة مواجهة الضرائب الفادحة، التى وقع عبئها على صغار المزارعين والمستأجرين، فى الوقت الذى كان فيه كبار الملاك الزراعيين لا يلتزمون بدفع ما يستحق عليهم من ضرائب. وعندما عجز المزارع الصغير عن الوفاء بديونه فى موعدها، اضطر إلى رهن أرضه لكبار الملاك الزراعيين، وتحول فى نهاية الأمر إلى قن[1]، أو نزح إلى المدن للانغماس فى زحمتها، والانضمام إلى جموع الدهماء الذين ازدحمت بهم المدن الرومانية. وثمة بردية يرجع تاريخها إلى بداية القرن الثالث، وبالتحديد عام ٢٠٢م، توضح حالة الزراعة فى ولاية مصر الرومانية، ففيها يطلب أحد ثراة مدينة الاسكندرية من الأمبراطور أن يأذن له بإنشاء صندوق خيرى لإعانة المكلفين بالخدمات الإلزامية فى بعض القرى بإقليم أكسورونخوس (البهنسا) لأن هذه القرى على قوله «قد أصبحت من جراء الأعباء السنوية المرهقة الملقاة على عاتق أهلها، مهددة بالخراب، مما يعود بالضرر على الخزانة، ويؤدى إلى ترك أراضيك غير مزروعة»[2].

---

(١) Robinson, op. cit., pp. 402 - 403.

(٢) بل (هـ. ايدرس)، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، نقله إلى العربية وأضاف إليه د. عبد اللطيف أحمد على، (القاهرة ١٩٦٨)، ص ١١٧.

وفي غضون القرن الثالث أيضاً، لم يعد الحرفيون أسعد حالاً من المزارعين والتجار، إذ أصاب الصناعات ما أصاب الزراعة والتجارة من خراب وكساد، ففقدت بلاد الغال وأراضي الراين الكثير من صناعاتها، واندثرت صناعة الزجاج في كولون، وصناعة الفخار فى الأجزاء الغربية من الامبراطورية(١).

الحالة الاجتماعية :

من المعروف أن المجتمع الرومانى كان مجتمعاً طبقياً، تفاوتت فيه الفوارق بشكل واضح وتناقض بالغ. فالطبقة العليا الثرية الأرستقراطية التى تألفت من العائلات السناتورية الرومانية وكبار الموظفين وأصحاب الملكيات الزراعية الواسعة عاشت فى المدن، غير عابئة بالنظم والقوانين، كان عليها دفع الضرائب للسلطات الرومانية أسوة ببقية الطبقات، ولكنها من الناحية العملية استطاعت التخلص أو التهرب من الكثير منها. كذلك لم تتأثر تلك الطبقة بالأزمات الاقتصادية التى ألمت بالامبراطورية فى القرن الثالث، إذ امتلك أفرادها الثروات الضخمة، وعاشوا فى قصورهم وسط أملاكهم الواسعة، يحيط بهم الخدم والعبيد، استأجر الكثير منهم حراساً خصوصيين - غالباً من الجرمان - لحمايتهم(٢). بيد أن اضطرابات الحياة السياسية فى ذلك القرن كان لابد أن تؤثر فى تلك الطبقة، فأخذت أعدادها تتناقص، ونفوذها يتضاءل وينكمش، ويرجع ذلك إلى أن كثيراً من الأباطرة الذين وصلوا إلى العرش الامبراطورى، قاموا بقتل خصومهم السياسيين من أعضاء السناتو، واستبدلوا بهم رجالاً أقل كفاءة ومقدرة داخل مجلس السناتو، كما صادروا ممتلكات البعض منهم أحياناً؛ وإبان تلك الظروف قل ولاء أعضاء السناتو للحكومة الرومانية، وسرعان ما بدأت التقاليد القديمة التى حرصوا عليها فى الأيام الأولى للامبراطورية فى

---

(١) Cary & Wilson, op. Cit., pp. 344 - 345.

(٢) Painter, op. cit., pp. 9 - 10.

الانهيار[١]، حتى أن رتبة السناتورية غدت فى القرن الرابع مجرد لقب شرفى يمن به الأمبراطور على من يشاء من أتباعه والمقربين إليه، وقد كان سخياً فى ذلك[٢].

أما الطبقة الوسطى القديمة، التى كانت عصب الحياة فى المجتمع الرومانى، وقامت بدورها الرائع فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة خلال القرنين الأول والثانى، فقد قدر لها أن تنهار تحت وطأة الكوارث الإقتصادية التى ألمت بالامبراطورية من ناحية، وتحت عبء المطالب الباهظة التى فرضت عليها من ناحية أخرى وبعد أن كانت تلك الطبقة تؤلف الغالبية العظمى من صغار الملاك، انتهى مصيرها إلى الاضمحلال، وأخذت أعدادها فى النقصان تدريجيا، وانحدر أفرادها إلى حالة من البؤس تزيد قليلا عن حالة الأقنان الذين يعملون فى الضياع السنيورية. ومن المشاهد أن العديد من صغار الفلاحين الأحرار، آثروا التخلى عن أراضيهم لكبار الملاك الزراعيين بغية التخلص من أعباء الضرائب أو الدفاع عن مساكنهم ضد الغزاة أو اللصوص، بعد أن طحنتهم متاعب القرن الثالث، وأصبحوا أقنانا Coloni وجب على كل قن Colonus لديه قطعة من الأرض يتولى زراعتها أن يتعهد بدفع إيجارها نقداً أو عينا أو خدمة، وليس من حقه مغادرة الأرض التى يقوم بزراعتها، بعد أن منعته قوانين الامبراطورية من ذلك[٣].

وإذا انتقلنا إلى طبقة العبيد التى كانت تمثل نسبة عظيمة من سكان إيطاليا، نرى أن ثمانين فى المائة من العمال فى الصناعة وفى تجارة الأشتات كانوا من العبيد، كما كانت معظم الأعمال اليدوية والكتابية فى المصالح يؤديها «عبيد عموميون» Servi publici [٤]. وقد عمل العبيد فى ظروف صعبة سيئة، جعلت

---

(١) Downey (Glanville), The Late Roman Empire., (U.S.A., 1969), pp. 6-7.

(٢) إسحق عبيد تاوضروس، الأمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، (القاهرة ١٩٧٢)، ص ٤٢.

(٣) Downey, op. cit., p. 47.

(٤) ول ديورانت، قصة الحضارة، الطبعة الثانية، (القاهرة ١٩٧٣)، مجلد ٣، جـ ٢، ص ٢٣٩.

حياتهم بائسة معذبة، ومما يدل على ذلك حالة أولئك العبيد الذين كانوا يعملون في طاحونة، فهم شاحبو الوجه، عرايا إلا مما يكاد يستر عورتهم، علقت أجراس في أقدامهم، وتخددت أجسادهم من جراء العلامات السوداء التي خلفتها ضربات السياط(١). أما عبيد المنازل كانوا أنواعاً لاحصر لها، تنوعت أعمالهم. وقد لاقوا العذاب والاضطهاد والقسوة على يد سادتهم الذين اختلفت أهواؤهم ومشاربهم. فكانوا أحيانا يقتلون وأحيانا يضربون. ويمكننا ان نلمس المعاملة السيئة التى لقيها عبيد المنازل إذا علمنا أن أحد السادة الرومان كان يصر على أن يقف خدمه حول المائدة صامتين، وكان يعاقب من يعطس منهم بالجلد، كما كان يحدث أن تأمر سيدة رومانية بجلد خادمتها إذا ماضايقها اضطرابها في تصفيف شعرها(٢). على أن متاعب العبيد أيام الامبراطورية أخذت تقل شيئا فشيئا إثر قبولهم أعضاء في الأسر التي كانوا يخدمونها، يضاف إلى ذلك أن العبد كان بإمكانه الافلات من أغلال العبودية، وينال حريته عادة في ست سنوات، بفضل أمانته وتفانيه في خدمة سيده. كما أن ضعف الحكومة الرومانية في القرن الثالث، جعل فرار العبيد من سادتهم أمراً سهلاً ميسوراً.

ومن الملاحظ أن سكان الامبراطورية خلال القرنين الثاني والثالث قد نقص عددهم إلى حد كبير، بسبب المجاعات والأوبئة والطواعين التي انتشرت آنذاك .ومن أسباب النقص أيضا إعراض الرومان عن الزواج، بعد أن ساء سلوكهم وحادوا عن طريق الجادة، حتى أن المؤرخ أميانوس مارسيللينوس(٣)

---

(١) Bury (J.B.), A Hist. of the Roman Empire from its foundation to the death of Marcus Aurelius (27 B.C. - 180 A.D), (London, 1930), pp. 592 - 593.

(٢) Charlesworth, op. Cit., pp. 72 - 73.

(٣) ولد أميانوس في أنطاكية لعائلة نبيلة من أصل يوناني، والتحق بالخدمة في الجيش الروماني تحت أمرة القائد أرسكيتوس حاكم إقليم نصيبين. وقد رافق أميانوس الأمبراطور جيوليان المرتد (٣٦١ – ٣٦٣ م) في حملاته ضد الجرمان وضد الفرس، وقد خدم اميانوس أيضاً على عهد الإمبراطور جوفيان. وفي نهاية المطاف اعتزل أميانوس الجيش وسافر إلى روما، حيث بدأ في كتابة تاريخ الدولة الرومانية باللغة اللاتينية، وتاريخه يعتبر مكملاً لكتاب المؤرخ الروماني تاكيتوس. وأميانوس مؤرخ أمين واضح الفكر، نزيه الحكم وواسع الاطلاع، ويعطينا وصفاً رائعاً

Amianus Marcllinus (٣٩١-٣٢٥) يرى أن جميع المآسي التي تعرضت لها الامبـراطورية، إنما ترجع إلى الفـسـاد والتـدهور الخلقي اللذين تغلغـلا في جوانبها[١]. والحقيقة أن الرومان كانوا يميلون إلى الإكثار من النسل، ولكنهم خلال الفترة التي نتناولها، نظروا إلى الزواج على أنه مغامرة قصيرة الأجل، خالية من كل معنى روحي، من السهل التحلل منه؛ وكانت موانع الحمل واسعة الانتشار، ورغم أن الفلاسفة والمشرعين كانوا يحرمونها، إلا أن أرقى الأسر الرومانية كانت تلجأ إليها[٢].

الجيش :

صار من الصعب على الامبراطورية الرومانية الحفاظ على تماسك جيشها وقوته، بعد أن بلغت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السيئة نهايتها المريرة. وليس من شك أن تلك الأوضاع انعكست بدورها على الجيش، ولعبت دوراً لايستهان به في تشويه بنائه. فبعد أن كان الجيش رمزاً لعظمة الامبراطورية، انعدم النظام فيه خلال الفترة التي نتحدث عنها، وتحول إلى أداة خربية لاتصلح للقيام بواجباتها، ومن ثم اضطر الأباطرة إلى الاعتماد على القبائل المتبربرة في حراسة الحدود، تلك القبائل التي كان واجب الجيش الروماني كبح جماحها والقضاء عليها، أما القوات الرومانية النظامية فقد تركز معظمها في المدن للقيام بواجب الحراسة. وإذا عدنا إلى الوراء نجد أن الجيش الروماني كان يتألف من المواطنين الأحرار أو المؤهلين لنيل حقوق المواطنة الرومانية، ولكن عندما عانت

= المعارك التي خاضها بنفسه، كما يعطينا صورة لا بأس بها عن أحوال الامبراطورية الرومانية في النواحي الاجتماعية والاقتصادية. أنظر : إسحق عبيد : من ألاريك إلى جستنيان، الطبعة الأولى (القاهرة ١٩٧٧)، ص ١٥٨ - ١٥٩.

(١) Katz (S.), The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe., (New York, 1955), pp. 70 - 71.

إبراهيم طرخان : نهاية الامبراطورية الرومانية في الغرب (٤٧٦م)، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة، مجلد ٢٠، ديسمبر ١٩٥٨، ص ١٠٠ - ١٠١.

(٢) ديورانت : قصة الحضارة، مجلد ٣، جـ ٢ ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

الامبراطورية من جراء غزوات البرابرة، وعجزت عن السيطرة على حدودها الواسعة المترامية الأطراف، لجأ الأباطرة إلى إحلال الجند المرتزقة – خاصة الجرمان – فى ذلك الجيش[١]. ومما زاد الأمور تعقيداً أن الأباطرة أخذوا فى إحالة الضباط النظاميين ممن ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية إلى الاستيداع، خشية تمردهم واستئثارهم بالسلطة، وتعيين ضباط محترفين من أبناء الشعوب الأجنبية، كل ماكانوا يصبون إليه المغامرة وتحقيق المطامع الشخصية على حساب الأهداف القومية للرومان، وقد أدى هذا إلى وصول بعض الانتهازيين إلى مناصب عسكرية عليا، بل وإلى قيادة الجيش الامبراطورى[٢]. وهنا نلاحظ أن الفرق المرتزقة من الجرمان وغيرهم من الشعوب الأجنبية، صارت عبئا على الامبراطورية، ظهر خطره واضحاً بعد إنتهاء حكم الامبراطور سبتميوس سفيروس سنة ٢١١م، إذ دأب خلفاء هذا الامبراطور على كسب ودهم، وإغداق الهبات عليهم، مما أدى إلى القضاء على هيبة الامبراطورية ومجدها الحربى[٣]، كما سنرى فيما بعد.

وبعد أن كان ضباط الجيش أداة لتنفيذ مشيئة الامبراطور والقوة التى يعتمد عليها فى الأيام الأولى للامبراطورية، تغير الوضع فى القرن الثالث، فصار بإمكان أى ضابط الوصول إلى عرش الامبراطورية، طالما كان بوسعه الاحتفاظ بإخلاص الفرق العسكرية التى أخذت تتحكم فى مصير الأباطرة[٤]. هذا بالإضافة إلى أن الحروب الأهلية التى اشتعل أوارها سنين طويلة، ونشرت الفوضى، استنفذت قوى الامبراطورية، وأخذ الامبراطور الذى يخرج منتصراً، يقيم نفوذه وسلطانه ويؤمن حياته على الدكتاتورية العسكرية، فيتملق الجنود، ويرفع أجورهم، ويمنحهم الأراضى، ويتحمل استبدادهم بالأهالى فى الولايات، ولاريب أن الناس عانوا من تسلط الجنود ونهبهم وتخريبهم، وقد جاء التماس من

---

(١) Hay, op. Cit., p. 4.

(٢) على الغمراوى: دراسات فى تاريخ العصور الوسطى، جزءان (القاهرة ١٩٧٥)، جـ١ ص ٧٢–٧٥

(٣) إبراهيم العدوى : المجتمع الاوربى فى العصور الوسطى، (القاهرة ١٩٦١)، ص ٢١.

(٤) Painter, op. Cit., p. 7.

آسيا الصغرى أرسل إلى روما «أننا نتعرض لأقسى أنواع الظلم والضغط على أيدى أولئك الذين من واجبهم حماية الناس، كالضباط والجنود وحكام المدينة»(١).

المنصب الامبراطورى (السلطة الامبراطورية) :

كان حكم أوكتافيانوس أوغسطس (٢٧ ق.م -١٤م) بداية لفترة جديدة فى التاريخ الرومانى، حددت مجرى التطور السياسى للامبراطورية فى العصور التالية. ذلك أنه لم يجمع كل السلطات في يده كما فعل يوليوس قيصر، لحرصه على مراعاة التقاليد الدستورية القائمة، ولم يقبل أى مركز يكسبه سلطة أوتوقراطية (استبدادية). بيد أن السلطات الواسعة التى تمتع بها أوغسطس جعلته يفوق كافة الرومان فى النفوذ الذى كان قادرا على ممارسته فى الدولة، نظراً لمركزه السياسى، ومن هنا أطلق عليه لقب Princips أى المواطن الأول أو الرئيس. إذا كانت سلطة أوغسطس من الناحية الواقعية مطلقة، إلا أنه لم ينهج نهج يوليوس قيصر الذى انتهك الدستور معتمداً على القوات العسكرية التى كانت تحت أمرته، ولم يعط وزناً للنظم الجمهورية القديمة، ومشاعر الرومان، ولكنه-أى أوغسطس- أعاد بناء الدولة من نفس مواد بناء الجمهورية، بمعنى أنه غير نظام الحكم الجمهورى فى الجوهر وإن احتفظ به فى المظهر، حتى أنه بانتهاء حكمه بدأت تختفى المظاهر الجمهورية. وقد ارتكزت سلطة أوغسطس أو المواطن الأول على الارتباط الوثيق بعمل السناتو، الذى كان فى حاجة إلى مساعدته كى يتمكن من إدارة دفة العالم الرومانى، لقد كانت لاتزال هناك آثار ضئيلة من نظام الحكم الجمهورى، كتوزيع السلطات - على الأقل من ناحية الشكل - بين الامبراطور والسناتو، لكن الحكم تطور بعد ذلك بتولى دقلديانوس العرش ليصبح استبدادياً مطلقاً.

وإذا انتقلنا إلى القرن الثالث، نجد أن الامبراطورية قد تعرضت لغزوات الشعوب الجرمانية، ومرت بحالة من الفوضى اختفت خلالها سلطة الحكومة

(١) Barrow, The Romans., pp. 165 - 168.

المركزية تقريبا، حتى صارت الولايات تحت حكم زعامات محلية، ووصلت الأمور إلى حد بالغ الخطورة لم تعرفه روما منذ الحروب الأهلية في القرن الأول قبل الميلاد. ويكفي دليلاً على ذلك أن فترة الخمسين عاماً الواقعة بين موت الامبراطور الكسندر سيفيروس Alexander Severus سنة ٢٣٥م واعتلاء دقلديانوس العرش سنة ٢٨٤م، التي يطلق عليها الباحثون المحدثون «الفوضى العسكرية» شهدت حروباً أهلية تعاقب خلالها أباطرة على العرش بطريقة غير طبيعية. أتى كثير منهم إلى الحكم بطريق العنف والاغتيال والالتواء، لم يكن لهم إلا الاسم فقط؛ وفي خلال تلك الفترة أيضا لم ينعم كرسي الامبراطورية بالاستقرار، فأطول مدة حكم بلغت سبع سنوات في عهد فاليريان (٢٥٣ -٢٦٠م)، وثماني سنوات خلال عهد ابنه جالينوس (٢٦٠-٢٦٨م)؛ ومما يثير الدهشة أن مالايقل عن ثلاثة وعشرين امبراطوراً ارتقوا عرش الامبراطورية في تلك الفترة القصيرة، مات الكثير منهم بطريق العنف والاغتيال، والقليل منهم من مات على فراشه[١].

وفي نفس هذا القرن أخذت مشكلة التعاقب على العرش أو وراثة العرش تتفاقم، فقبل ذلك القرن لم تكن هناك عقبات تقف في طريق وراثة المنصب الأمبراطوري، خاصة إذا خلف إمبراطور قدير ولداً يتميز بالمقدرة أو الكفاءة، أو إذا أتاحت الظروف لذلك الامبراطور أن يتبنى زميلاً له جديراً بعرش الأمبراطورية. بيد أن أحوال المنصب الأمبراطوري قد أوضحت منذ القرن الثالث أن العصر الذهبي للأمبراطورية قد ولى إلى غير رجعة، وأن عصراً جديداً هو عصر الأباطرة العسكريين soldier - emperors قد بدأ. وفي ظل غياب السلطة المركزية، صارت الولايات تحت حكم زعامات محلية، وأضحى بالإمكان تنصيب امبراطور في مكان ما غير روما مقر الحكومة الرومانية. وفي الوقت الذي كان فيه واجب الفرق العسكرية دفع الأخطار الخارجية عن الأمبراطورية، صار هدف قوادها الوصول إلى المنصب الأمبراطوري، وبلغ الأمر بتلك الفرق أن أضحى

---

(١) Downey, The Late Roman Empire., p. 4; Robinson, A Hist. of Rome., pp. 396-397.

باستطاعتها المناداة بقائد عادى خامل الذكر امبراطوراً فى إحدى الولايات، إدراكاً منها للمكاسب الوفيرة التى ستعود عليها عندما يصير ذلك القائد أمبراطوراً(١).

وفى ذلك الجو الذى صار فيه ارتقاء العرش الأمبراطورى أمراً تتحكم فيه أهواء الجيش، افتقد مجلس السناتو سلطاته تماماً وأهمل شأنه. وبعد أن كان ذلك المجلس تجسيداً حياً للارستقراطية يوماً ما صارت مهمته قاصرة على تأييد رغبات الأمبراطور الجالس على العرش، حتى أن الموافقة الشكلية التى كان يبديها السناتو فى تنصيب الأباطرة ضرب بها عرض الحائط، ولم تعد أمراً مرغوباً فيه آنذاك. وهنا نلاحظ أن السناتو كان يتمرد على وضعه الشائن أحياناً عندما يعتلى العرش امبراطور ضعيف، فيمارس نفوذاً ضئيلاً، ولكنه كان يقف موقف العاجز أمام قوة جيش زاحف على روما يريد تنصيب أحد القواد المتمردين على عرش الأمبراطورية. والحق أن المنصب الامبراطورى إبان أزمة القرن الثالث أخذت أحواله تزداد سوءاً على مر الأيام، فضلاً عن أنه انطوى على المخاطر، لم يعد يخلو عهد أى أمبراطور من أخطار خارجية تدفعه إلى التحرك، أو منافسين طامعين فى العرش من الداخل، وأحياناً الاثنين معاً(٢).

ومن المشاهد أن الأباطرة العسكريين قد أحاطوا مناصبهم بهالة من قدسية، فكما كان الحال فى ممالك الشرق منذ أقدم العصور، أضفى على الأمبراطور طابع الألوهية والقدسية، فكل ماله مساس بشخصه مستمد من مفاهيم دينية مقدسة يفرضها على الشعب الرومانى(٣). وبعد أن كان الامبراطور فى أوائل عصر الأمبراطورية المواطن الأول أو الرئيس، أخذ حكمه الآن يميل إلى الاستبداد، وصارت بيده مقاليد الامور، والحل والنهى، مادام يستمد سلطته

---

(١) Downey, op. cit., p. 7; Stephenson (C.), Medieval History, Europe from the second to the sixteenth century, fourth edition, (U.S.A, 1962), p. 29

(٢) Downey, op. cit., pp. 7 - 8.

(٣) نورمان بينز: الامبراطورية البيزنطية، ترجمة د. حسين مؤنس، محمود يوسف زايد، (القاهرة ١٩٥٧م)، ص ٤ - ٥

بمقتضى قوى إلهية. ولم يعد خافياً على الناس أن أوريليان عندما اعتلى عرش الامبراطورية سنة ٢٧٠م، كان هو السيد والإله Dominus et deus، بهذه الصفات حدد أوريليان المعنى النهائي لمفهوم السلطة الأمبراطورية، التي سوف تتبلور على عهد دقلديانوس(١).

الأخطار الخارجية :

تعرضت الأمبراطورية الرومانية، فضلاً عن المشاكل الداخلية التي لازمتها، لأخطار خارجية على حدودها، من قبل أعدائها الجرمان المتبربرين والفرس. وهنا يجدر بنا أن نذكر أنه قبل انتهاء القرن الثاني، ازداد الضغط على حدود الأمبراطورية بتحرك القبائل الجرمانية المستقرة على جبهتي الراين والدانوب، وجرى قيامها بإغارات مكثفة وصلت داخل تلك الحدود. وحتى أواخر القرن الثاني أيضاً، كانت الجيوش الرومانية قادرة على حراسة الحدود ورد أي اعتداء يقع عليها بفضل أباطرة أمثال ماركوس أوريليوس (١٦١ – ١٨٠م) الذي قضى غالب فترة حكمه محارباً للجرمان، واستطاع فعلاً أن ينجح في حماية جبهة الراين. ولكن الوضع سرعان ما تغير على الحدود في النصف الأول من القرن الثالث، ففي شمال منطقة الراين الأدنى دخلت قبائل الجرمان في حلف عرف باسم الفرنجة، وفي الجنوب تأسس حلف من قبائل متباينة اتخذ اسم الأليماني، وفي جنوب منطقة الدانوب الأدنى تألف حلف من قبائل القوط والماركوماني Marco-mani وغيرها، وكان أن اقتحمت تلك القبائل دفاعات الأمبراطورية وحصونها، سعياً وراء الطعام والأسلاب. فنهبت إقليم الغال المعروف بثرواته العظيمة، وتقدمت في زحفها جنوباً حتى وصلت أسبانيا. كذلك تعرضت ولايات الدانوب للنهب، وواصلت القبائل المغيرة زحفها حتى استطاعت التوغل داخل شمال

---

(١) على الغمراوي : دراسات في تاريخ العصور الوسطى، جـ ١ ص ٦٩ – ٧١؛ مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربي الوسيط، (القاهرة ١٩٧٧ م)، ص ١٩١.

إيطاليا[1]. ولم يكف الأمبراطورية ما أحدثه الجرمان من متاعب لها، فعلى عهد الأمبراطور ڤاليريان (٢٥٣ – ٢٦٠م) دأب البربر والبدو الرحل على الإغارة على أملاك الأمبراطورية فى ولاية أفريقية الرومانية، ونهب مدنها ومزارعها[2].

أما فى الشرق، فقد واجهت الأمبراطورية الرومانية خطراً جديداً أتى هذه المرة من دولة الفرس، ذات الحضارة العريقة التى تفوق حضارة روما. والحق أن الصراع بين الفرس والرومان صراع قديم، تناولته الأحداث التاريخية فى الشرق قبل حقبة الميلاد. فبعد وفاة الاسكندر أثناء إقامته فى بابل إثر حمى شديدة قضت عليه فى سنة ٣٢٣ ق.م بعد عدة أيام وهو فى الثانية والثلاثين من عمره، حدث صراع بين خلفائه، استطاع خلاله سلوقس Seleucus أحد قادة الاسكندر أن يضع يده على الجزء الأكبر من آسيا الغربية، حيث أسرة السلوقيين التى بدأ حكمها منذ عام ٣١٢ ق.م. وكانت فارس فى بداية حكم تلك الأسرة جزءاً من الدولة السلوقية، ولكن لم يمض طويل وقت حتى أخذت تلك الدولة فى الضعف والانحسار، الأمر الذى مكّن أرشك فى بارثيا (خراسان الحالية) من أن يرفع لواء العصيان على السلوقيين فى عام ٢٥٦ ق.م، ويدخل فى حروب متعددة معهم، انتهت إلى التغلب عليهم وتأسيس دولة الأرشكيين أو البارثيين فى عام ٢٥٠ ق.م أو ٢٤٩ ق.م.[3] على أن دولة الأشكيين انقرضت فى عام ٢٤٤ م من جراء ضعفها المتزايد يوماً بعد يوم، وبعدها عن الاستقرار، فضلاً عن الحروب الأهلية التى استعل أوارها طمعاً فى العرش، وكثرة الثائرين ضدها. وكيفما كان الأمر، فقد انتقل الحكم فى فارس إلى الأسرة الساسانية، التى ظلت قائمة حتى الفتح

---

(١) Hoyt (Robert S.) & Chodorow (Stanley), Europe in the Middle Ages., (U.S.A., 1976), p. 22; Jones (A.H.M.), The Decline of the Ancient World, (London, 1975), pp. 11-12.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى، جـ ١ ص ٢١.

(٣) حسن بيرنيا : تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساساني، ترجمة د. محمد نور الدين عبد المنعم، د. السباعي محمد السباعي، ومراجعة د. يحيى الخشاب، (القاهرة ١٩٧٩)، ص ١٧٧ – ١٧٨.

العربي لفارس في القرن السابع الميلادي. وفي عهد تلك الأسرة تغير الموقف الفارسي تغيراً واضحاً، ذلك أن ملوكها أوجدوا حكومة مركزية قوية، استطاعت القضاء على الفتن، وإحياء الديانة الزرادشتية القديمة Zoroastrianism التي كان لها الفضل في إيقاظ الروح القومية الفارسية، بعد أن تأثرت الأمبراطورية الفارسية بالحضارة اليونانية من حيث الدين واللغة، إثر مجيء الاسكندر الأكبر إلى فارس، وسرعان ما ادعى الساسانيون أنهم ورثة الأسرة الأخمسينية (الهخمانشية) Achaemenid dynasty التي حكمت فارس قبل أن يزحف الاسكندر عليها، ونادوا بأحقيتهم في جميع الولايات التي حكمها داريوس – الذي كان معاصراً للاسكندر – وهي مصر وسوريا وآسيا الصغرى، واعتزموا استردادها من الرومان(١).

ويبدو أن فارس كانت العدو القوى المنيع الذي فاق في صلابته جميع القبائل الجرمانية وقتذاك (القرن الثالث)، ولذا صار على الامبراطورية الرومانية أن تواجه خطر ذلك العدو على جبهة الفرات، وبمعنى آخر لابد لها من تعزيز تلك الجبهة، رغم ما كانت تعانيه من نقص في الرجال. وعلى أي حال، بدأ الاحتكاك بين الفريقين – الفرس والرومان – عندما قام أردشير الأول مؤسس الأسرة الساسانية بعبور نهر الفرات سنة ٢٢٨م، وعندئذ كتب إليه الأمبراطور الاسكندر سيفيروس (٢٢٢ – ٢٣٥م) رسالة يذكره فيها بالهزائم التي حاقت بالبارثيين على أيدي الأباطرة تراجان وسبتميوس سيفيروس، الأمر الذي آثار حفيظة أردشير الأول، فأختار أربعمائة من الرجال الأشداء ذوي القامات الفارعة في كامل عدتهم وأسلحتهم، وأرسلهم إلى الامبراطور الروماني، وأجابه بقوله : «ان ما يمتلكه الرومان في آسيا هو إرث لي، ويجب على الرومان الاكتفاء بأوربا والانسحاب من آسيا!». ثم دارت المعارك بين الجانبين، انتهت إلى وقوع نصيبين وحران تحت سيطرة أردشير؛ وكان بإمكان أردشير أن يدخل سوريا منتصراً، ولكنه انحرف

---

(١) Jones, op. cit., p. 12.

أسد رستم . الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، (بيروت ١٩٥٥)، جـ١ ص ٤٥ - ٤٦.

عنها إلى أرمينية، فوقعت في يده بعد مقاومة شديدة(١). وواصل الفرس انتصاراتهم على الرومان، التي بلغت ذروتها عندما استطاع سابور الأول (٢٤١ – ٢٧٢م) – ابن أردشير الأول – أن ينزل الهزيمة الساحقة بالامبراطور ڤاليريان عند الرها ويأسره في عام ٢٦٠م، الأمر الذي زاد من عظمة الأسرة الساسانية في نظر العالم آنذاك. ويروى أن سابور قيد يدي الأمبراطور الروماني بالسلاسل، وأجبره على خدمته، فكان يضع قدميه على ظهره أثناء ركوبه، إلى أن أفنى ڤاليريان حياته أسيراً بائساً(٢)، ولم يعرف شئ عن مصيره. ولاريب أن هيبة روما في الشرق الأدنى قد تأثرت من جراء تلك الكارثة، فلم تعد إليها كما كانت من قبل، كما أنه جرى انغماسها منذئذ في حروب مع الجيوش الفارسية، بدا فيها تخاذلها واضحاً. ولعل أهم ما كشفت عنه تلك الحروب أن الأمبراطورية الرومانية لم يعد بوسعها المحافظة على حدودها التقليدية في الشرق إلا بصعوبة بالغة(٣).

وأخيراً في النصف الثاني من القرن الرابع، أراد الأمبراطور چوليان (٣٦١– ٣٦٣م) أن يضع حداً للخطر الفارسي، فأتى بجيوشه إلى أنطاكية في خريف عام ٣٦٢م، وبدأت الحرب بينه وبين الفرس في العام التالي التي انتهت بانتصاره وفرار الجيش الفارسي. وعندئذ أخذ چوليان يتعقب الفرس المتقهقرين، فعبر على رأس جيوشه نهر الفرات، ثم نهر دجلة، ولكنه لاقى صعوبات بالغة، وكاد يلاقي الهزيمة من جراء الخطة التي اتبعها الفرس أثناء تقهقرهم، وأرادوا بها إحراق جميع المحصولات في كل جزء يخلونه من البلاد. ورغم ذلك تقدم الجيش الروماني حتى طرق أبواب طيسفون (المدائن عاصمة فارس) Ctesiphon وضرب عليها الحصار، ولكنه اضطر إلى الارتداد عنها لعجزه عن الحصول على المؤن. وعندئذ

---

(١) حسن بيرنيا : تاريخ إيران القديم، ص ٢٢٣ – ٢٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٦ – ٢٢٧؛ أسد رستم، الروم، ص ٤٧.

(٣) موس : ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة د. السيد الباز العريني، القاهرة ١٩٦٧)، ص ٢٣ – ٢٥.

لجأ سابور الثانى إلى الحيلة، فاختار رجلين من أشراف الفرس، وجدع أنفيهما، وأمرهما أن يذهبا إلى جوليان ويدعيا أنهما فرا من عند الملك الفارسى لقسوته عليهما، ثم يقوداه إلى صحراء قاحلة، وفعل الرجلان ما أمرا به، وصدقهما جوليان، ولكنه لم يلبث بعد أن سار مسافة عشرين ميلاً حتى وجد نفسه فى صحراء جدباء، فأدرك الكمين الذى نصب له؛ وبينما كان يحاول إنقاذ رجاله أصابته حربة، فسقط عن ظهر جواده، وأسلم الروح وهو فى الثانية والثلاثين من عمره[١].

ومن الأخطار الخارجية التى واجهتها الأمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث أيضاً، وأعطت دليلاً آخر على ضعفها، ظهور دولة تدمر Palmyra التى لم تكتف بالخروج على طاعة روما، بل أعلنت تحديها بالاستقلال عن نفوذها. وكان الرومان قد استولوا على تدمر فى القرن الأول الميلادى بعد أن أدركوا أهميتها التى إستمدتها من وقوعها على طريق القوافل التجارية بين موانى سوريا على البحر المتوسط والفرات من ناحية، وعلى تلك التى تصل شبه الجزيرة العربية بشمالى سوريا وأعالى العراق من ناحية أخرى. وقد بدأت تدمر تلعب دوراً مستقلاً عن الامبراطورية الرومانية عندما قام الملك الفارسى سابور الأول بالهجوم على أملاكها فى الشرق، واستدعى الأمر وجود الأمبراطور فاليريان كما ذكرنا من قبل. بعد ذلك استطاع أذينة بن السميدع الذى عرفه الرومان باسم سبتميوس أوديناثوس Septimius Odenathus حاكم تدمر أن يحوز ثقة الأمبراطور جالينوس Gallienus (٢٦٠ – ٢٦٨) – ابن فاليريان – بعد أن ساعده فى حروبه ضد فارس، ويبدو ذلك جلياً عندما تصدى أذينة لسابور أثناء رجوعه من آسيا الصغرى إلى فارس، وبدأت الحرب بينهما التى انتهت بانتصار أذينة وإذلال سابور، حتى أنه بلغ نهر دجلة بصعوبة بالغة. ويرجع إليه الفضل أيضاً فى استعادة المناطق الرومانية التى انتزعها الفرس فى أعالى العراق، بل ونقل ميدان الحرب بين الفرس والرومان إلى طيسفون عاصمة فارس، ونظير

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، مجلد ٤، جـ ١، ص ٤٢ – ٤٥.

الخدمات الجليلة التي أداها أذينة للجيش الروماني، منحه جاليئوس لقب أمبراطور Imperator أي زميلاً له، وأمر بوضع صورته مع صورة الأمبراطور على النقود التي أخذت غنيمة من الفرس، كما عهد إليه مهمة الإشراف على المنطقة الواقعة بين مصر وآسيا الصغرى، حدث ذلك في الوقت الذي أطلق فيه أذينة على نفسه ملك تدمر وملك الملوك، رغم أنه كان لايزال تابعاً للأمبراطورية الرومانية[1]. وبعد أن مات أذينة في سنة ٢٦٧م انتقلت السلطة إلى زوجته الجميلة الموهوبة زنوبيا (الزباء) Zenobia، التي تميزت بجلدها وثباتها وشجاعتها وبراعتها في الحكم، بالاضافة إلى أنها جمعت كثيراً من أسباب الثقافة ورجاحة العقل، فأحاطت نفسها في بلاطها بالعلماء والشعراء والفنانين. وهنا نلاحظ أنه بموت أذينة انتهت السلطة التي خولتها روما إياه وحده، بوصفها امتيازاً شخصياً له، ورفض الامبراطور جاليئوس تجديد صلاحيتها لزنوبيا وابنها فابالاثوس Vaballathus، الأمر الذي بعث الاحتقار في قلب زنوبيا للرومان والامبراطور جميعاً. وفي غمرة هذه الأحداث التي كان الفرس والرومان مسرحاً لها، استطاعت زنوبيا أن تحافظ على تاج تدمر لإبنها، الذي عرف عنه أنه كان أداة طيعة في أيدي أمه. على أي حال، اعتزمت زنوبيا، بعد أن أدركت ما وصلت إليه الأمبراطورية من ضعف، إقامة أسرة حاكمة ودولة جديدتين، بمعنى أرادت زنوبيا أن تلعب دوراً مستقلاً في الشرق. ومن أجل الوصول إلى هدفها، كرست كل ما لديها من نشاط دائب، ومواهب عظيمة، ومقدرة فذة. وفي عزم وتصميم بالغين أعلنت استقلالها عن روما في عام ٢٧٢م، ولم تلبث أن سارت على رأس جيوشها، حتى وصلت مشارف مصر أهم مستودع يمد روما بالقمح، وتمكنت من فتحها والاستيلاء عليها فترة قصيرة. ولاريب أن مطامع زنوبيا وما وصلت إليه أثارت مخاوف الامبراطور أوريليان Aurelian الذي اعتلى عرش الأمبراطورية سنة ٢٧١م. فأخذ يفكر جدياً في الاطاحة بزنوبيا، والقضاء على

---

(١) Sinnigen (William G.) & Boak (E.R.), A Hist. of Rome to A.D. 565. Six edition, (U.S.A., 1977), pp. 393-394.

محاولة الاستقلال التى قامت بها. وكان أن زحف على رأس قواته نحو الشرق فى العام التالى (٢٧٢م)، وتمكن من استرداد المناطق التى استولت عليها زنوبيا فى أسيا الصغرى، ثم واصل تقدمه حتى بلغ أنطاكية التى هجرها الأهالى قبل أن يقترب الأمبراطور منها، ولما وصل مدينة حمص التقى مع زنوبيا فى معركة عنيفة، انتهت إلى الحاق الهزيمة بزنوبيا وارتدادها إلى تدمر، حيث قبعت داخل أسوارها. ولكن الامبراطور ما لبث أن تعقبها، وألقى حصاراً عنيفاً على المدينة فى نفس العام، انتهى بسقوطها فى يده، وأسر زنوبيا أثناء محاولتها الفرار إلى فارس. وهكذا أخفقت زنوبيا فى تحقيق ما هدفت إليه، وقدر لها أن تسير مكبلة بالاغلال في موكب أوريليان أثناء دخوله روما مكللاً بتاج النصر، وفى العاصمة سمح لها بأن تقضى البقية الباقية من حياتها حرة إلى حد ما(١).

دقلديانوس : (٢٨٤ - ٣٠٥)

وهكذا عمت الفوضى الشاملة أرجاء الأمبراطورية فى القرن الثالث، فلم يعد الانسان آمناً على حياته أو معيشته، وتفشت الأوبئة والأمراض، وصار حدوث المجاعات أمراً مألوفاً، وتكررت غزوات الجرمان والبرابرة على الحدود، ناهبة المدن القديمة التى كانت مولداً ونبراساً للحضارة، وبعد أن كان أهالى تلك المدن ينعمون بالحياة الهادئة طوال عدة قرون، وينحصر جل تفكيرهم فى الحصول على الكماليات والسلع الترفيهية، صاروا عاجزين عن الوقوف أمام الخطر الجرمانى، ولم يعد بوسعهم أن يفعلوا شيئاً سوى تقوية تحصيناتهم داخل مدنهم، تاركين ضواحيها فريسة للسلب والضياع، فنهبت المزارع، وأتلفت المحاصيل، وتركت مساحات هائلة من الأراضى الزراعية الخصبة بوراً؛ وكان من الطبيعى أن تمتد يد الفوضى والخراب إلى الصناعة والتجارة، فانهارت تقاليدهما ونظمهما(٢).

---

(١) Sinnigen & Boak, op. cit., pp. 394 - 395; Chapot (Victor), Le Monde Romain., (Paris, 1951), p. 81; Cary (M.) & Scullard (H.H.) A Hist. of Rome. Third edition, (London, 1975), pp. 513-514.

(٢) Robinson, op. cit., p. 401.

وفي وسط تلك الفوضى الضاربة بجذورها في أعماق الأمبراطورية، خاصة بعد انتهاء حكم أسرة سيفيروس سنة ٢٣٥م، بدت الأمبراطورية في حاجة ملحة إلى أباطرة ينتشلونها من وهدتها، ويعملون على إنقاذها مما تمكن بأرجائها من مظاهر الضعف والانحلال من ناحية، والأخطار الخارجية التي تهددتها من ناحية أخرى.

وقيض للأمبراطورية جندي رقيق الحال فلاح الأصل، من إقليم دلماشيا المطل على البحر الادرياتي، هو الأمبراطور دقلديانوس، ليقوم بتدارك موقف الامبراطورية المتداعي، ومعالجة مشاكلها المتفاقمة. ولا نجافي الحق إذا قلنا أن دقلديانوس تمتع بشخصية قوية شجاعة أثارت الهيبة في نفوس رعاياه، لاسيما بعد أن خلع على نفسه صفة الألوهية، وأوجد لنفسه مكاناً وسط الآلهة. وقد دفعه إلى ذلك اعتقاده أن عظمة الأمبراطور ستزداد قوة ونفوذاً، وحياته ستكون أكثر أمناً، لو أنه زج بنفسه وسط الآلهة؛ وكان أن جرت عبادته في معظم أنحاء الأمبراطورية، خاصة في الجزء الشرقي منها. ولم يكتف دقلديانوس بذلك، بل نقل عن ملوك الساسانيين في فارس الذين أحاطوا أنفسهم بهالة من العظمة والقدسية والجلال، الكثير من تقاليدهم ومراسم احتفالاتهم وثيابهم الرسمية، فلم يعد يكثر من التنقل بين رعاياه، واختار العيش منعزلاً عن الأعين في بلاط قائم على سلسلة طويلة من المراسم، وهكذا صار الأمبراطور حاكماً مقدساً مترفعاً، محجوباً عن شعبه، وجب على من يريد مقابلته أن ينطرح على الأرض أمامه صاغراً، ويقدم له فروض الطاعة والولاء ذليلاً؛ وصار يلبس عند ذاك تاجاً وحذاء قرمزياً وأثواباً ذات لون أرجواني[١]. وفي نفس الوقت حرص دقلديانوس بعد ارتقائه عرش الأمبراطورية على إلغاء نظام الحكم الذي وضع أوغسطس قواعده، ملقياً به عرض الحائط، وشرع في حكم الأمبراطورية حكماً استبدادياً مطلقاً لم تعهده من قبل، فله وحده حق التصرف المطلق في الشئون المالية، وحق تشريع

---

(١) رنسيمان (ستيفن)، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكي علي (القاهرة ١٩٦١)، ص ١٦ - ١٧؛ بينز، الأمبراطورية البيزنطية، ص ٧٨ - ٧٩

القوانين والاستئثار بالسلطة التشريعية، وهو القائد الأعلى للجيش، وسياسته هى التى تقرر مصير الملايين من رعاياه. أما مجلس السناتو، فعلى ضوء ما صار إليه الحال منذ بداية حكم دقلديانوس، لم يلبث أن تجرد تماماً من سلطته التشريعية، وضاعت امتيازاته الشكلية، وبذلك صار شبحاً من أشباح الماضى لامعنى له(١).

على أن دقلديانوس أخذ على عاتقه – منذ بداية حكمه – إصلاح شأن الأمبراطورية وتقويتها، واضعاً فى حسبانه ما ينبغى عليه انجازه. صحيح أنه ليس أول الأباطرة الذين تولدت فى نفوسهم رغبة الإصلاح، وصحيح أيضاً أن معظم أعماله كانت حلقة فى سلسلة الإصلاحات التى قام بها بعض الأباطرة المصلحين من قبله، إلا أنه كان من أشد المتمسكين بالعودة بالامبراطورية إلى سابق مجدها وعظمتها فى أيامها الأولى. ولمعالجة مشاكل الأمبراطورية الملحة، فكر دقلديانوس جدياً فى إعادة النظام والاستقرار إلى جميع أنحاء الأمبراطورية، وإصلاح الشئون المالية، وإعادة تنظيم الجهاز الإدارى، ومضاعفة عدد الجيش.

وقد كان من المألوف قبل عهد دقلديانوس تركيز السلطة فى أيدى الأباطرة، غير أن ما تميزت به الأمبراطورية من مساحة شاسعة، جعلت من الصعب على فرد واحد أن يضطلع بأعبائها بكفاءة ومقدرة. وقد سبق لماركوس أوريليوس (١٦١ – ١٨٠م) أن عين رفيقا له Consort عند بداية حكمه، كما قسم فاليريان (٢٥٤ – ٢٦٠م) الأمبراطورية بينه وبين ابنه جالينوس. وهنا نلاحظ أن دقلديانوس فعل نفس الشىء، فبعد ثلاث سنوات من توليته منصب الأمبراطورية، عين ماكسيميان وهو قائد قدير من بانونيا، زميلاً أو قسيماً له بلقب «أوغسطس»(٢) Colleage (Co-emperor) or fello-Augustus، وترك له

(١) رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ص٦٢؛ Painter, op. cit., p. 6; Stephenson, op. cit., p. 29.

(٢) أوغسطس لقب اشتهر به أوكتافيانوس (٢٧ ق.م – ١٤م) وحمله من بعده أباطرة روما، ومعناه العظيم أو الجليل.

مهمة حكم الجزء الغربي من الأمبراطورية، على حين احتفظ هو بحكم الجزء الشرقي. ويبدو أن دقلديانوس رأى أن ذلك التقسيم غير كاف للقيام بأعباء الأمبراطورية، إذ بعد ذلك بسبع سنوات (٢٩٣م) عين قنسطنطيوس وجاليريوس Galerius كمساعدين شركاء يحمل كل منهما لقب «قيصر» Caesar، وله مسئولية إقليمية خاصة، الأولى لمساعدة ماكسيميان في الغرب، والأخير لمساعدة الأمبراطور في الشرق، وهكذا قسمت الأمبراطورية إلى أربعة أقسام إدارية، يشتمل كل قسم منها على عدد من الولايات : فعهد إلى قنسطنطيوس بالغال وأسبانيا وبريطانيا، أما جاليريوس فقد احتفظ بمناطق الدانوب والبلقان، في حين عهد إلى ماكسيميان بإيطاليا وأفريقية، أما دقلديانوس فقد احتفظ بمصر وتراقيا والولايات الآسيوية. وبمقتضى هذا النظام تقرر أن يستقل الأوغسطان بعد عشرين سنة من بداية مباشرة مهام منصبيهما، على أن يحل القيصران محلهما؛ وبذلك تتلافى الامبراطورية قيام أية مشاكل حول وراثة العرش من ناحية، والبعد عن ويلات الحروب الأهلية من ناحية أخرى. ومما يجدر ذكره أن دقلديانوس لم يفقد سلطته الامبراطورية بموجب ذلك التنظيم، إذ أن تلك السلطة بمعناها الحقيقي ظلت في يده، فهو وحده قائد الجيش، والسيد الأعلى، له لقب الأمبراطورية ووظيفتها[١]. ثم رأى دقلديانوس أن ما أوجده من تنظيم إدارى للأمبراطورية بقسميها الشرقي والغربي، يقتضي قيام أربع مدن رئيسية كبرى تصلح مقراً للحكام الأربعة الكبار في الأمبراطورية، وتلك المدن هي : تريف على نهر الراين بألمانيا أقام فيها قنسطنطيوس، وسرميوم (بلغراد الحالية) أقام فيها جاليريوس، وميلان بشمال إيطاليا – لأن روما لم تعد صالحة للبقاء عاصمة وحيدة للأمبراطورية الضخمة – أقام فيها ماكسيميان، ونيقوميديا (ازمت الحالية) Izmit على الشاطىء الآسيوى للبوسفور، وقد اختارها دقلديانوس لنفسه حتى يستطيع مراقبة مناطق الدانوب في الشمال والأطراف الفارسية في الشرق[٢].

---

(١) Robinson, op. cit., p. 404; Jones, op. cit., p. 29.

(٢) انظر: أوربا العصور الوسطى، جـ ١ ص ٢؛ دوسن (كريستوفر)، تكوين أوربا، ترجمة ومراجعة د. محمد مصطفى زيادة، د. سعيد عاشور، (القاهرة ١٩٦٧)، ص ٢١.

والأمر الذى لا خلاف فيه أن نجاح ذلك التنظيم الذى أوجده دقلديانوس يرجع بالدرجة الأولى إلى نفوذه الشخصى، وليس إلى جوهر التنظيم نفسه أو روحه، بدليل أنه عندما استقال دقلديانوس من منصبه فى عام ٣٠٥م، كان هو الذى أجبر زميله ماكسيميان على التقاعد مثله، فى الوقت الذى استغل فيه نفوذه الشخصى من أجل وصول قنسطنطيوس وجاليريوس إلى منصب الأوغسطين، واختيار قيصرين جديدين لهما. وهكذا بات من الواضح أن النظام الذى أسس دقلديانوس قواعده لم يأت بالفائدة المرجوة منه عند التطبيق، لاسيما أن من العيوب الجسيمة التى انطوى عليها عدم تذرع القيصر بالصبر حتى يصير أوغسطس، كما أن كل قائد فرقة عسكرية دفعته أطماعه وأحلامه – بعدئذ – لمحاولة الوصول إلى منصب الأوغسطس أو القيصر(١).

ويعتبر إصلاح النظم المالية وإيجاد نظام عادل لجمع الضرائب من أهم الواجبات الملحة، التى رأى دقلديانوس العناية بها. فبدأ بسك عملة نقدية سليمة لوقف التضخم والحد من ارتفاع الأسعار فى عام ٢٩٦م، ورغم ما أحرزته تلك العملة من نجاح، إلا أن الأسعار ظلت مرتفعة، ولكى يتغلب على تلك المشكلة، بادر بإصدار مرسوم فى عام ٣٠١م – لايزال جزء منه باقياً حتى يومنا هذا – تضمن الحد الأقصى لأثمان السلع العادية والمنتجات التى تمثل الحاجات الأساسية للرعايا الرومان، مثل القمح والزبد والجبن واللحم والمصنوعات الجلدية والأقمشة. وفى المقابل عمل دقلديانوس على ضرورة تثبيت الحد الأقصى لمعدلات الأجور للعاملين فى مختلف المهن، مثل صناع السفن، وعمال الحرير والصوف، والنقاشين، ومدرسى المدارس الابتدائية والثانوية؛ وهنا نلاحظ أن دقلديانوس بذل قصارى جهده لسريان المرسوم، فصار الموت عقوبة مخالفيه. فيما يتعلق بتدهور الطبقات الدنيا من جراء الأوضاع الاقتصادية السيئة فى الأمبراطورية، بحيث صار من الصعب عليها مواجهة متطلبات الحكومة، وبلغ الأمر ذروته عندما اضطر الكثير من أفرادها إلى ترك مزارعهم وهجر تجارتهم، عمل دقلديانوس

---

(١) Painter, A Hist. of the Middle Ages, p. 4

على مواجهة تلك المشكلة، بأن أصدر مرسوماً أجبر فيه الفلاحين وأصحاب المهن والحرفيين على قبول مبدأ الوراثة، بمعنى أن يتكفل الأبناء بمزاولة مهنة الآباء إلزاماً، سواء رغبوا في ذلك أم كرهوا، وبذلك ارتبط صغار المزارعين بالأرض من جهة، وصارت الحرفة وراثية من جهة أخرى(١).

أما بالنسبة لنظام الضرائب، فبسبب ارتباك نظام السيولة النقدية في الامبراطورية لجأ دقلديانوس إلى فرض الضرائب العينية بدلاً من الضرائب النقدية، وألقى على عاتقي ملاك الأراضي وموظفي مجالس المدن مسئولية جمع الضرائب المقررة. والجدير بالذكر أن عضوية مجالس المدن كانت من الوظائف المرموقة التي يتطلع الكثير إلى الحصول عليها، ولكنها غدت ابتداء من عصر دقلديانوس عبئاً ثقيلاً، فأصحابها لم تقتصر مهمتهم على القيام بالأعمال المسندة إليهم فحسب، بل صاروا ضامنين للضريبة المقررة، والويل كل الويل إذا ثبت فشلهم في جمعها من الأهالي، فعليهم أن يتحملوا دفع قيمتها، ويجرى إبعادهم بعد ذلك عن وظائفهم، حيث تقع عليهم وحدهم تبعة البحث عن وسائل أخرى لمعيشتهم(٢).

وإذا انتقلنا إلى الجيش، نلاحظ أن دقلديانوس اعتزم جعله الأداة الجديرة بالدفاع عن الامبراطورية وحدودها ضد أعدائها، ويتضح ذلك بجلاء في حرصه على التمسك بفكرة خطوط الدفاع على الحدود، فبنى العديد من القلاع والتحصينات، والمواقع الدفاعية المنيعة حيث ترابط الحاميات بصفة دائمة، وشق الطرق الضخمة التي تسمح للجند بالتحرك السريع. ورغم أن بعض الفرق العسكرية كانت تشتمل — آنذاك — على أعداد من الجرمان في أوربا، والبربر في أفريقية، والعرب في سوريا، إلا أن الغالبية العظمى تألفت من المواطنين الرومان المتمتعين بحقوق المواطنة الرومانية كاملة. وحرصاً من دقلديانوس على درء الأخطار الخارجية، استلزم الأمر زيادة أعداد الجيش، لذلك أصدر أوامره بجعل

---

(١) Robinson, A Hist. of Europe., pp. 466 467, Hay, The Medieval Centuries., p. 4

(٢) Barrow, op. cit., pp. 173.

الخدمة في الجيش إلزامية، كما سمح – لأول مرة – لأبناء الجنود والمحاربين القدماء والمتطوعين بالانخراط في سلك الجيش[١]. ولم يلبث دقلديانوس – ومن بعده قنسطنطين – أن قام بإدخال بعض الاصلاحات على الجيش، فأعاد تنظيمه على أسس جديدة، بأن قسمه إلى فرعين واضحين : أحدهما للقيام بواجبه في حراسة حدود الأمبراطورية عند نقاط معينة، ويتألف هذا الفرع من جند وراثيين يتناولون أجورهم أرضاً أطلق عليهم قوة الحدود Limitanei؛ أما الفرع الآخر، فكان بمثابة جيش مركزي احتياطي سريع الحركة هو جيش المعية أو الرفقاء Comitatenses (الرفقاء هم هيئة النبلاء المحاربين الملحقين بشخص الأمبراطور) تحت قيادة الأمبراطور، على أهبة الاستعداد للتحرك، لدفع الأخطار عن الأمبراطورية في حينها دون إضاعة الوقت؛ أما الحرس البرايتوري (الأمبراطوري) الذي كان يلعب دوراً هاماً في تنصيب الأباطرة وخلعهم، فقد ذهب إلى غير رجعة[٢].

قنسطنطين : (٣٠٦ – ٣٣٧)

تنازل دقلديانوس عن العرش في عام ٣٠٥م، بعد أن بلغ الستين من عمره، ونال منه المرض، غير أن تنازله أعقبه نشوب حرب أهلية، أدت إلى انهيار نظام وراثة العرش الذي وضعه – حسبما أسلفنا – بهدف تجنب الأمبراطورية قيام الثورات وأخطار الحروب الأهلية. وقد استمرت الحروب الأهلية مشتعلة سبع عشرة سنة، حتى استطاع قنسطنطين الوصول إلى عرش الأمبراطورية بعد أن تغلب على منافسيه. وكان قنسطنطين الابن الأكبر لقنسطنطيوس، من أم كانت ساقية (نادلة) في حانة تدعى هيلينا، ولد في نيسوس (نيش في يوغوسلافيا) Naissus في ١٧ فبراير حوالي سنة ٢٨٠م، وعندما صار والده قيصرا ومسئولاً عن بريطانيا وغالة طبقاً للنظام الذي وضعه دقلديانوس، طلق زوجته هيلينا حتى

(١) Stephenson, op. Cit., p. 53; Charlesworth, The Roman Empire., p. 44.

(٢) Cary & Wilson, op. cit., pp. 339-340;
رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ١٦؛ بينز، الأمبراطورية البيزنطية، ص ١٧١ – ١٧٢.

يستطيع الزواج من ثيودورا ابنة ماكسيميان، وأرسل طفله قنسطنطين إلى بلاط دقلديانوس لينال قسطاً من التعليم(١). ولما مات قنسطنطيوس بمدينة يورك ببريطانيا، نادت حاميتها الرومانية بابنه قنسطنطين أمبراطورا سنة ٣٠٦م، حسب الطريقة الوبيلة التي بذل دقلديانوس جهده، وقام بإصلاحاته، ابتغاء الحيلولة دون وقوعها من بعده(٢). وهكذا اندلعت نيران حرب أهلية مريرة استمرت حتى سنة ٣١٠م حين كان هناك ثلاثة من الزعماء يتنازعون السلطة، كان هناك ليسنيوس Licinius في الشرق، وماكسنتيوس في إيطاليا، وقنسطنطين الذي ارتكزت قوته على بريطانيا وغالة. وقد برهن قنسطنطين على أنه قائد بالغ المهارة، يتميز بالشجاعة الفائقة، ففي سنة ٣١٢ زحف بقواته عبر جبال الألب إلى روما لمقابلة خصمه ماكسنتيوس الذي كان يتفوق عليه كثيراً في عدد جنوده. وفي معركة جسر ملڤيان Milvian Bridge على مقربة من روما، دارت معركة هائلة، انتصر فيها قنسطنطين على منافسه وقتله، وجعله هذا النصر سيداً على الغرب؛ وتقاسم قنسطنطين حكم الامبراطورية مع ليسنيوس حاكم الشرق فيما بين عامي ٣١٢ و٣٢٤، وفي سنة ٣٢٤ هزم قنسطنطين خصمه الشرقي وخلعه عن عرشه، وبذلك توحدت الامبراطورية على يده مرة أخرى(٣).

ولا يخفى علينا أن قنسطنطين سار على خطة سلفه دقلديانوس في الإصلاحات الإدارية والتنظيمات المالية والحربية، فقام بإتمام الأعمال التي بدأها ذلك الأمبراطور، حتى أنه صار من الصعب وضع خط فاصل بين أعمال هذين الأمبراطورين(٤) فمازالت العملة الرومانية على عهد قنسطنطين في تحسين مضطرد، بشكل أدى إلى إحياء الثقة واستقرار الوضع الاقتصادي في الامبراطورية(٥). ومما يؤكد نجاح قنسطنطين في تثبيت العملة أنه أنشأ عملة

---

(١) Jones, The Decline of the Ancient World., p. 39.

(٢) قشر، أوربا العصور الوسطى، جـ ١ ص ٤.

(٣) كانتور : تاريخ العصور الوسطى، (القاهرة ١٩٧٧)، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، مراجعة د. على الغمراوى، جـ ١، ص ٧٦.

(٤) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ ١ ص ٢٦.

(٥) Cary & Wilson, A Shorter Hist. of Rome., p. 342.

ذهبية جديدة تسمى الصوليدس (الصولدى) Solidus حافظت على وزنها ونقائها- غير منازع - حتى القرن الحادى عشر الميلادى[١]. وقد حقق السلام الذى ساد ربوع الأمبراطورية انتعاشاً فى أسواق الذهب والفضة، فكثر تداولهما، وأخذ الإنفاق طابع السخاء. ومما يدل على ذلك ما لجأ إليه ليسنيوس خلال الصراع الذى احتدم بينه وبين قنسطنطين حول الوصول إلى منصب الأمبراطور، فقد أعطى لمؤيديه هدايا تذكارية فى صورة صحاف من الذهب والفضة، كما قدم قنسطنطين لقواده ومؤيديه هدايا مماثلة لتأكيد إخلاصهم وولائهم. ومن المحتمل أن وفرة المعادن الثمينة آنذاك ترجع إلى إحياء العمل فى مناجم الذهب القديمة من جهة، واستغلال مناجم جديدة من جهة أخرى. يضاف إلى ذلك أن جزءاً من انفاق قنسطنطين أتى من احتياطى الذهب والفضة الذى كدسه ليسنيوس، ثم آل إليه فى نهاية الأمر بعد أن تغلب عليه؛ ولم يكد ينفذ ذلك الاحتياطى، حتى قام قنسطنطين بمصادرة كنوز المعابد الوثنية القديمة، الأمر الذى هيأ له الحصول على كميات هائلة من سبائك الذهب والفضة[٢].

ولما كانت الأمبراطورية قد خلت من أصحاب المهن الحرفية المدربين من جراء متاعب القرن الثالث، فقد أولى قنسطنطين تلك المشكلة عنايته، وعمل على علاجها بأن أصدر مرسوماً سنة ٣٣٧م جاء فيه : «نحن الأمبراطور، نأمر المهنيين المسردين فى القائمة الملحقة، فى أية مدينة اختاروا الإقامة فيها، بأنهم سوف يعفون من جميع الخدمات العامة، شريطة أن يكرسوا أوقاتهم لمزاولة حرفهم، كى يصبحوا أكثر مهارة وخبرة، وعليهم تدريب أبنائهم. وأولئك المهنيون هم : المهندسون، وصانعو السقوف المصورة، والجصاصون، والنجارون، والأطباء، والحجارون، وصائغو الفضة، والبناءون، والبيطريون، والناسجون بالذهب، وبناءو الأرصفة، والرسامون، والنحاتون، والحدادون، وبناءو الرخام، وسباكو المعادن، وصباغو الثياب الأرجوانية، وصانعو الزجاج، والخزافون، والسمكريون،

---

(١) رنسيمان . الحضارة البيزنطية، ص ١٩.

(٢) Kent & Painter, Wealth of the Roman World., pp. 15 - 18.

والفراعون». ولاجدال أن ذلك المرسوم أثبت أن هناك عجزاً خطيراً في جميع أنواع المهن الحرفية المدرية، كما أنه أظهر في نفس الوقت كيف أن إنقاذ الامبراطورية من أزمة القرن الثالث كان عملاً بطيئاً معقداً، تطلب جهوداً مضنية(١).

ولم ينس قنسطنطين أن يمد يد الإصلاح إلى الجانب العسكري، فواصل سياسة سلفه في تحصين الأمبراطورية وتقوية دعائمها، وأمر بتشييد سلسلة من الحصون المنيعة على امتداد جبهتي الراين والدانوب، وسواحل ويلز وكمبرلاند Cumberland في بريطانيا؛ على أنه زاد من أعداد الجرمان في الجيش زيادة هائلة، لميله إليهم، وتفضيلهم على غيرهم(٢).

وإذا كانت الاصلاحات التي قام بها قنسطنطين تعتبر إمتداداً لما قام به سلفه دقلديانوس كما سبق أن ذكرنا، فإن اعترافه بالمسيحية، وتأسيسه القسطنطينية وجعلها عاصمة للأمبراطورية، جعلا منه علامة بارزة في مجرى التاريخ، ونقطة تحول هامة في مسيرة الحضارة العالمية. إذ بفضل هاتين الخطوتين يمكن القول أن العالم ألقى خلفه رداء العصر القديم، وأخذ يوجه أنظاره نحو آفاق العصر الوسيط. وسوف نتناول موضوع اعتراف قنسطنطين بالمسيحية تحت عنوان مستقل، مكتفين الآن بتناول الحديث عن تأسيس القسطنطينية.

الواقع أن تأسيس القسطنطينية واتخاذها عاصمة للأمبراطورية الرومانية يدل على شجاعة وجرأة بالغين، لأن روما كانت رمزاً لعظمة تلك الامبراطورية. ويبدو أن قنسطنطين أدرك بثاقب بصيرته أن روما لم تعد تصلح مقراً للأمبراطورية، لأنها من الناحية العسكرية بعيدة عن الحدود، يضاف إلى ذلك أنها تموج بأنصار الجمهورية. وغير خاف أن روما أخذت تزداد ضعفاً منذ وفاة

---

(١) Ibid., p. 18.

(٢) Cary & Wilson, op. cit., p. 339; Jones, op. cit., p. 47.

الأمبراطور أوكتافيانوس أوغسطس سنة ١٤م، ولذلك اقتنع دقلديانوس تماماً عندما أراد إحداث تغييرات جوهرية في جسد الأمبراطورية، أن روما لم تعد تصلح مقراً مناسباً لإدارة الحكم، وجرى نقل عاصمته إلى نيقوميديا الواقعة في تركيا الأسيوية(١). وكذلك كان الأمر بالنسبة لقسطنطين، فبعد أن أمضى ثمانية عشر عاماً يجاهد من أجل الوصول إلى المنصب الأمبراطوري، أعلن في عام ٣٢٤م عن قراره نقل العاصمة بعيداً عن روما؛ وقد كان أمامه العديد من المدن القديمة التي كان بإمكانه أن يختار إحداها عاصمة جديدة، مثل نيقوميديا التي اتخذها سلفه عاصمة له، وكان بوسعه أيضاً أن يختار إحدى المدن القديمة الشهيرة مثل الاسكندرية أو أنطاكية، وكلتاهما من المراكز التجارية العظيمة، أو أثينا المعروفة بتاريخها العريق، ولكنه آثر أن يبتعد عن كل ماله علاقة بالماضي(٢). والحقيقة أن المسألة لم تكن مجرد التخلص من الارتباط العاطفي بالماضي، فهي أبعد من ذلك بكثير في رأينا. إذ المعروف أن الأخطار الرئيسية التي تهدد الأمبراطورية جاءت من جبهتي الدانوب والفرات، وبمعنى آخر من ناحية البرابرة الضاربين على مقربة من ثغور الأمبراطورية وأطرافها شمال نهر الدانوب من ناحية، ومن قبل الفرس فيما وراء نهر الفرات من ناحية أخرى. ولمواجهة تلك الأخطار، كان لابد من الانتقال من روما إلى الشرق، ومن أجل ذلك نبتت في ذهن دقلديانوس فكرة نقل مقر حكمه إلى نيقوميديا في الجزء الشرقي من الأمبراطورية كما رأينا. كذلك اعتزم قنسطنطين اتخاذ مكان بالقرب من البوسفور يصلح مقراً للامبراطورية، حتى يتمكن من مراقبة جبهتي الدانوب والفرات والإشراف عليهما بنفسه، أما جبهة الراين فمن الممكن أن يعهد بمسئولية حمايتها إلى حاكم بلقب قيصر(٣).

وكيفما كان الأمر، فقد اختار قنسطنطين عاصمته الجديدة مكان بيزنطة القديمة الواقعة على البوسفور. وقد أسس بيزنطة جماعة من الملاحين من ميجارا

---

(١) Rice (Tamara Talbot), Byzantium, (London, 1969), p. 10.

(٢) Ibid., pp. 11-12.

(٣) Gwatkin & Dixie, "Constantine and his City", in Camb. Med. Hist., Vol. I, p. 16

Megara عام ٦٥٧ ق. م. وقبل تأسيسها كانت جماعة أخرى من المستعمرين الميجاريين قد استقرت في خلقدونية على شاطىء البوسفور الآسيوى المقابل. وقد لجأ أولئك الذين قدر لهم تأسيس بيزنطة إلى معبد دلفى ليشير عليهم بما يراه، فأشار عليهم أن يبنوا مدينتهم «في الجهة المقابلة لمدينة العميان». وفى حيرة بالغة بدأ أولئك الرواد رحلتهم بحثاً عن الحظ حتى وصلوا إلى الموقع المجاور للقرن الذهبى، حيث يتقابل بحر مرمرة مع البوسفور، فجذبتهم روعته ومزاياه الجغرافية، واختاروه مكاناً لإقامة مدينتهم، وتحققوا أن أهل خلقدونية كانوا عمياناً حقاً حين أهملوا الموقع الأفضل في الجانب الآخر، حيث فاتهم أن يدركوا ميزة تأسيس مدينة على الشاطىء الأوربى بدلاً من الآسيوى، ولذلك أدرك الميجاريون معنى عبارة الإله، وقرروا أن يبنوا مدينتهم على النتوء البارز فى المكان المعروف حالياً باستانبول، وأطلقوا عليه اسم بيزنطة Byzantium تكريماً لقائدهم بيزاس Bysas[(١)]. ومن الواضح أن موضع مدينة القسطنطينية يتميز بأهمية جغرافية واستراتيجية، فمن الناحية الجغرافية تقع تلك المدينة عند التقاء القارتين آسيا وأوربا، إذ يحدها البوسفور من جهة الشرق، والقرن الذهبى من جهة الشمال، وبحر مرمرة فى الجنوب، ولا يمكن الوصول إليها براً إلا من جهة واحدة. أما من الناحية الاستراتيجية، فأرضها تشكل مثلثاً تحمى المياه ضلعيه، أما الضلع الثالث فقد حمته الأسوار المنيعة التى أقامها الحكام. يضاف إلى ذلك أن القسطنطينية صارت أهم مراكز التجارة العالمية، فقد سيطرت سيطرة تامة على كل تجارة البحر الأسود، فمنها تتجه طرق التجارة شمالاً إلى روسيا، وشرقاً إلى آسيا حيث تؤدى الطرق البرية إلى الهند والصين ووسط آسيا، وغرباً إلى وسط أوربا، وجنوباً إلى الشام ومصر وأفريقية. ومما يجدر ذكره أن القسطنطينية بفضل مزاياها التى تحدثنا عنها، ظلت قادرة على الوقوف فى وجه أعدائها، والحفاظ على الامبراطورية الشرقية لمدة تربو على الألف عام[(٢)].

---

(١) رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ٣ – ٤ ؛ Rice, op. cit., pp. 13 - 14;

(٢) Jones, op. cit., p. 50; Hay, op. cit., p. 14.

وبعد أن اتجه قنسطنطين بنظره نحو بيزنطة، قرر عام ٣٢٤م وضع أساس عاصمتها الجديدة عندها. وتروي الأسطورة المسيحية أن الامبراطور وقد حمل حربة في يده، تجول حول المدينة سائراً على قدميه ليضع حدودها، وقد صحبه في تلك الجولة أفراد حاشيته الذين تعجبوا من اتساع المساحة التي حددها للعاصمة، فاجترأوا وسألوه : «عند أي مدى سوف يقف مولانا في تحديد مساحة العاصمة؟»، فأجابهم قائلاً : «عندما سيقف من هو سائر أمامي»، ويقصد بذلك الإشارة إلى وجود دليل خفي أو قوة إلاهية تلهمه وتقوده في هذا العمل[1]. وقد جمع قنسطنطين ما يلزم لعملية البناء من العمال والمواد الأولية من كل مكان، وأحضر تحفاً وآثاراً وثنية رائعة جميعها من روما وآثينا والاسكندرية وإفسوس، زين بها شوارعها وميادينها. ومنحت المدينة الجديدة من الامتيازات المالية، كي تجتذب عدداً كبيراً من السكان، وجرى تشجيع الأثرياء على بناء منازلهم والاستقرار فيها بمنحهم الأراضي؛ واشتهرت المدينة بكثرة ما شيده قنسطنطين بها من كنائس، ولم يقدم داخل أسوارها أي قربان وثني لأنها خضعت للدين الجديد وأصبحت وقفاً عليه، وبذلك أخذت الطابع المسيحي منذ البداية، ويبدو أن قنسطنطين أعطاها لقب «روما الجديدة»، وأخيراً احتفل بافتتاحها رسمياً في ١١ مايو سنة ٣٣٠م، بعد أن استغرقت عملية البناء ست سنوات[2].

ويعتبر تأسيس القسطنطينية بداية تاريخية لعهد أخذ العالم الإغريقي والعالم الروماني، يبتعد في خلاله كل منهما عن الآخر شيئاً فشيئاً، حتى غدت وحدة الامبراطورية الرومانية مسألة بعيدة المنال. ذلك أنه على حين ظل الحكم الروماني قائماً في القسم الشرقي من الامبراطورية كما تركه دقلديانوس وقنسطنطين، وعلى حين ظلت مظاهر ذلك الحكم قائمة، لم تتعرض لأية أخطار حتى استيلاء الفرنجة (الصليبيين) على القسطنطينية سنة ١٢٠٤م، آلت مصائر القسم الغربي من الامبراطورية إلى نهاية مختلفة تماماً، إذ انهار تحت وطأة هجمات الجرمان

(١) أومان (شارل)، الامبراطورية البيزنطية، ترجمة د. مصطفى طه بدر، (القاهرة ١٩٥٣)، ص ١٧؛ عمر كمال توفيق، تاريخ الامبراطورية البيزنطية، (القاهرة ١٩٦٧)، ص ٢٧ – ٢٨.

(٢) Jones, op. cit., p. 49.

بعد حوالي مائة وخمسين سنة كلها ضعف مطرد[١]. ومن المظاهر التى ترتبت على انتقال العاصمة إلى القسطنطينية، أن المد الاقتصادى أخذ ينحسر عن الغرب الأوربى، فصارت الثروات فى أيدى تجار الأسكندرية وأنطاكية وغيرها، ويتضح مدى الخسارة الاقتصادية التى لحقت بمدينة روما فى حقيقة أن قمح مصر بدلاً من أن يرسل إليها، صار يرسل إلى القسطنطينية لإطعام شعبها[٢]. وآخر المظاهر التى ترتبت على انتقال العاصمة إلى القسطنطينية، هو تسلل المؤثرات الشرقية فى نواحى الحكم والإدارة والآداب فى القسم الشرقى من الامبراطورية، ومن ثم سيطر الطابع الهللينستى على ذلك القسم، على حين ظل الغرب الأوربى متمسكاً باللاتينية وتراثها. ولما كانت المؤثرات اليونانية أقوى من اللاتينية، فقد تابع الشرق تقدمه وازدهاره، فى الوقت الذى أخذ فيه الغرب يسير فى مضمار التخلف[٣]. وبذلك بدأت سمات العصور الوسطى تطل على المجتمع الأوربى وتفرض نفسها عليه.

---

(١) فشر، أوربا العصور الوسطى، جـ ١ ص ١١.

(٢) Baynes (Norman H.), Decay of the Western Power and its causes; in Universal Hist. of the World, ed. by J. A. Hammerton., Vol. 4., pp. 2230-2231.

(٣) ابراهيم العدوى، المجتمع الأوربى، ص ٤٢.

الفصل الثاني

المسيحية والامبراطورية الرومانية

رغم أن الامبراطورية الرومانية فى القرنين الثالث والرابع قد أصابها التفكك والانحلال فى جميع الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، حتى بات من الواضح أنها تسير فى طريق الأفول، إلا أنها من ناحية العقيدة والحياة الروحية قد سلكت طريقاً مغايراً لذلك تماماً، فقد ازدهرت الحياة الدينية بأرجائها فى نشاط وحيوية بالغين، بشكل يطابق الحقيقة المعروفة فى التاريخ، من أن الناس فى أوقات الأزمات السياسية والاقتصادية، يتجهون دوماً نحو القوى الروحية ويتعلقون بها، أملاً فى الخلاص والنجاة. ومن المعروف أن هذين القرنين شهدا انتشاراً سريعاً للديانة المسيحية، إلى جانب ما كان موجوداً من العبادات الوثنية(١).

والجدير بالذكر أن الديانات الوثنية المحلية التى كانت منتشرة فى أرجاء الامبراطورية لم تشبع رغبة الأهالى، ولم تهدئ من خلقهم الروحى، لأنهم رأوا فيها مجرد رموز شكلية لا تثير الحماس الدينى، ومن هنا أخذوا يتطلعون إلى ديانة تخلصهم من أدران الخطيئة، وتعوضهم شقاء الحياة ومصاعبها، وكان أن وجدوا بغيتهم فى الديانات الوافدة من الشرق. ومن أهم تلك الديانات التى وجدت تجاوباً عجيباً منهم، وأعظمها فى نظرهم، ديانة الأم الكبرى الفريجية كيبيلى Cybelle من آسيا الصغرى، وديانة ميثراس Mithras من فارس، وديانة إيزيس من مصر. وقد عرفت تلك الديانات بالديانات الغامضة، لأن طقوسها كانت سرية، بمعنى أنه كان لابد من توفر شروط خاصة فيمن يريد اعتناقها، فإذا اجتاز مرحلة القبول اطلع على أسرار طقوسها، ولا يجوز له أن يبوح بها لغيره. ورغم أن كل ديانة من تلك الديانات قد اختلفت فى طقوسها وشعائرها عن

---

(١) Painter, A Hist. of the Middle Ages., p. 11.; Jones, The Decline of the Ancient World., p. 24.

الأخرى اختلافاً واضحاً، إلا أنها جميعاً اشتركت في ملامح وسمات عامة، أرضت حاجة المواطنين الروحية(١). وهنا نلاحظ أن الأمبراطورية الرومانية نظرت إلى جميع الديانات الأجنبية نظرة التسامح، طالما أنها لم تكن تحدث انقلاباً في مركز العبادات الرومانية السائدة من ناحية، وإذا كانت مأمونة العواقب من الوجهة السياسية من ناحية أخرى، وإذا كان مرغوباً فيها من الوجهة الخلقية من ناحية ثالثة. ومما يذكر في هذا المقام أنه منذ عصر أوغسطس (٢٧ ق. م. - ١٤م) ظهر شكل جديد من أشكال الديانات، وهو عبادة الأمبراطور، وقد لقيت تلك العبادة في شرق البحر المتوسط استجابة تلقائية، لأنه لم يكن هناك حد فاصل بين الإله والإنسان، أما في روما، فإن الأمر كان مختلفاً، إذ أن فكرة الألوهية بأي معنى من المعاني لرجل على قيد الحياة كانت فكرة بعيدة عن الاستحسان، لا تتفق مع التقاليد السائدة؛ وإذا تمعنا قليلاً في عبارة الأمبراطور لوجدنا أنها كانت تعبر عن الولاء المواطن الأول، ولحكومة روما، وللأفكار التي تتعلق بها(٢).

وعلى أي حال، فقد دخلت ديانة كيبيلي روما سنة ٢٠٤ ق.م، وظلت منذئذ تحت رقابة لجنة تسمى لجنة الخمسة عشر المكلفة بالاشراف على العبادة العامة، ولم يسمح لها بالتعبير عن نفسها تعبيراً كاملاً إلا في القرن الثالث الميلادي، شأنها في ذلك شأن الديانات الأخرى الوافدة من الشرق. وقد صاحبت تلك الديانة ترتيلات ورقصات غامضة، وتميزت طقوسها بالقصف والعربدة، وفي القرن الثاني الميلادي أحرزت تلك الديانة شعبية هائلة، وانتشرت بسرعة بالغة في أفريقية، والغال، وليديا، وفريجيا، وإيطاليا، وغيرها من الأقاليم(٣). وكان يجري الاحتفال بتلك الديانة في الربيع، فإذا أقبل عيدها الربيعي، صام أنصارها وصلوا، وحـزنوا لموت أتيس Attis حبيب كيبيلي وقرينها، وجرح كهنتها سواعدهم، وشربوا دماءهم، وحمل الإله الشاب إلى قبره باحتفال مهيب. فإذا كان

---

(١) Painter, op. cit., pp. 11 - 12.

(٢) Barrow, The Romans., pp. 143 - 146.

(٣) Lindsay (T.M.), "The Triumph of Christianity", in Camb. Med. His., Vol. I., p. 90.

اليوم الثانى ضجت الشوارع بأصوات الفرح الصادرة من الأهالى المحتفلين ببعث أتيس وعودة الحياة إلى الأرض من جديد، وفى آخر يوم من أيام الاحتفالات تحمل صورة الأم العظمى كيبيلى فى موكب للنصر، ويخترق حاملوها صفوف الجماهير تحييها وتناديها فى روما باسم «أمنا» Nostra Domina(١).

أما ديانة ميثراس الوافدة من فارس، فقد فاقت مثيلاتها من الديانات الغامضة الأخرى. فميثراس الإله الذكر الخالد الذى هزم الموت إلى الأبد، أوجده أهورامزدا Ahuramazda خالق الحياة. وقد وقف ميثراس إلى جانب أهورامزدا إله الخير فى صراعه الأبدى مع أهريمن Ahriman إله الشر. وعرف ميثراس أيضاً كإله للنور والحق والطهر والشرف، وكان يقال أحياناً أنه هو إله الشمس الذى يقود الحرب ضد أهريمن إله الباطل والظلمة. والميثرائية بهذا لا تخرج عن المرحلة المتأخرة من عبادة زرادشت، التى تتلخص تعاليمها فى أن العالم نشأ عن أصلين هما : النور والظلمة، وعن النور نشأ كل خير، وعن الظلمة نشأ كل شر. والجدير بالذكر أن روما لم ترث ديانة ميثراس من فارس مباشرة، بل عن طريق آسيا الصغرى، حيث كان أهم مراكز عبادتها فى طرابيزون. وقد انتشرت عبادة ميثراس انتشاراً واسعاً فى الغرب الأوربى خلال القرنين الأول والثانى للميلاد، واحتلت مكانة مرموقة فى روما العاصمة، كما أنها انتشرت أيضاً فى الموانىء والمراكز التجارية مثل الاسكندرية وبيرايوس وقرطاجنة ولندن(٢). وقد تركت الميثرائية أثراً واضحاً فى نفوس الجند الذين كانوا يفضلونها على غيرها، ذلك أنها كانت حامية لهم، تبعث فى نفوسهم الأمل والقوة والشجاعة والصدق والأخوة، ولم يأت القرن الثالث إلا وكانت غالبية الجيش الرومانى من أتباعها، وظهر ميثراس «الشمس التى لا تغلب» على العملات فى صورة فارس. غير أن الميثرائية واجهت منافساً خطيراً لا سبيل إلى مقاومته، وهو الديانة المسيحية،

---

(١) ديورانت، قصة الحضارة، مج ٣، جـ ٣، ص ١٤٧.

(٢) Grant (Michael), The World of Rome., (London, 1960), pp. 168 - 171.

التي رحبت بالنساء كأتباع لها يجدون راحتهم النفسية من خلالها، على خلاف الميثرائية التي قصرت عضوية أتباعها على الذكور دون الإناث[١].

أما الإلهة المصرية إيزيس، فقد لقيت من التكريم أكثر مما لقيته ديانة كيبيلي، وقد عرفت شعوب البحر الأبيض المتوسط كلها كيف مات أخوها وزوجها أوزوريس (سيرابيس) إله الخير بعد أن دخل في صراع مع أخيه «ست» إله الشر، وإخلاص إيزيس لذكراه، وتجوالها في العالم القديم تجمع بقاياه من شرق الأرض وغربيها. وتشير الأسطورة إلى ما أنطوت عليه قصة الإلهة إيزيس، الأم الحزينة والزوجه الأمينة، من الحنو والرأفة، وما أختصت به طقوسها من الرقة، وما اشتملت عليه صلواتها المسائية من أعمال البر والخير المشفوعة بالرحمة والشفقة؛ هذا وقد رحبت ديانة إيزيس بجميع الناس، فشملت دائرتها الرجال والنساء، بعكس الميثرائية التي لم ترحب بالنساء[٢]. وقد انتقلت ديانة إيزيس إلى روما في غضون القرن الثاني قبل الميلاد، على يد الإغريق الذين كانوا يفدون على روما من مصر مباشرة أو من الجهات المجاورة لإيطاليا كبلاد اليونان وجزر البحر الإيجي وصقلية؛ ومما يسترعي الانتباه أن غالبية أتباع الإلهة المصرية كانوا عادة من العبيد والمعتقين والأجانب وفقراء الرومان، وإن ظهر بينهم في بعض الأحيان سيدات من الطبقة الارستقراطية؛ وبارتقاء أسرة فلافيوس عرش الأمبراطورية يبدأ العصر الذهبي لعبادة إيزيس في روما، ولدينا نقش من عصر فسباسيان Vespasian (٦٩ – ٧٩م) أول أباطرة تلك الأسرة، كتبه أحد العبيد تعظيماً لإيزيس التي لا تقهر Isis Invicta، وتحمل نقود فسباسيان التي سكت في روما وغيرها من المدن صورة إيزيس في معبدها بساحة مارس[٣]. وقد شجع الأمبراطور دوميتيان (٨١ – ٩٦م) آخر أباطرة تلك الأسرة ديانة إيزيس، ومن

(١) رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ١١.

(٢) ديورانت، قصة الحضارة، مج ٣، جـ ٣ ص ١٤٧ – ١٤٨.

(٣) عبد اللطيف أحمد علي : مصر والأمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية، (القاهرة ١٩٦٥)، ص ١٤٨ – ١٤٩.

أجلها بنى معبداً هائلاً لإيزيس وسرابيس[١]. وقبل أن ينتهى القرن الثانى الميلادى احتلت ديانة إيزيس مركز الصدارة فى الأمبراطورية الرومانية، ولقيت رواجاً عالمياً، وقدر لها أن تتفوق على المسيحية قبل اعتراف قنسطنطين بها، وخير دليل على ذلك أن نفوذها الدينى وصل إلى أبعد نقطة فى بريطانيا[٢].

وعلى أية حال، تلك كانت أهم الديانات الوافدة الوثنية السائدة فى الأمبراطورية الرومانية فى القرون الأولى قبل الميلاد وبعده. ولقد ثبتت تلك الديانات دعائمها وتأصلت جذورها فى نفوس الغالبية العظمى من الشعب الرومانى ممثلة فى الطبقات الوسطى والدنيا التى وضعت آمالها فيها. على أنه يجب أن نشير إلى أن تلك الديانات الوافدة، رغم انتشارها الواسع، إلا أنها لم تستطع أن تفرض سيادتها كاملة على بقية العقائد المختلفة. ففى نفس الوقت اتجه بعض المثقفين من أفراد الطبقة الارستقراطية إلى الآراء والمذاهب الفلسفية، منهم من كان على مذهب المتشككة أو الشكوكيين[٣] Sceptics، والبعض الآخر كان على مذهب الغنوسية[٤] Gnosticism، كذلك كان البعض على مذهب

---

(١) Bury, A Hist. of the Roman Empire., p. 394.

(٢) Lindsay, op. cit., p. 90.

(٣) بدأت مدرسة التشكك بالفيلسوف بيرون Pyrron (٣٦٥ – ٢٧٥ ق.م)، ولد فى إيليس، وصحب الاسكندر إلى الهند فى شبابه، فرأى «فقراء» الهنود، وأعجب بما كانوا يبدون من عدم مبالاة بالحياة وثبات فى الآلام، بيد أنه لم يكتب شيئاً ولا يعرف مذهبه إلا عن طريق تلميذه تيمون الهجاء، وكان الأخير يرى أن أصل البلاء هو تضارب المعرفة، وما من شئ يمكن معرفته على وجه اليقين، لذلك وجب على المرء أن يوقف حكمه، وألا يصدر أحكاماً جازمة أبداً، ويذكر أيضاً أنه لاشيء يهم، ولا حتى ما إذا كان يعيش أو يموت، وبهذا يبلغ الهدف : وهو الاتزان والطمأنينة ورباطة الجأش. أنظر : (تارن) الحضارة الهلينستية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكى على، (القاهرة ١٩٦٦)، ص ٣٥٦ – ٣٥٧).

(٤) الغنوسية وهى صوفية تزعم أنها المثل الأعلى للمعرفة، وقد نشأت قبل المسيحية، وترجع بأصلها إلى وحى أنزله الله منذ البدء وتناقله المريدون سراً، وتعد مريديها بكشف الأسرار الإلهية وتحقيق النجاة. وكانت الغنوسية تعدو على الأديان والمذاهب بالتأويل والتحوير، مدعية تحويلها إلى معنى أعمق. وترى الغنوسية أن العرفان الحق ليس العلم بوساطة المعانى المجردة والاستدلال كالفلسفة، وانما هو العرفان الحدسى التجريبى الحاصل عن اتحاد العارف بالمعروف. وأما غايتها فهى الوصول إلى معرفة الله على هذا النحو، بكل ما فى النفس من قوة حدس وعاطفة. أنظر : (يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ٢٤٤).

الفلسفة الرواقية Stoicism، وهي أكثر الفلسفات رواجاً وواقعية، ولها الغلبة على سائر الفلسفات، لأنها تتفق مع الأخلاق والمثل الرومانية : الإقدام، والرجولة، والثبات عن طريق القوة الروحية، وسيطرة المرء على نفسه، وإخضاع الشهوات للعقل، ومقاومة الظلم، وتحدى الطغاة، والتجلد فى وجه الخطوب، ومقابلة الموت بصدر رحب، وتجنب ما وراء الطبيعة. والحق أن الرومان كانوا رواقيين قبل أن يسمعوا عن المذهب الرواقى بزمن طويل. ويرجع المذهب الرواقى إلى مؤسسه زينون (٣٣٦ – ٢٦٤ ق.م) الذى ولد فى كيتيوم Citium من أعمال قبرص، عاش فى أثينا يعلم الناس، ودعى وأصحابه بالرواقيين، لأنه كان يتحدث إلى سامعيه فى بهو عام ذى أعمدة هو السقيفة أو «الرواق» Stoa، وكان مستمعوه كثيرين معجبين بسمو أخلاقه. وقد أفاد زينون من المذاهب الفلسفية الإغريقية المنتشرة آنذاك، بيد أن الفضل يرجع إليه فى تأسيس مدرسة للأخلاق تختلف اختلافاً بيناً عن غيرها من المدارس. فأهم ما نادت به الرواقية مبدأ الأخوة بين البشر أجمعين، فالناس يجب أن يكونوا جميعاً متساويين، لا فرق بين حر وعبد؛ وقد أثرت الرواقية فى شعور الرومان على مر العصور، أفاد منها المفكرون المسيحيون منذ القرن الثانى بما جاءت به من تفصيل القول فى الفضائل والرذائل، وفى صفات الله، وفى العناية الإلهية. كما نجد لها صدى فى كتابات الفيلسوف سينيكا Seneca والامبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ – ١٨٠)(١). والجدير بالذكر أن الرواقية الرومانية كانت تختلف عن الرواقية الإغريقية، ذلك أن الرومانى لم يكن من مبادئه اعتناق أية فلسفة كما وصلت إليه، سواء كانت فيما وراء الطبيعة أو أخلاقية أو سياسية، ولكنه كان يطوعها طبقاً لميوله ومعتقداته. وينبغى الإشارة إلى أن الرومانى كان عازفاً عن متابعة المسائل الفلسفية التى تتناول ما وراء الطبيعة، مؤكداً اهتمامه بالدرجة الأولى بالعمل ودوافعه وقدراته، وإضفاء طابعه على ما يقوم باقتباسه(٢).

---

(١) Lyon (Bryce) & Herbert (H. Rowen) and Hamerow (Theodore S.), A Hist. of Western World., (U.S.A., 1974), Vol. I., p. 61;

تارن، الحضارة الهلليستية، ص ٢٥٠ – ٢٥٦.

(٢) Barrow, The Romans., pp. 151 - 158.

ثم ظهرت الديانة المسيحية في أفق الحياة الروحية بتعاليم أعطت الأمل والنور للمواطنين الرومان، وسط دياجير البؤس والشقاء التي غلفت حياتهم. والحق أن ما تميزت به تلك الديانة من قوة الإيمان جعلها تتفوق على غيرها من العبادات الشرقية الغامضة، ذات الطقوس السرية، فكما رأينا من قبل أن ديانة ميثراس حرمت على النساء دخول دائرتها ومزاولة طقوسها، وقدست ديانتا كيبيلى وإيزيس النساء والأمومة على حساب الآخرين، أما المسيحية فقد أتت من أجل جميع البشر، ذكوراً وإناثاً. ولا ريب أن قصة المسيح الرائعة، وما لقيته من آلام وعذاب لا يمكن مقارنتها بما جاءت به المذاهب الفلسفية الإغريقية، التي لم ترض أفكارها إلا صفوة المثقفين من الطبقة النبيلة الارستقراطية، في الوقت الذي لم تشبع فيه رغبات العامة الروحية[1]. وأخيراً ينبغي ألا نغفل أن المسيحية التي أعلنت زيف كل الديانات الأخرى، استطاعت أن تقاوم من منطلق هذا المبدأ، عبادة الأمبراطور التي شجعها الأباطرة الرومان وساندوها بنفوذهم لتنفيذ أغراضهم السياسية. على أن المسيحية إذا كان قد كتب لها النصر على بقية الأديان، فإن ذلك كلفها الكثير، إذ قدر لها بعد صراع مرير مع أعدائها – اليهودية والوثنية – أن تقضي حوالى ثلاثة قرون مليئة بالعذاب والآلام والتضحيات، حتى استطاعت في النهاية أن تفرد جناحيها على الأمبراطورية الرومانية.

واليهود الذين رفعوا راية العداء في وجه المسيحية كانوا دون شعوب الأمبراطورية الرومانية، هم الشعب الوحيد الذي ظل محتفظاً أشد الاحتفاظ بتقاليده وعقيدته الخاصة[2]. وبداية كانت السلطات الرومانية متسامحة مع اليهود، آلت على نفسها حماية ديانتهم، وأعطتها ضمانات – ترجع إلى أيام يوليوس قيصر – بموجبها زاولوا شعائرهم الدينية في حرية وأمن؛ كما أعطتهم الحق في اتباع تقاليدهم الدينية، إذ من المعروف أن اليهودي لا يعمل أيام السبت

(١) Stephnson, Medieval Hist., pp. 42 - 43.

(٢) دوسن، تكوين أوربا، ص ٢٠.

من كل أسبوع، حيث يتخذه يوم عبادة وراحة، كما لا يمكن مقاضاته في ذلك اليوم أيضاً، ويجرى اعفاؤه من الخدمة العسكرية[(١)]. وسمح لليهود بإصدار عملة نقدية خاصة بهم، دون أن يطبع عليها صورة الامبراطور. ورغم كل تلك الامتيازات التي منحتها روما لليهود، إلا أنهم قابلوها بروح انفصالية، وتكتل قومي، وتعصب ديني، وانعزال عن المجتمع[(٢)]، الأمر الذي بعث في نفوس العناصر الأخرى الكراهية الشديدة لهم.

وقبل أن ينتهي القرن الأول الميلادى بلغ عدد اليهود في العاصمة حوالي عشرين ألف، كانوا يشتغلون بالصناعات اليدوية وبالتجارة في الحوانيت. وكان لهم عدد كبير من المعابد، لكل واحد منها مدرسته وكتبته، وعرف عنهم احتقارهم للديانات الوثنية، وامتناعهم عن الذهاب إلى المسارح الرومانية أو مشاهدة الألعاب، فضلاً عن فقرهم وما نتج عنه من قذارة، ولكن هذه الصفات لم تمنع الكثير من الرومان المثقفين من المناداة بإعجابهم بالديانة اليهودية التي كانت تدعو إلى وحدانية الله[(٣)]، معارضة في ذلك الديانة الوثنية وعبادة الامبراطور، ولذلك اتجه البعض منهم إلى الدخول فيها.

وقد بدأ الخلاف واضحاً بين اليهود والسلطات الرومانية عندما ارتقى كاليجولا عرش الأمبراطورية سنة ٣٧م، فقد أمر جميع أتباع الديانات القائمة آنذاك أن يقدموا قرباناً له، كما أمر رجاله في أورشليم أن يضعوا تمثاله في الهيكل، ولكن اليهود أظهروا نفورهم الشديد من وضع تمثال منصوب لإمبراطور وثني في هيكلهم، مما أدى إلى بروز مشكلة حلها كاليجولا بموته. وفي عام ٧٠م ثار اليهود ضد السلطات الرومانية ثورة خطيرة في جودايا Judaea، ولكن القائد الروماني تيتوس رد على تلك الثورة بالعنف، فقتل معظم من كان في أورشليم (القدس) من اليهود، واستباح أموالهم، ودمر هيكلهم، حتى كاد تيتوس أن يقضي

---

(١) Jones, op. cit., p. 25.

(٢) Barrow, op. cit., pp. 175 - 176.

(٣) ديورانت، قصة الحضارة، مج ٣، جـ ٢، ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

على كل أثر لهم. ومن المؤكد أن الضربة التي أصابتهم كانت من القوة، بحيث شتتت شملهم وشردتهم في جميع أنحاء الأمبراطورية[١]، ولكنها لم تمنعهم من إشعال نار الثورة مرة أخرى في عامى ١١٥ – ١١٦م. وقد واجه الأمبراطور هادريان (١١٧ – ١٣٨م) ثورة اليهود في قوة وحزم، فقضى عليها، ومنع اليهود من القيام بطقوسهم الدينية علناً، وفرض عليهم ضريبة شخصية جديدة، وحرم عليهم أن يدخلوا بيت المقدس إلا في يوم واحد محدد في العام، ليبكوا فيه أمام خرائب الهيكل[٢].

وهكذا عاني اليهود من النفي والأهوال والتشريد ما عانوا، وحرم عليهم دخول المدينة المقدسة، وتلفتوا حولهم خائفين، فاقدين الثقة في روما، يراودهم الأمل في النجاة من العذاب الذي قاسوه على يد السلطات الرومانية. وكان يبدو في نظر العديد من اليهود أن حكم روما جزء من انتصار الشر القصير الأجل، الذي سيقضي عليه إما بتدخل الله نفسه، أو أن يرسل الله إلى الأرض مخلصاً أو مسيحاً Messiah ليخلصهم من براثن الطغاة، ويرفع عنهم نير الذل والعذاب، وتقول أسفار الرؤيا أن هذا المنقذ – أو المخلص – لن يطول غيابه، وأنه حين ينتصر على الطغاة، سيرتفع إلى الجنة كل العادلين والفقراء والمظلومين، حتى من كان منهم في جوف القبور، ليتمتعوا فيها بالنعيم الأبدي[٣]. ولكن أمل اليهود في ظهور مسيح ينقذهم ويعيدهم إلى بيت المقدس، سرعان ما تبخر عندما أتى المسيح بديانة ليست كالدين اليهودي مقصوراً على شعب بعينه، ولكنها ديانة أضاءت حياة الناس جميعاً بما بعثت فيهم من أمل في ملكوت الله المقبلة، وفي السعادة الدائمة بعد الموت، ووعدت أشد الناس ذنوباً بالعفو عن ذنوبهم. وكانت

---

(١) المرجع السابق، ص ١٨٤ – ١٩٠.
(٢) المرجع السابق، ص ١٩٤ – ١٩٥.
(٣) المرجع السابق، ص ١٧٩ – ١٩٢؛
Salmon (E.T.), A Hist. of the Roman World, 30 B.C. to A.D. 138., (Great Britain, 1974), pp. 324 - 325.

المبادىء السامية التى أتى بها المسيح كفيلة بأن تجعل اليهود يقاومونها على اختلاف شيعهم، وينظرون إلى رسالته بعين الحقد والكراهية وأخذوا ينالون من دعوته وأنصاره.

ومن المعروف أن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ولد فى بيت لحم القائمة على بعد خمسة أميال جنوبى القدس، خلال عهد الامبراطور أوغسطس (٢٧ق.م - ١٤م)، وقد سمى المسيح بالاسم العادى المألوف «يسوع» Yeshua ومعناه معين يهوه. ويكتنف الغموض التاريخ المبكر للمسيحية، ويصعب إدراك كيف اشتد عودها ونجحت فى الانتشار فى مختلف أنحاء الامبراطورية. والحقيقة التى لاجدال فيها أن المسيحية ظلت تتمتع بالحرية فى أيامها الأولى ما يقرب من ثلاثين سنة، لأن السلطات الرومانية والناس لم يفرقوا آنذاك بين المسيحية واليهودية. ويرجع الفضل فى انتشار المسيحية فى وقت مبكر إلى جهود القديس بولس الذى نظم المجتمعات المسيحية، وحدد تعاليمها؛ وقد ساعدت أوضاع الامبراطورية الرومانية على نجاحه فى مسعاه، إذ كان يسافر عبر طرق التجارة وشبكة المواصلات الرئيسية التى أبدعتها العبقرية الرومانية، بعد أن فرض السلام الرومانى عليها الأمن والطمأنينة[1]. أضف إلى هذا أن سيادة اللغة اليونانية فى الجزء الشرقى من الامبراطورية، واللغة اللاتينية فى الجزء الغربى منها، جعلا من السهل انتقال الأفكار والمعتقدات بين مختلف أنحاء الامبراطورية، وبالتالى انتشار المسيحية ووصولها إلى أماكن بعيدة فى سرعة فائقة[2]. وقد أثار اليهود القلاقل ضد القديس بولس إبان قيامه بالدعوة للديانة المسيحية، فى الوقت الذى حرص فيه الموظفون الرومان على حمايته، باعتباره منشقاً على الديانة اليهودية، لأن السلطات الرومانية لم تميز آنذاك بين المسيحية واليهودية[3]. ويلاحظ أن الغالبية العظمى من أنصار المسيحية خلال انتشارها فى القرنين

---

(١) Lyon & Herbert and Hamerow, op. cit., Vol. I., pp. 86 - 87; Barrow, The Romans., P. 176.

(٢) سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، جـ١ ص ٢٥.

(٣) Barrow, op. cit., pp. 176 - 177.

الأول والثاني، كانت تضم أحط الطبقات في المجتمع الروماني، كالفقراء والعبيد والعمال، وإن كانت المسيحية لم تعدم قلة من الانصار الأثرياء والمثقفين. وقبل أن يأتي القرن الثاني إلى نهايته، اتسعت دائرة أنصار المسيحية ممن ينتمون إلى الطبقات العليا مثل أعضاء من مجلس السناتو، وفرسان، وأطباء، وضباط في الجيش، ومحامين بارزين، وموظفين كبار، وقضاة وغيرهم. وسلك الأبناء والزوجات نفس السلوك، فاعتنقوا المسيحية، بل كثيراً ما كانت الزوجات تسبقن أزواجهن للانضمام إلى صفوف المسيحية. وهكذا أخذت تقاليد المجتمع الروماني ونظمه المألوفة في الانهيار، وحلت مشاعر التسامح والتواضع محل المهانة والاحتقار، وهي سمات أخذ يتردد صداها في ربوع الأمبراطورية بعد انتشار المسيحية(١).

غير أن سياسة التسامح التي أبدتها السلطات الرومانية حيال المسيحية في أيامها الأولى لم تدم طويلاً، فقد انقلبت تلك السياسة إلى حملات اضطهاد واسعة قامت بها ضد المسيحيين. ويخطيء من يظن أن روما قامت باضطهاد المسيحيين بسبب عقيدتهم، فتلك مسألة لم تكن تعنيها في قليل أو كثير، طالما لا تتعارض مع مقتضيات السياسة العامة للدولة، ولكنها احتفظت لنفسها بحق التدخل أو اتخاذ إجراءات عنيفة ضد أية ديانة تشكل خطراً على النظام العام أو الاخلاقيات العامة. ومن هذا المنطلق غيرت الأمبراطورية من سياستها عندما رفض أتباع المسيحية – مثلما رفض اليهود – تقديس الاباطرة وعبادتهم، وإحراق البخور أمام تماثيل الآلهة دليلاً على ولائهم للأمبراطورية. أضف إلى ذلك أن الدولة أحست بالانزعاج عندما اكتشفت أن أتباع الديانة الجديدة أعتبروا أن الدنيا زائلة وشيكة الفناء، على خلاف الوثنيين الذين كانوا يقدرون دنياهم وحضارتهم، ولذلك اعتبرت السلطات الرومانية المسيحيين مواطنين يملؤهم الشر، وعنصراً خطراً في المجتمع لابد من خضوعه للدولة، وبعبارة أخرى رأت في المسيحية ثورة اجتماعية تعمل على تقويض أركان المجتمع الروماني ونظمه وتقاليده(٢).

---

(١) Lindsay, op. cit., Vol. I., p. 95.

(٢) Painter, op. cit., pp. 11 - 13; Barrow, op. cit., pp. 178 - 180; Salmon, op. cit., pp. 320 - 323.

وقد عاشت القوتان – المجتمعات المسيحية والحكومة الرومانية – فى وئام فى أيام الأمبراطورية الأولى، ثم بدأ الصراع على عهد الأمبراطور نيرون (٥٤ – ٦٨م)، عندما اضطهد العديد من المسيحيين فى روما، وهو أول اضطهاد فى سلسلة الاضطهادات التى تميز بها تاريخ روما، وإن كان لا يمكن إقامة الدليل على أنه كان عاماً، وفى ذلك الاضطهاد الذى نال من المسيحيين فقد القديسان بطرس وبولس حياتهما فى عام واحد لعله عام ٦٤م، وكانت التهمة الموجهة للمسيحيين أنهم كونوا تنظيماً غير شرعى يتعارض مع سياسة الدولة، لابد من العمل على استئصاله والقضاء عليه. لقد وقعت الواقعة بالمسيحيين، وزلزلت الأرض تحت أقدامهم، وتعرضوا لأقسى أنواع العذاب. من ذلك أنهم كانوا يلطخون بالقار، وتشعل النيران فى البعض منهم، ويعدمون حرقاً بشدهم على خازوق ليكونوا بمثابة مشاعل فى الألعاب الليلية بالحدائق الامبراطورية وسيرك الفاتيكان، والبعض الآخر يلقى به إلى الوحوش الضارية فى مدرج أو ساحة الملاعب العامة[(١)]. وعلى عهد الأمبراطور دوميتيان (٨١ –٩٦م) وقع الأذى والاضطهاد بالمسيحيين مرة أخرى حتى بلغ الأمر أن يصف الكتاب المسيحيون ذلك الأمبراطور بأنه «ثانى الطغاة»[(٢)]. ولدينا أقدم وثيقة تاريخية تناولت اضطهاد المسيحيين، وتصور ما لاقوه من أجل العقيدة، وهى خطاب كتبه بلينى الأصغر Pliny the Younger حاكم بيثينيا Bithynia فى آسيا الصغرى إلى تراجان (٩٨ – ١١٧م) جاء فيه أنه أطلق سراح كل الذين قدموا القرابين وأحرقوا البخور أمام تمثال الأمبراطور، أما أولئك الذين رفضوا وأصروا على مسيحيتهم، فقد نفذ فيهم حكم الاعدام[(٣)].

ومما يثير الدهشة أن البعض من الوثنيين كانوا على استعداد للتستر على أصدقائهم المسيحيين وإخفاء حقيقة عقيدتهم عن أعين السلطات الرومانية، كما أن حكام الولايات كانوا يحجمون – فى كثير من الأحيان – عن تطبيق العقوبات

---

(١) Salmon, A Hist. of the Roman World., pp. 181 - 182.

(٢) Ibid., p. 226.

(٣) Stephenson, op. cit., p. 44., Burry, op. cit., p. 446.

عليهم. والجدير بالذكر أن حركة الاضطهاد لم تكن عامة أو واسعة النطاق فى الامبراطورية، إلا عند حدوث كوارث طبيعية أو قلاقل وثورات شعبية، أو إذا أراد حاكم ضعيف لا يتمتع بحب الجماهير أن يصرف الأذهان عنه. وكما يقول ترتوليان[(١)] أجرأ المدافعين عن المسيحية آنذاك : «فإذا فاض نهر التيبر على الأسوار، أو نقصت مياه نهر النيل فلم تبلغ الحقول، أو أمسكت السماء عن المطر، وإذا زلزلت الأرض، أو حدثت مجاعة، أو انتشر وباء تتعالى الصيحات على الفور هاتفة : «فليلق بالمسيحيين إلى الأسد»، وفعلاً كانت تستجيب السلطات الرومانية للشعور العام الذى كان يلقى اللوم دوماً على المسيحيين. وفى تلك الأثناء كان هناك من المسيحيين من تنقصهم الشجاعة على احتمال البلاء، ولو أن الكثير منهم أعطوا المثل الرائع على التضحية واحتمال الشدائد؛ ومن المستحيل قراءة قصص البطولة والاستشهاد، دون أن تهتز المشاعر للبطولة الرائعة التى أبداها كل من الرجال والنساء، خاصة عندما ندرك أن مضمون هذه القصص عبارة «أنا مسيحى» Christianus sum أو «أنا مسيحية» Christiana sum، وكانت تلك العبارة تعرض قائلها لأبشع أنواع التعذيب والموت[(٢)].

وفى القرن الثالث الميلادى أخذت العلاقة بين الدولة والكنيسة طابعاً جديداً لم تألفه من قبل، فقد أفزع السلطات الرومانية ما وصلت إليه المسيحية من نفوذ واتساع سلطان، حتى أنها صارت قوة منظمة، وبمعنى آخر دولة داخل الدولة

---

(١) كوينتوس سبتميوس ترتوليان القرطاجنى Quintus Septimius Tertullianus؛ ولد فى قرطاجنة – أو ضواحيها – من أبوين وثنيين حوالى سنة ١٦٠م، وتوفى حوالى سنة ٢٢٠. وكان والده قائداً رومانياً، ولما شب عن الطوق درس البلاغة والأدب فى روما، واهتم بدراسة الطب، ولكنه لم يلبث أن انصرف عنها إلى دراسة القانون، فبرع فيه، واشتغل بالمحاماة عاماً واحداً فى روما. وفى كهولته اعتنق المسيحية وتزوج بمسيحية، ورسم قسا. وقد دافع عن الدين المسيحى دفاعاً عظيماً مجيداً، ووضع عدة مؤلفات منها كتاب «دفاع» تناول فيه ما أحاط بالمسيحيين من ألوان الاضطهادات على أيدى الرومان، وكتاب «إلى الأمم» هاجم فيه الوثنية والفلاسفة. أنظر :
Glover (T.R.), The Conflict of Religions in the Early Roman Empire. Fourth ed., (London, 1910), pp. 307 - 322; Salmon, op. cit., p. 323.

(٢) Salmon, op. cit., p. 323.;
بل، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، ص ١٢٨ – ١٣٠.

(الامبراطورية)[١]، تعارض العنف، وتأبى الانخراط فى الجيش الرومانى، ليس لأحد على أتباعها سطوة إلا الكتاب المقدس وطاعة الله. ويحسن بنا أن نكرر فى هذا المقام أن اضطهاد المسيحيين وإيقاع صنوف الأذى بهم آنذاك، ليس معناه أن ذلك كان يجرى باسم الدين، وإنما كان يجرى لصالح وحدة الامبراطورية. ويمكننا أن نلمس ذلك بوضوح فى موقف الأمبراطور سبتميوس سيفيروس (١٩٣– ٢١١م) تجاه المسيحية، إذ لم يكن معادياً لها فى أول الأمر، ولكنه أصيب بالهلع من جراء الزيادة السريعة فى أعداد المسيحيين، فأمر بتحريم تعميدهم، وفى مصر ملأ السجون بهم، ودفع بالبعض منهم إلى الجلادين، وألقى بالبعض الآخر إلى الحيوانات المفترسة فى ساحة قرطاجنة. وقد نهج الأمبراطور ديكيوس (٢٤٩ – ٢٥١) نهج الأمبراطور سبتميوس سيفيروس فى إيقاع الأذى بالمسيحيين، وإن كان قد اتخذ إجراءات أشد عنفاً ضدهم، من ذلك أنه أوجب على كل مواطن أن يقدم القرابين والنذور وآيات الشكر للوثنية، وحصوله على شهادة بذلك يقدمها للسلطات الرومانية عند الحاجة، وكان الذى لا يقدم هذه الشهادة يعتبر مسيحياً. ومما يلفت النظر أن المرسوم الذى أصدره ديكيوس نجح فى إحداث ردة بين بعض المسيحيين، وفى خلق متاعب للكنيسة أثارتها إعادة قبول المرتدين. على أن بعض ضعاف النفوس سمحت لهم ضمائرهم أن يقدموا للسلطات شهادات مزورة، على حين حصل البعض الآخر على شهادات بطريق الاحتيال[٢]. وما لبث عداء الحكومة أن ازداد، ففى سنة ٢٥٧م أمر الامبراطور ڤاليريان بمصادرة أملاك الكنيسة، ونفى رجالها، وكان الاعدام نصيب قلة من الأساقفة الشجعان تحدوا تصرفاته؛ وبعد فترة وجيزة وقع ڤاليريان أسيراً فى أيدى الفرس فى عام ٢٦٠م، وارتقى ابنه جالينوس عرش الأمبراطورية، فلم يسلك سلوك أبيه، وبادر برفع الاضطهاد عن المسيحيين وإيقاف الهجوم عليهم، وأمر أن يرد إليهم ما صودر من ممتلكاتهم، وسمح لهم ببناء الكنائس وامتلاك العقارات.

(١) Lindsay, op. cit., Vol. I., p. 96.

(٢) Charlesworth, The Roman Empire., p. 162; Barrow, op. cit., pp. 181 - 184;

جيبون، سقوط الأمبراطورية الرومانية، جـ ١ ص ٣٢ – ٣٤.

ومنذ ذلك الوقت تمتعت الكنيسة بسلام وهدوء داما أربعين سنة، حصل فيها المسيحيون على حرية ممارسة عقيدتهم، وشهدت الكنيسة طوال تلك السنين حركة نماء وازدهار لم تشهدها من قبل، الأمر الذى كان له بالغ الأثر فى ازدياد أتباع العقيدة، وانتشارها بشكل أكثر فى مجتمع الطبقة الارستقراطية(١).

وحول ما لقيه المسيحيون من اضطهادات على أيدى الحكومة الرومانية، لايستطيع أى باحث أن يغفل الفظائع التى ارتكبها الأمبراطور دقلديانوس فى حق المسيحية، فما أن ارتقى العرش سنة ٢٨٤م، حتى هاله ما وصل إليه أمر المسيحية من نفوذ وعلو شأن، وراعه انصراف أتباع تلك الديانة عن عبادة الأمبراطور، وهو أمر رأى فيه تهديداً لسلامة الأمبراطورية وأمنها، ولذلك اعتزم محاربة العقيدة وإلحاق الأذى بأتباعها؛ ولم يكن دافعه إلى ذلك مقته المسيحية، ولكن خشية أن يؤدى أهمال شأنها إلى هدم صرح المجتمع الرومانى. أضف إلى ذلك أنه كان من بين كبار موظفيه أعداء للمسحية، أشدهم بغضاً وعداوة لها مساعده جاليريوس الذى كان يحمل لقب قيصر. فقد أوحى إليه بجسامة الأخطار التى تهدد الأمبراطورية من قبل المسيحية، وشجعه على استخدام نفوذه من أجل إعادة الآلهة الرومانية إلى منزلتها القديمة. وزادت مخاوف الامبراطور عندما اكتشف أن من بين قواته النظامية – ضباطاً وجنوداً – فى القصر الامبراطورى نفسه أنصاراً لتلك الديانة(٢). ومما أكد مخاوف الامبراطور وأثار حفيظته، تلك الأخطار الخارجية الممثلة فى الجرمان والفرس، لا سيما أن المسيحية كانت قد دخلت فارس، وتبين أن المانوية(٣) كانت تمت إليها بصلة قوية(٤).

---

(١) Jones, op. cit., p. 26.;
جيبون، سقوط الأمبراطورية الرومانية، جـ ١ ص ٤٥٧.

(٢) Downey, The Later Roman Empire., pp. 15 - 16.

(٣) تنسب المانوية إلى صاحبها مانى (٢١٦ – ٢٧٧م)، ولد فى ماردين بالقرب من بابل، وأعلن عقيدته فى سن الخامسة والأربعين خلال عهد الملك الساسانى سابور الأول (٢٤١ – ٢٧٢م). والعالم عند المانوية قائم على أصلين هما الخير والشر أو النور والظلمة. ويرى مانى أن الخير والشر ممتزجان معاً فى الانسان، وأن المرأة هى السبب فى إيقاع الرجل فى الذنوب، فإذا =

(٤) أسد رستم، الروم، جـ ١ ص ٣٥ – ٣٦.

ومهما يكن من أمر، لم يطق دقلديانوس أن يرى فى المسيحيين جماعة منفصلة عن جسد الدولة، لا تخضع له. ولم يلبث أن أمر بتجريدهم فى الجيش من الرتب العسكرية وطردهم من صفوفه، وإقصائهم أيضاً عن الوظائف المدنية إلا إذا قدموا القرابين لجوبتر Jupiter Optimus Maximus الراعى التقليدى لمدينة روما؛ وأعقب ذلك أن أصدر مرسوماً فى نيقوميديا فى ٢٣ فبراير سنة ٣٠٣م، تضمن إجراءات مشددة، بموجبها أغلقت جميع الكنائس، وهدمت بعد مصادرة أملاكها، وجمعت الكتب المقدسة وأحرقت، ومنعت إجتماعات المسيحيين، وقبض على رجال الدين منهم وزج بهم فى غياهب السجون؛ أما أولئك الذين قاوموا أوامر دقلديانوس، فقد أنزل بهم أبشع أنواع التنكيل والعذاب، وجرى الحكم بالإعدام على كل مسيحى تحدثه نفسه عقد أية اجتماعات لممارسة العبادة؛ وحرم المسيحيين من حماية القانون، الأمر الذى جعلهم يطلقون على الفترة الأخيرة من حكمه اسم «عصر الشهداء»[١]، لكثرة عدد المستشهدين من جهة، ولشدة عنف الاضطهاد الذى تعرض له أتباع المسيحية من جهة أخرى. ومما يذكر أن الكنيسة القبطية فى مصر والحبشة لازالت تؤرخ الأحداث بعصر دقلديانوس أو عصر الشهداء[٢]. ويبدأ التقويم القبطى بيوم ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤م – وهو نفس اليوم الذى يوافق أول شهر تحوت، بداية السنة المصرية القديمة – ذكرى استشهاد العديد من المسيحيين. وعلى الرغم مما قام به دقلديانوس تجاه المسيحيين من إجراءات عنيفة، إلا أن ذلك لم يفت فى عضدهم،

= امتنع عنها، وعاش عيشة الزهد، وصام عن الطعام بعض الوقت، فإن ما فيه من عناصر الخير يتغلب على النوازع الشيطانية ويهديه إلى النجاة. وقد رفض مانى التوراة تماماً وقبل الإنجيل فقط، ويرى أنه رسول الحق وخليفة بوذا وزرادشت والمسيح ويتضح من ديانة مانى أنها ديانة مركبة، أى أنه اقتبس معتقداته من ديانات أخرى وألف بينها. وظل مانى ينشر دعوته حتى صلب سنة ٢٧٢م، وحشى جلده بالقش. وقد انتشرت المانوية أول الأمر فى بابل، ثم انتقلت بعد ذلك إلى سوريا وفلسطين ومصر، ومنها انتقلت إلى طرابلس وقرطاجنة، فى الوقت الذى انتشرت فيه فى الغال وبريطانيا. انظر: حسن بيرنيا، تاريخ إيران، ص ٢١٧ – ٢٢١؛ أسد رستم، الروم، جـ ١ ص ٤٧ – ٤٨.

(١) Jones, op. cit., pp. 36 - 37.

(٢) بل، مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى، ص ١٥٨ – ١٥٩.

فقد استرخصوا الموت في سبيل العقيدة، وأظهروا ألواناً من الشجاعة والصبر والبطولة والتضحية، جعلتهم موضع إعجاب المعاصرين بشكل أدى إلى اعتناق الكثير منهم المسيحية.

تغير موقف الأمبراطورية الرومانية من الديانة المسيحية تغييراً جذرياً باعتلاء قنسطنطين العرش، فقد أصدر مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣م Edict of Milan اعترف فيه بوضع المسيحية على قدم المساواة مع بقية الديانات الأخرى المعترف بها داخل الأمبراطورية. وبذلك وضع مبدأ التسامح الدولي للأديان من الناحية الرسمية في التاريخ، فغدا لكل مواطن الحق في اختيار ديانته ومزاولة شعائرها بطريقته الخاصة دون أي ضغط من السلطات. ولا جدال أن ذلك المرسوم رفع الاضطهادات ووسائل التعذيب عن جميع المسيحيين، وأزاح عن كاهلهم القلق والجهد النفسي والمعاناة، ولم يعد الموظفون الجشعون يحتالون عليهم ويهددونهم بالويل والثبور كما كان الأمر من قبل، وفي الوقت نفسه كفل لهم القانون الحماية الكاملة لأرواحهم ومبانيهم وممتلكاتهم. وينبغي التأكيد أن مرسوم ميلان لم يضع المسيحية في وضع متميز أرقى منزلة من سائر الأديان الأخرى، ولكنه وضع مبدأ الحرية الدينية لتلك الديانة، بعد أن كانت ذات وضع غير معترف به من الوجهة الشرعية من جهة، وبعد أن كانت الديانات الوثنية هي الوحيدة المعترف بها من قبل الدولة من جهة أخرى[١].

وقد اختلفت الآراء حول الأسباب التي دفعت قنسطنطين إلى إصدار مرسوم ميلان. هل كان ذلك بسبب اعتناقه المسيحية؟ وهل كان اعتناقه المسيحية نابعاً من شعور داخلي واحساس ديني صادق؟ أو هل كان تحوله إلى المسيحية عملاً سياسياً بارعاً أملته الظروف القائمة آنذاك، بهدف الحصول على أنصار من المسيحيين؟ كل تلك الأسئلة مهما اختلف الباحثون في الإجابة عليها، فمن المسلم

(١) Gwatkin (H.M.) & Dixie (M.A.), "Constantine and his City", in Camb. Med. Hist. Vol. I. p.5;

عمر كمال توفيق، تاريخ الأمبراطورية البيزنطية، ص ٣١.

به أنها تعكس الفرحة المفاجئة للكنيسة المنتصرة على أعدائها الوثنيين. وقد جاء في الروايات المعاصرة أن قنسطنطين رأى رؤيا قصها على مؤرخه وصديقه ومستشاره أوسابيوس (٢٦٠ – ٣٤٠م) Eusebius أسقف قيصرية في فلسطين، مفادها أنه إبان النزاع بين قنسطنطين وماكسنتيوس حول الوصول إلى منصب الامبراطورية، وكان الأخير قد استولى على روما، ووصل الأمر إلى ضرورة وضع نهاية له بقيام معركة حاسمة تدور بين الطرفين. وطبقاً للأسطورة صار وضع قنسطنطين حرجاً، وبدا له أن الأحداث أثبتت عجز الآلهة الوثنية عن مساندة أنصارها خلال نضالهم من أجل الوصول إلي السلطة، وتذكر ما عرفه عن المسيحية من أبيه الذى نهج مع أتباعها نهج التسامح إعجاباً بمتانة أخلاقهم وصدق إخلاصهم، ومن ثم رأى – قبل عبوره جبال الألب إلى إيطاليا – فوق قرص الشمس الجانحة للمغيب صليباً من النور مكتوباً عليه in hoc signo vinces (By this Conquer)، أى «بفضل هذا تنتصر»، ويروى أن تلك الرؤيا في السماء أدهشت كل الجيش بأسره، بنفس القدر التى أدهشت به الامبراطور نفسه؛ وفى تلك الليلة أيضاً ظهر المسيح فى رؤيا لقنسطنطين، أوصاه فيها أن يتخذ من الصليب راية وشعاراً له فى هجومه على عدوه ماكسنتيوس. ومما يروى أن قنسطنطين – بفضل تلك الرؤيا – استطاع إحراز النصر عليه خارج روما فى موقعة جسر ملفيان فى أكتوبر سنة ٣١٢م، انتهت بمقتل ماكسنتيوس وإعلان قنسطنطين أوغسطسا[١]، حسب النظام الذى أوجده دقلديانوس. ومهما قيل من أن قنسطنطين قد انضم إلى صفوف المؤمنين بالمسيحية لأسباب سياسية أو دينية، فإن ذلك الأمر يعتبر حدثاً بالغ الأهمية، إذ بفضل الخطوة التى أقدم عليها كان من الواضح أن المسيحية فى صراعها مع الوثنية سيكتب لها النصر في النهاية، لاسيما إذا اعتنق امبراطور ما المسيحية. ولا يغيب عن البال أن أتباع المسيحية آنذاك، كانوا يمثلون أقلية ضئيلة بالنسبة لأنصار العبادات الأخرى، تألف معظمها من الطبقات الدنيا من المجتمع فى المدن، أما الأغلبية الساحقة من

(١) Jones, op. cit., pp. 39 - 40; Downey, op. cit., pp. 21 - 22.

طبقة السناتو والمثقفين فكانت وثنية، بالاضافة إلى أن الفلاحين ورجال الجيش – فيما عدا مصر وأفريقية – كانت وثنيتهم هى الغالبة(١). وبفضل قنسطنطين – أو بالأحرى مرسوم ميلان– صارت المسيحية ديانة مرخصة religio licita، أفقدت الديانات الأخرى معظم نفوذها وقوتها(٢)، حتى يمكننا القول أن الدولة رغم إطلاقها مبدأ التسامح الدينى بإصدارها مرسوم ميلان كما أسلفنا القول، إلا أن اعتناق قنسطنطين المسيحية جعل ميزان التسامح – من الناحية الواقعية – يميل ميلاً أقرب ما يكون للمسيحية، دون المساس بالوثنية. ومما يؤيد ذلك، أنه فى الوقت الذى منع فيه قنسطنطين المسيحيين من التعرض للوثنيين والاحتكاك بهم، نراه قد أمر بتدمير ثلاثة معابد شهيرة هى اسكليبوس Asclepius فى إيجة، وهليوبوليس، وأفيكا Apheca فى فينيقيا، لما تزاوله من طقوس فاسدة. وعلاوة على ذلك بنى قنسطنطين عدداً من الكنائس الرائعة فى روما والقسطنطينية وبيت لحم ونيقوميديا وأنطاكية وغيرها وأوقف عليها المزارع الواسعة.

وينبغى علينا أن نتفهم أن وضع الأمبراطور المسيحى قد اختلف عن وضع أسلافه الوثنيين، فقد كان عليه أن يحكم مجتمعاً مغايراً، احتل فيه مكانة الأخ المسيحى لرعاياه، أما الأمبراطور الوثنى فله شخصيته التقليدية النابعة من المنصب الأمبراطورى، ولذلك ظلت العملات الأمبراطورية – لبعض الوقت – تحمل النقوش والرموز الوثنية المألوفة، استناداً إلى أنه لازال امبراطوراً لنوعين مختلفين من الرعايا، وهم الوثنيون والمسيحيون؛ كذلك واصل قنسطنطين وخلفاؤه حتى عهد الامبراطور فالنتنيان الأول (٣٦٤ – ٣٧٥م) وجراتيان (٣٧٥ – ٣٨٣)، حمل لقب الكاهن العظيم Pontifex Maximus(٣). وكان من الممكن لو قدر لامبراطور وثنى أن يعتلى العرش بعد قنسطنطين مباشرة، أن يبدل الاتجاه الذى سار فيه قنسطنطين تبديلاً تاماً. غير أن أبناء قنسطنطين نهجوا سياسة التسامح

(١) Jones, op. cit., p. 50.

(٢) Reid (J.S.), "The Reorganisation of the Empire.", in Camb. Med. Hist., Vol. I., p. 37.

(٣) Downey, op. cit., pp. 30 - 31.

تجاه المسيحية، فى الوقت الذى لقيت فيه الوثنية العنت والاضطهاد على أيديهم، وهدم العديد من معابدها. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد وسعوا من دائرة الامتيازات التى منحت للكنيسة، بإعفاء رجالها من ضريبة الرأس Capitatio، وأعفى الأساقفة أيضاً من المثول أمام المحاكم العلمانية فى القضايا الجنائية، وجرت محاكمتهم أمام مجالس مؤلفة من زملائهم فقط(١).

على أن المسيحية رغم ذلك لم تعدم من هو كاره لها، فعلى قدر ما أيد قنسطنطين وأبناؤه المسيحية من قبل، وجدت الوثنية من أيدها بإخلاص وولاء، وخير صورة لذلك الامبراطور جوليان المرتد. وقد شجعه على القيام بخطوته تلك ما رآه فى الجدل الذى أثاره المسيحيون حول الثالوث وطبيعة المسيح، ومارآه فى تكالب رجال الدين المسيحيين على المناصب الكنسية(٢). وقد امتلأ صدره حماساً لإعادة الأمبراطورية إلى أيامها الأولى، أيام المواطن الأول، وكان يميل إلى التمسك بعبادة الأجداد التى تتمثل فى عبادات روما التقليدية، لأن هجرها يعتبر كارثة تؤدى بالامبراطورية. ولما كان متعلقاً بالثقافة الهيللينية، بعد أن سرى إلى قلبه حب عالم الفلسفة اليونانية، فقد أطلق على أنصاره الهللينيين، أما المسيحية فقد كانت فى رأيه ديانة بربرية سيئة، جعلت الرجال يغفلون عن القيام بواجباتهم، ولذلك أطلق على أنصارها الجليليين(٣) Galilaeans وهو اسم أقل تشريفاً لهم. وراح جوليان يقوم بإجراءات قمع شديدة ضد المسيحيين، بغية جذب الناس إلى ديانته، منها إبطال المراسيم التى سنت من قبل لمنع تقديم القرابين، والأمر بإعادة فتح المعابد الوثنية، وإرجاع الأراضى والممتلكات التى استولت عليها الدولة لتلك المعابد. أما المعابد الوثنية التى هدمها المسيحيون وبنوا على أنقاضها بيوتاً لهم، فقد أمر بإعادة بنائها على نفقة أولئك الذين انتزعوا أحجارها، الأمر الذى ألقى

---

(١) Jones, op. cit., p. 54.

(٢) إسحق عبيد، الأمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، ص ٦٢.

(٣) كان جوليان يكره المسيحية ويحتقرها، ولا يطيق سماع اسم «المسيح»، ومن ثم راح يشير إلى المسيحيين بكلمة «الجليليين»، وهو اسم أقل تشريفاً لهم، إصراراً منه على عدم ذكر لفظة المسيح.

على كواهلهم عبئاً جسيماً، كذلك أصدر تعليماته بهدم كنائس المسيحيين التى أقامت صروحها على أنقاض المعابد الوثنية، ورغبة منه فى إنعاش الوثنية وتثبيت وضعها، فقد منح أتباعها الوظائف والألقاب، فى الوقت الذى ألغى فيه الامتيازات التى تمتعت بها الكنيسة، ووهبها لكهنة معابده الوثنية[١]. والحق أن محاولة جوليان إحياء أمجاد الوثنية تعتبر آخر المحاولات اليائسة التى كان نصيبها الفشل الذريع، ذلك أن الوثنية كانت قد ماتت فعلاً من الناحية الروحية، ولم يبق فيها رمق يجدد شبابها، أضف إلى هذا أن افتقارها إلى القواعد الأخلاقية التى تفردت بها الكنيسة جعلتها تلقى سلاحها، وتسرع الخطى نحو مصيرها المظلم.

ولم تلبث الوثنية أن تلقت ضربة قاصمة على يد الامبراطور ثيودوسيوس العظيم (٣٧٨ – ٣٩٥)، الذى آثر نبذ سياسة التسامح الدينى، فأصدر مرسوماً سنة ٣٩٢ أعلن فيه بطلان العبادات الوثنية ومنع تقديم القرابين، وإحراق البخور، وإراقة الخمور، وممارسة الكهانة، ومعرفة الغيب، وما إلى ذلك من العادات والتقاليد الوثنية، ثم صادر معابد الوثنية التى غدت منذئذ متاحف فنية، كما صادر أملاكها على أن تؤول هذه إلى الكنائس والجيش الامبراطورى[٢]. وهكذا استخدمت الدولة من أجل إعلان شأن المسيحية نفس الأسلحة التى استخدمتها ضدها عندما كانت تساند الوثنية فى القرن الماضى، فعلى حين أنها قامت باضطهاد المسيحية من قبل حفاظاً على وحدة الامبراطورية، نراها الآن تسعى حثيثاً لاستئصال شأفة الوثنية وأعداء المسيحية، بهدف الحفاظ على وحدة الامبراطورية وبقائها[٣].

ولا جدال أن المسيحية خلال الخمسين عاماً التى تلت اعتراف قنسطنطين بها، حققت الكثير من خطوات النجاح، ففى تلك الفترة شاهد المجتمع الرومانى

---

(١) Jones, op. cit., pp. 59 - 60; Downey, op. cit., p. 53.

(٢) Vasiliev (A. A.), Hist. of the Byzantine Empis, (Paris, 1952), Vol. I., p. 83.,

السيد الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٣٧.

نشأة أرستقراطية جديدة قامت على المسيحية متأسية في ذلك بالبلاط والأسرة الأمبراطورية، ولكن الأرستقراطية القديمة التي نشأت في أحضان الوثنية وألفت تقاليدها، ظلت – هي وغالبيته المثقفين – على وثنيتها. ومما يجدر ذكره أن الوثنية في صراعها مع المسيحية من أجل البقاء، أظهرت حيوية تثير الدهشة، فلم تلق بسلاحها من أول جولة، بل ناضلت وظل الأمل يراودها في استعادة نفوذها قرناً آخر من الزمن[١]. ويتضح ذلك إذا علمنا أن الأرستقراطية في الجزء الشرقي من الأمبراطورية، التي كانت لاتزال تشغل المناصب العليا في الحكومة، دأبت على حماية أتباع الوثنية. وفي القرن الخامس كان العديد من الشخصيات البارزة في المجتمع – فلاسفة وأدباء وقواداً – على ما هم عليه من وثنية، وقد بقيت مدينتا أثينا وآخايا Achaia آخر معاقل الوثنية في الشرق، لاسيما آثينا التي عرفت بأنها أعظم مركز للحياة العقلية في القرنين الرابع والخامس، فأساتذتها وهم في أغلب الأحوال على مذهب الأفلاطونية المحدثة[٢]، رفضوا اعتناق المسيحية في عزم وإصرار، وظلوا مخلصين لتقاليدهم الوثنية إلى أن ارتقى ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ – ٤٥٠) عرش الأمبراطورية، فمنعهم من القاء محاضرات عامة، مهدداً بالنفي كل من يعصي أوامره. وعندما وصل جستنيان إلى عرش الأمبراطورية سنة ٥٢٧م، عقد العزم على سحق آخر بقايا الوثنية في الأمبراطورية، فأغلق مدارسها في آثينا، وصادر الاعتمادات المالية المخصصة لرواتب الأساتذة، واضطهد الفلاسفة، الأمر الذي أدى إلى فرارهم إلى فارس، خشية تعرضهم

---

(١) يمكن تعريف الأفلاطونية المحدثة بأنها محاولة لوضع فلسفة دينية، وهي مذهب قام على أصول أفلاطونية، أتمه أتباعه في القرنين الثاني والثالث الميلاد. وقد تأثر المذهب باليهودية والمسيحية. وأبرز الأفلاطونيين المحدثين أفلوطين (٢٠٥ – ٢٧٠م)، ولد في ليقوبوليس من أعمال مصر الوسطى، ولم يشرع في الكتابة إلا في حوالي الخمسين من عمره. وقد كان أثر أفلوطين متصلاً عميقاً، ترجمت بعض رسائله إلى اللاتينية في القرن الرابع، ووجد فيها القديس أوغسطين عوناً كبيراً. أنظر : (يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ٢٨٥ – ٢٩٧).

السجن أو الموت، وظلوا هناك حتى حصل الملك الفارسي على وعد من جستنيان بمعاملتهم معاملة طيبة عند عودتهم إلى وطنهم[١].

آباء الكنيسة :

من المعروف أن المسيح عليه السلام وضع للناس أسلوباً للحياة، ولكنه لم يقم بمحاولة وضع أساس لنظام لاهوتي، فطالما كان أتباعه يعظون أناساً بسطاء غير متعلمين كان ذلك كافياً، وبمعنى آخر كان باستطاعة الفرد البسيط من الناس أن يشبع أحاسيسه وعواطفه ومشاعره بمعرفة قصة المسيح وحياته وآلامه. ولكن المثقفين من الرجال، أولئك الذين مارسوا طرق التفكير الكلاسيكي، أرادوا الوقوف على صحة العلاقة بين الله والمسيح في نقاط محددة دقيقة، كما كانوا دائمي السؤال عن طبيعة الملائكة، وعن المقصود بالقول أن الخبز والنبيذ تحولا إلى لحم المسيح ودمه[٢]، وهل العذراء مريم أم للمسيح في طبيعته البشرية أم في طبيعته الإلهية، وغيرها من الأسئلة التي اختلفوا حولها. ومن الطبيعي أن الحاجة صارت ملحة للإجابة على تلك الأسئلة، لاسيما بعد أن أعلن قنسطنطين اعترافه بالمسيحية عام ٣١٣. ومهما يكن من أمر، فقد ألقى على عاتق مجموعة من رجال الدين الباحثين أطلق عليهم آباء الكنيسة The Church Fathers مهمة إيجاد

---

(١) Lindsay, op. cit., Vol. I., pp. 112 - 114;
يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ٢٠١.

(٢) ورد في أناجيل متى ومرقص ولوقا وصفا لعشاء السيد المسيح الأخير مع تلاميذه، ويصفه متى بهذه العبارة : «وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز، وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال : خذوا كلوا، هذا هو جسدي. وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً : اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا». وقد طورت الكنيسة العشاء الرباني في وقت مبكر جداً، فقد تطلب العشاء المقدس – أو التناول المقدس – أداء بعض الطقوس، الغرض منها تحقيق أهداف روحية. فالمؤمن وسط العشاء المقدس، يأكل قطعة من الخبز ويحتسي قليلاً من النبيذ من مائدة مشتركة تحولها قدرة الله، التي انتقلت في خيط متصل إلى المسيح ثم إلى تلاميذه، ثم إلى رجال الدين، إلى مادة سماوية هي على التوالي جسد المسيح ودمه. وإذا كان سلوك المؤمن وقت التناول مسيحياً حقاً، فإن خطاياه السابقة بهذا العمل تمحى، ويظفر بالحياة الأبدية في النعيم. انظر : (برنتن : أفكار ورجال، قصة الفكر الغربي، ص ١٨٩ – ١٩٠).

لاهوت مسيحي يعمل على إرضاء الطبقة المثقفة في المجتمع الروماني. وأعظم أولئك الآباء أهمية كليمنت السكندري (١٥٠ - ٢١٧م)، وأوريجين السكندري (حوالي ١٨٥ - ٢٥٤)، وجيروم (حوالي ٣٤٠ - ٤٢٠)، وأمبروز (حوالي ٣٤٠ - ٣٩٧)، وأوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠). والجدير بالذكر أن أولئك الرجال كانوا على دراية حقة بأعمال ومؤلفات الفلاسفة الكلاسيكيين، ومن ثم أفادوا تماماً من أفكارهم وأساليبهم، الأمر الذي مكنهم من شرح الديانة المسيحية للمثقف بلغة وأفكار مألوفة لديه ترضي نزعته؛ ولما كانوا يرغبون في التفوق على الوثنيين المثقفين، فقد عكفوا على اقتباس الكثير من المؤلفات الكلاسيكية، خاصة أفكار الأفلاطونية، التي كانت - من أوجه عديدة - مطابقة للأفكار المسيحية[1].

وسنحاول أن نلقي بعض الضوء على أولئك الآباء الذين دافعوا عن الكنيسة إبان أيامها الأولى، وأسهموا بآرائهم في تثبيت أركانها، وتبيان سلطتها ونفوذها. وبداية ولد كليمنت السكندري Clement of Alexandria وثنياً في الاسكندرية، وفي رواية أخرى بأثينا؛ عرف الأسرار الوثنية والمذاهب الفلسفية، وانتهى بتفضيل الأفلاطونية، غير أنها لم تشبع حياته الروحية، فاعتنق المسيحية. ويرى كليمنت أن الفلسفة مفيدة للإيمان وليست ضرورية له، وهي تمهيد لابد منه للذين يصلون إلى الإيمان عن طريق الاستدلال؛ وكان يرى أيضاً أن واجب المسيحي المثقف يقضي عليه بالتفقه في الدين، وأن الفلسفة خير أداة لتحقيق تلك الغاية[2].

أما أوريجين Origen فهو تلميذ كليمنت السكندري، درس عليه في صباه، ثم حصل علمه بنفسه، ففاق أستاذه. وقد ولد بالاسكندرية من عائلة كانت وثنية ثم تنصرت، وكان في السابعة عشرة من عمره عندما عصفت بالكنيسة المصرية اضطهادات الامبراطور سبتميوس سيفيروس التي كانت السبب في إعدام أبيه ليونيداس ومصادرة أملاكه، ثم اضطلع بمنصب رئيس المدرسة المسيحية

---

(١) Painter, op. cit., p. 15.

(٢) يوسف كرم، المرجع السابق، ص ٢٦٩ - ٢٧١.

بالأسكندرية – وهى مدرسة لتعليم أصول الدين – محل كليمنت، فأصاب كثيرا من النجاح، واستطاع أن يجتذب إلى علمه وبلاغته الكثير من الطلبة. وقد قام أوريجين بعدة رحلات آخرها رحلته إلى فلسطين عام ٢٥٠م، وفيما هو هناك شب اضطهاد هائل، فاعتقل وعذب عذاباً أليماً تحمله بشجاعة وصبر. غير أن التعذيب ألحق الضرر بجسده الواهي، فتوفي بمدينة صور، بعد أن أعلن عن رجوعه عن الآراء التي غيرت السلطات عليه. وقد دون أوريجين مؤلفات ضخمة، معظمها شروح على الكتب المقدسة، وحرصاً منه على تحقيق نصوص الكتب المقدسة تعلم اللغة العبرية، وقابل بين الترجمات اليونانية بعضها وبعض، وبينها وبين الأصول؛ وقد عرف عنه صدق ولائه للكنيسة، وشدة تمسكه بالإيمان الصادق، والتوجه بكل إحساسه وشعوره نحو الحياة الروحية[1]. هذا وقد احتوى كتابه المشهور «المبادىء الأولى» Peri archon أول عرض فلسفي منظم للعقيدة المسيحية، أما كتابه الشذرات Stromateis فقد أثبت فيه أن الثقافة الكلاسيكية أمر ضرورى لفهم العقيدة المسيحية والكتاب المقدس فهما صحيحا[2].

أما القديس جيروم Jerome، فقد ولد حوالى سنة ٣٤٠م بالقرب من أكويليا، من أبوين على المذهب الكاثوليكي، ونال قسطاً وافراً من التعليم فى مدينة روما، ودرس الآداب اللاتينية واليونانية دراسة عميقة؛ وخلال دراسته فى روما عاش عيشة صاخبة، بيد أنه عندما بلغ سن العشرين اعتنق المسيحية وتمسك بمبادئها تمسكاً شديداً؛ وفى أكويليا كون جماعة من الأخوة الزهاد النساك، انضم إليها زمرة من أصحابه. ثم ترك جيروم عائلته، وأخذ معه مكتبته إلى الشرق الأدنى، حيث دخل أحد الأديرة فى أنطاكية فى عام ٣٧٤م. وهناك انتابته حمى شديدة، رأى خلالها رؤية غيرت مجرى حياته، فانسحب من الدير ليعيش عيشة النساك فى الصحراء. ولما كان ميله للدراسة يملأ جوانحه، فقد انتهز الفرصة وتعلم اللغة

---

(١) Katz, Decline of Rome., p. 56.;
يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ٢٧٤ – ٢٨٤.

(٢) ديورانت، قصة الحضارة، مج ٣، جـ ٣، ص ٣٠٩ – ٣١٣.

العبرية؛ وفى عام ٣٨١ زار مدينة القسطنطينية، وقدر له فى تلك المدينة أن يدرس على يد اللاهوتى العظيم جريجورى النازيانزى (٣٢٩ – ٣٨٩) Gregory of Nazianzum. وعندما زار مدينة روما فى العام التالى (٣٨٢) قابل البابا داماس الأول (٣٦٦ – ٣٨٤) الذى شجعه على ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية، ذلك أن الكنيسة قد أدركت آنذاك أن الترجمات اللاتينية المختلفة للكتاب المقدس كانت غير جيدة، لكثرة ما جاء بها من أخطاء، فضلاً عن اعتمادها على مصادر غير جديرة بالثقة. وقد قام جيروم فعلاً بتنقيح النسخة اللاتينية بعد أن رجع إلى مصادر يونانية وعبرية، ثم أخرج للكنيسة ترجمة منقحة صحيحة للعهد الجديد باللغة اللاتينية، وهى الترجمة التى أضحت النسخة المعتمدة فى الكنيسة فى العصور الوسطى والعصر الحديث[١]. ثم خرج جيروم من روما فى عام ٣٨٥ إلى أنطاكية، واستقر به المطاف فى بيت لحم بفلسطين، حيث أنشأ ديراً للرهبان صار هو رئيسه، كما أنشأ نزلا لحجاج الأراضى المقدسة، وأتاحت له الظروف فرصة كافية ليواصل دراساته باللغة العبرية والكلدانية، فضلاً عن كتابة العديد من الرسائل التى أعطتنا لمحات حية عن الحياة آنذاك، ولم ينقطع جيروم عن الكتابة، حتى حضرته الوفاة سنة ٤٢٠[٢].

ومن آباء الكنيسة القلائل الذين تعتز بهم المسيحية القديس أمبروز St. Ambrose، الذى ولد فى مدينة تريبه (تريف) Trier فى بلاد الغال حوالى عام ٣٤٠م، من أسرة رومانية عريقة، ونال حظاً وافراً من التعليم، فدرس القانون والآداب اللاتينية واليونانية فى روما، وقد أجمعت الظروف على أنه سيحظى بمكانة مرموقة فى المجتمع، وفعلاً عندما خلا منصب رئيس أساقفة ميلان فى عام ٣٧٤م، عين فى ذلك المنصب بعد أن حصل على تأييد إجماعى شامل، ويروى أنه أثناء النظر فى انتخاب رئيس الأساقفة صاح طفل صارخاً : «أمبروز للأسقفية»، الأمر الذى عزز مركزه فى شغل المنصب؛ وسرعان ما تخلى امبروز عن زخرف

(١) Lyon & Herbert and Hamerow, A Hist. of the Western World., p. 144.
(٢) Wand, A Hist. of the Early Church to A.D. 500., (London, 1977), pp. 206 - 210.

الحياة، وكرس حياته لخدمة الكنيسة، وكانت الثروة موضع احتقاره، بدليل أنه بادر بالتخلي عن الميراث الذى ورثه عن أبيه، ووزعه على الفقراء والمحتاجين(١). وكان لتربيته فى جو التقاليد السائدة بين طبقة الموظفين المدنيين فى الأمبراطورية أثر بعيد فى آرائه، إذ لم يقلل إخلاصه للمسيحية من ولائه للدولة الرومانية، لاعتقاده أن المسيحية سوف تكون مصدر قوة للأمبراطورية، وأنه كما انتصرت الكنيسة على الوثنية، فسوف تنتصر الأمبراطورية المسيحية على الجرمان المتبربرين؛ ويرى امبروز أن قانون الكنيسة لا يمكن تطبيقه إلا على أيدى الأساقفة الذين يخضع لسلطانهم جميع الناس حتى الأمبراطور نفسه(٢). وقد أعطى المثل على قوة نفوذ الكنيسة أمام الأمبراطور عندما أرادت جستينا Justi-na أرملة فالنتنيان الأول فى عام ٣٨٥م – وكانت على المذهب الآريوسى – الاستيلاء على أحد كنائس ميلان لصالح الآريوسيين، ولكن امبروز اتخذ موقفاً حاسماً ضدها، إذ أمر جموعاً ضخمة من أتباعه بوضع أيديهم على الكنيسة موضع النزاع، كى يمنع جند الأمبراطورة من الاستيلاء عليها بالقوة، وقد حقق امبروز ما أراد، إذ لم تلبث القوات الأمبراطورية أن فكت حصارها عن الكنيسة. وتشير حادثة أخرى لما بذله أمبروز من جهد فى مواجهة حكم الأباطرة المسيحيين، عندما أجبر الأمبراطور ثيودوسيوس الأول أو العظيم على طلب المغفرة، لارتكابه مذبحة قام بها فى ثيسالونيكا (سالونيكا) Thessalonica فى بلاد اليونان فى عام ٣٩٠ راح ضحيتها سبعة آلاف من سكان تلك المدينة، عقاباً لهم على ثورة قاموا بها وقتلوا حاكمها، وهو بهذا العمل أكد أن الأباطرة عليهم الخضوع لسلطة الكنيسة(٣)، الأمر الذى جعله يحتل مكانة بارزة فى النضال الذى دار بعد ذلك بين البابوية والأمبراطورية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر.

---

(١) Wand, op. cit., p. 203.

(٢) دوسن، تكوين أوربا، ص ٥٢.

(٣) Lyon & Herbert and Hamerow, op. cit., pp. 143 - 144; Wand, op. cit., pp. 203 - 205.

وآخر آباء الكنيسة العظام، بل وأعظم مفكرى عصره على وجه الإطلاق، هو القديس أوغسطين St. Augustine الذى لازال ظله يخيم على الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية. ولد سنة ٣٥٤ في تاجستا شرقى نوميديا Numidia (سوق الأخرس في الجزائر حالياً)، من أب وثنى وأم مسيحية، ونال قسطاً وافراً من التعليم وأجاد اللغة اللاتينية، ودرس القانون في قرطاجنة، ثم تركه بعد ذلك إلى البلاغة؛ ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره، غادر قرطاجنة إلى روما، وهناك تلوث شبابه بالرذائل التى تحدث عنها فى صراحة تامة، حتى أنه رفض اختيار زوجة له، وفضل أن يتخذ له عشيقة، عاش وفياً لها حتى افترقا فى عام ٣٨٥م، وقد أنجبت منه طفلاً. وإذا كانت حياته الخاصة سارت على هذا المنوال، إلا أن حياته العقلية كانت على النقيض تماماً، فقد ساقته تلك الحياة إلى الفلسفة الوثنية ولكنها لم تشبع حاجته، فتحول عنها إلى الأفلاطونية المحدثة، ثم استهوته تعاليم المانوية؛ وهنا نلاحظ أن رحلة الشك هذه لم تصل به إلى الحقيقة المنشودة. وفى عام ٣٨٣ استمع أوغسطين لعظات القديس امبروز كبير أساقفة ميلان، فأثار اهتمامه شرح العهد القديم، واشتد تأثره بالمسيحية تأثراً أرضى عاطفته الدينية، وخلصه من موجة الشك العارم التى كانت تجثم على صدره. وفى عام ٣٨٧ عمده أمبروز، وعزم العقد على تكريس حياته لخدمة الدين المسيحى، فلما وصل إلى أفريقية باع ما تركه له أبوه من ميراث صغير، ووزع ثمنه على الفقراء. وفى ٣٩١ اختير أسقفاً لمدينة هبو (بونا الحالية فى الجزائر)، وظل يشغل ذلك المنصب، فى الوقت الذى واصل فيه كتاباته اللاهوتية، حتى توفى سنة ٤٣٠م أثناء الحصار الذى فرضته جماعات الوندال الجرمانية على تلك المدينة[1].

ومن مؤلفات أوغسطين كتابان يعدان من أعظم كتب الأدب واللاهوت، فاعترافاته Confessiones وهى من أروع كتب السيرة الذاتية التى بقيت من العالم القديم، وأوسعها شهرة، وصف فيها ما اقترفه من ذنوب وآثام فى صباه،

(١) Lyon & Herbert and Hamerow, op. cit., pp. 144 - 146.;
برنتن، أفكار ورجال، قصة الفكر الغربى، ص ٢٢٤.

ثم قصة هدايته وتوبته إلى الله في وضوح. أما أعظم مؤلفاته أهمية كتابه الآخر «مدينة الله» De Civitate Dei، الذي شرع في كتابته سنة ٤١٣م، وانتهى منه سنة ٤٢٦ . ويعتبر هذا الكتاب فلسفة للتاريخ وصورة للأفكار اللاهوتية والسياسية، التي سيطرت على أوربا العصور الوسطى حتى عصر توما الأكويني في القرن الثالث عشر الميلادى. وقد دفعته الكارثة التي حلت بمدينة روما على يد الاريك القوطى سنة ٤١٠م إلى تأليف هذا الكتاب، فقد أذاع الوثنيون في كل مكان من الامبراطورية أن المسيحية هي سبب ما حل بالمدينة من تخريب ودمار. وأحس أوغسطين بتزعزع الثقة في قلوب الناس من جراء تلك الكارثة، فذكر أن ما حل بروما لم يكن إلا عقاباً لها على ما إرتكبته من آثام وشرور كامنة في ثنايا الآلهة الوثنية وتقاليدها . ولم يجد صعوبة في إثبات أن كثيراً من المدن والأمبراطوريات قد انحلت وسقطت قبل مجيء المسيحية بزمن طويل. وقد ذكر أوغسطس في كتابه أن هناك مدينتين موجودتين معاً : مدينة الأرض ومدينة الله، الأولى من صنع البشر تفنى كما يفنى جسم الإنسان، أما مدينة الله فإنها أبدية تدوم مع الروح، وإذا جاز أن تتحطم مدينة الإنسان المبنية على القوة المادية، فإن مدينة الله لاتزال بخير؛ أضف إلى هذا أن مدينة الله قد نشأت بخلق الملائكة، على حين أن المدينة الأرضية قد قامت بعصيانه، وفى وسع الكنيسة أن تكون هي بعينها مدينة الله. وتجدر الإشارة إلى أن البابوية اعتمدت على كتاب مدينة الله في إبراز تفوق مدينة الله – أى الكنيسة وعلى رأسها البابا –، على المدينة الأرضية – أى الدولة وعلى رأسها الأمبراطور –؛ وهكذا قرر أوغسطين مبدأ أن تكون سلطة البابا ممثل الله على الأرض ورأس الكنيسة، في منزلة أعلى من تلك التي يتمتع بها الأمبراطور وهو الحاكم العلماني، الأمر الذي يترتب عليه خضوع الدولة للكنيسة[١].

---

(١) Lyon & Herbert and Hamerow, op. cit., p. 146;

هارتمان وباراكلاف، الدولة والأمبراطورية في العصور الوسطى، ص ٤٥ – ٤٦؛ برنتن، أفكار ورجال، ص ٣٦؛ هرنشو، علم التاريخ، ص ٢٧ – ٢٨.

الأريوسية والأثناسيوسية :

نشأ في المسيحية في القرن الرابع الميلادي اختلاف في وجهات النظر حول المسائل اللاهوتية، وهو أمر من الطبيعي حدوثه. والجدير بالذكر أنه عندما كان يثار جدل حول قضية ما، ويشتد ويتفاقم، ويؤدي في النهاية إلى نزاع، كان لابد من عقد مجمع من الأساقفة يقوم بدراسة موضوع الجدل ووضع الحل المنشود. وفي أثناء ذلك القرن شهدت المسيحية نزاعاً بين رجلين من رجال اللاهوت – وهما آريوس وأثناسيوس – في مدينة الأسكندرية، ترتب عليه انقسام أتباعهما إلى مجموعتين، المجموعة الأولى وهي التي تناصر آريوس أطلق عليها الآريوسية، والمجموعة الأخرى وهي التي تناصر أثناسيوس أطلق عليها الأثناسيوسية. وقد احتدم الخلاف بين الآريوسية والأثناسيوسية حول العلاقة بين الرب والمسيح، أو بين الأب والإبن، إذ نادى آريوس وكان قد بدأ حياته باعتناق الأفلاطونية المحدثة القائلة أن الله واحد لا يتجزأ، أن الابن (المسيح) أقل من الأب في الجوهر، ووضعه بين بقية المخلوقات، حقيقة قال بسمو هذا المخلوق، ولكنه وضعه بين سائر البشر، وأقرت الآريوسية أن المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن، أى أن وجود المسيح لاحقاً للإله في الزمن وتابعاً منه، أو أدنى من الإله الأب بشكل ما؛ بيد أن الأثناسيوسية رفضت هذا الرأى قائلة أن الأب والابن من جوهر واحد أو مادة واحدة Homoousios. وهنا نلاحظ أن الآريوسية التى تميل إلى التوحيد في كثير من نواحيه، اهتمت في المقام الأول بمخاطبة عقول المثقفين وإقناعهم، على حين وجهت الأثناسيوسية جل اهتمامها تجاه الغالبية العظمى من البسطاء. وبعبارة أخرى، استهدفت الآريوسية جعل العقيدة منطقية تتجاوب مع العقل، أما الأثناسيوسية فهدفها نابع من المشاعر والأحاسيس العاطفية التى احتلت المكانة الأولى في نظرها. وعندما اشتد الجدل والنزاع بين الجانبين حول هذه المسألة، دعا الأمبراطور قنسطنطين العظيم إلى عقد مجمع في مدينة نيقية في غرب آسيا الصغرى للبت في هذه المسألة. وكان أن عقد المجمع المسكوني الأول في ٢٠ مايو سنة ٣٢٥ برئاسة الأمبراطور لمناقشة تعاليم آريوس وأثناسيوس، حضره جمع

هائل من الأساقفة بلغ عددهم حوالى ٢٧٥ أسقفاً، فضلاً عن عدد كبير من رجال الدين أقل درجة. وفى هذا المجمع عرض كل فريق آراءه ووجهة نظره، وبعد نقاش طويل تجلت فيه مقدرة أثناسيوس وبلاغته، انتهى المجمع إلى رفض آراء أريوس ونفيه إلى تربيه فى بلاد الغال وإدانة أنصاره بالهرطقة[١].

غير أن النزاع بين الأريوسية والأثناسيوسية لم يقف عند هذا الحد، فقد شرع قنسطنطيوس – ابن قنسطنطين وخليفته – يبحث بنفسه أبوة المسيح، حتى انتهى رأيه إلى اعتناق مذهب أريوس، وما لبث بعد أن نجح فى توحيد الامبراطورية، واستقرت له الأمور سنة ٣٥٣م، أن قرر طرد أثناسيوس من كرسى الاسكندرية، وإطلاق سراح أريوس من منفاه، ورجوعه إلى الاسكندرية[٢]. غير أن أثناسيوس ذلك الرجل الذى يرجع إليه معظم الفضل فى استمساك الكنيسة بعقيدة التثليث Trinitarian doctorine، لم يركن إلى الكسل بعد تقاعده الاضطرارى، فقد دأب على كتابة بعض المؤلفات التى تبحث فى اللاهوت المسيحى، كما أنه لم يلق بسلاحه فى وهدة اليأس، إذ رجع إلى الأسكندرية فى عام ٣٦٢، ودعا إلى عقد مجمع أقر الاعتراف بعقيدة نيقية القائلة بأن جوهر المسيح مساو لجوهر الله، وبموجبه عاد إلى مقر أسقفيته وسط مظاهر الفرح والتهليل؛ ولكن الامبراطور جوليان المرتد الذى كان يبغض المسيحية والمسيحيين جميعاً ويخص أثناسيوس بكراهية خاصة، أبدى دهشته من الجرأة التى مكنت أثناسيوس من العودة إلى الأسكندرية دون أخذ رأى الامبراطور، ولذلك استنكر تصرفه، وأمر بإبعاده عن منصبه ونفيه من مصر فى أكتوبر سنة ٣٦٢م[٣]. وبعد أن توفى جوليان فى العام التالى (٣٦٣) أتى جوفيان إلى عرش

---

(١) Jones, op. cit., pp. 42 - 43; Painter, op. cit., pp. 16 - 17.

أما لفظة «الهرطقة» فهى كلمة يونانية الأصل معناها الرأى المستقل أو الاجتهاد الفردى، وقد استخدمتها الكنيسة لدمغ المخالفين لرأى الكنيسة، وما اتفق عليه فى المجامع الكنسية المبكرة.

(٢) Jones, op. cit., p. 54; Wand, op. cit., pp. 171 - 172; Piganiol (André), L'Empire Chrétien, (Paris, 1947), pp. 94 - 95.

(٣) Wand, op. cit., p. 172; Piganiol, op. cit., p. 140;

جيبون، اضمحلال الامبراطورية الرومانية، جـ ٢، ص ٧٠ – ٧٣.

الأمبراطورية، ولم يلبث أن أعلن اعتناقه المسيحية على المذهب الأثناسيوسى، فى الوقت الذى خرج فيه أثناسيوس من عزلته عندما بلغه خبر موت چوليان، وعاد مرة أخرى إلى كرسى أسقفية الأسكندرية، وظل فى منصبه إلى أن مات فى الثمانين من عمره، بعد عشر سنوات من عودته(١).

---

(١) Wand, op. cit., pp. 173 - 174.

الفصل الثالث

المجتمع الجرماني وعلاقته المبكرة بالامبراطورية

من المعروف أن حضارة أوربا في العصور الوسطى قامت على ثلاث قواعد هامة : أولها الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الأمبراطورية الرومانية المتأخرة، وثانيها نمو الديانة المسيحية وسرعة انتشارها، وثالثها الشعوب الجرمانية والمتبربرة(١). وقد مر بنا من قبل كيف أخذت الأحوال في الأمبراطورية الرومانية في القرنين الثالث والرابع تمر بمرحلة انتقالية كان لها بعيد الأثر في هدم صرح العالم القديم وبداية العصور الوسطى، وبمعنى آخر ظهور قيم ومبادىء جديدة، تخالف ما ألفه الناس من قبل. وقد كان من الممكن أن تبقى الأمبراطورية في الغرب الأوربي أمداً أطول رغم الانحلال الذى دب في كيانها، لولا هجمات البرابرة وغزواتهم التي أسرعت بالأمبراطورية نحو تقويض دعائمها. وقد انقسمت الشعوب المتبربرة التى كانت تهيم وراء جبهتي الراين والدانوب إلى قسمين متمايزين هما الشعوب المغولية أو الشعوب الأرالية – الألطائية والشعوب الجرمانية. وقد جاءت الشعوب المغولية أصلاً من مناطق الاستبس في أواسط آسيا الممتدة من جبال أورال حتى جبال ألطاى، واشتملت على العديد من الجماعات مثل السكيثيين، والسارماتيين، والهون، والبلغار، والآفار، والمجريين، والمغول، والأتراك؛ وهم أقوام بدو رحل، لا يعرفون الزراعة، عاشوا على رعي الخيول وتربيتها، يتنقلون من مكان إلى آخر سعياً وراء العشب والكلأ. أما الشعوب الجرمانية فموطنها الأصلي شبه جزيرة اسكندناوه، وهي المادة البشرية التي شكلت أوربا الحديثة، ويختلف الجرمان عن الشعوب المتبربرة المغولية في أنهم عرفوا الزراعة ومارسوها(٢). ومما يجدر ذكره أن الشعوب الجرمانية قد نهضت بدور بارز في مصير القارة الأوربية في القرن الخامس الميلادي، بسبب الهجرات والغزوات التي قامت بها، والتي انتهت إلى تأسيس ممالك جديدة غيرت معالم الأمبراطورية الرومانية في الغرب الأوربي، على حين

---

(١) Hoyt (Robert S.) & Chodorow (Stanley), Europe in the Middle Ages., (U.S.A., 1976), p. 55.

(٢) Stephenson, Mediaeval Europe., p. 48.

أن هجرات الشعوب المغولية وغزواتها لم تؤد إلى استقرار دائم ذى أهمية فى أراضى الامبراطورية(١).

وتنقسم الشعوب الجرمانية بدورها إلى مجموعتين عظيمتين، يؤكد كل منها الوضع الجغرافى : مجموعة الشعوب الجرمانية الشمالية والشرقية، ومجموعة الشعوب الجرمانية الغربية. فالشماليون هم الذين فضلوا البقاء فى شبه جزيرة اسكندناوه وما حولها، حيث تفرعت عنهم الأمم السويدية والنرويجية والدانية الحالية، وتمتد مساكن الشرقيين بين الإلب والفستولا وسواحل البحر الأسود، على حين امتدت مساكن الغربيين بين الإلب والراين. وقد تألفت مجموعة الشعوب الجرمانية الغربية من قبائل وجماعات عديدة لعبت دوراً هاماً فى أحداث أوربا العصور الوسطى مثل الكمبرى، والتيوتون، والشيروسكى، والشاتى، والماركومانى، والكوادى، والسويفى، والثورنجيين، والجوتنج، والأليمانى. كذلك اشتملت مجموعة الشعوب الجرمانية الشرقية على قبائل وجماعات عديدة لعبت نفس الدور فى أحداث أوربا مثل الوندال، والبرجنديين، والقوط، والجيبيداى، واللومبارديين، والسكيريين، والهيرولى(٢).

وينبغى القول أن لفظة البربرية التى أطلقها الرومان على الشعوب المستقرة فيما وراء الراين والدانوب، لا يقصد بها الوحشية أو الهمجية بأى حال من الأحوال، بل أية مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى الذى لم يبلغ مرحلة التنظيم الراقى الناجم عن الاستقرار المدنى والدولة ذات الحدود الإقليمية المعنية، وبمعنى آخر المقصود به حضارة القبيلة تمييزاً لها عن حضارة المدينة(٣). وقد استعار

---

(١) Deanesly (Margaret), A Hist. of Early Medieval Europe. From 476 to 911., (London, 1960), p. 19.

(٢) Lot (F.), Les Invasions Germaniques., (Paris, 1935), pp. 30-32; Piganiol, L'Empire Chrétien. 325 - 395, p. 13.

(٣) دوسن، تكوين أوربا، ص ٨٢.

الرومان كلمة بربري barbarian من الإغريق، الذين أطلقوها – على عادتهم – على كل الأجانب، ولو كانوا في مثل حضارتهم وثقافتهم(١).

ويرجع الفضل فيما وصل إلينا من معلومات عن الجرمان إلى علم الآثار وكتابات المعاصرين. فالأدوات التى استخدموها، والكنوز التى دفنت معهم أو فقدت منهم مصادفة، كشفت عنها الحفريات فى العصور الحديثة. أما كتابات المعاصرين فقد أعطانا يوليوس قيصر وتاكيتوس عنها وصفاً مبكراً لحياة الجرمان وعاداتهم. وحول ما كتبه يوليوس قيصر (١٠١ – ٤٤ق.م) تكشف عنه «مذكرات فى الحرب الغالية» Commentarii de Bello Gallico وهى عن سياسته وحملاته فى إقليم الغال (فرنسا الحالية). وقد تضمنت تلك المذكرات وصفاً موجزاً عن أصل سلالات الجرمان وثقافتهم؛ أما كتابات تاكيتوس عن الجرمان، فهى أعظم الكتابات التى عرفها العالم الرومانى أهمية(٢).

رسم المؤرخ كورنيليوس تاكيتوس Conelius Tacitus صورة رائعة عن حياة الشعوب الجرمانية وعاداتها وتقاليدها فى كتابه «جرمانيا» Germania واسمه كاملاً «بحث فى أصل الشعوب الجرمانية ووطنها وطرق معيشتها» De Origine, moribus et populis Germaniae، ولد حوالى عام ٥٤ أو ٥٥م على الراجح، وتثقف بالثقافة الرومانية العالية، وكان زوجاً لإبنة أجريكولا Agricola القائد الرومانى الشهير فاتح شمال بريطانيا، وتدرج فى سلك الوظائف التى يشغلها أعضاء مجلس السناتو. وفى عام ٩٨م (ارتقى إلى منصب

---

(١) Cantor (Norman E.), Medieval Hist. The Life and Death of a Civilization., (U.S.A., 1969), p. 105.

من الواضح أن اليونان والرومان حين أطلقوا على الشعوب الجرمانية لفظة برابرة barbari لم يكونوا يقصدون بذلك الثناء عليهم. وأكبر الظن أن هذا اللفظ يقابل لفظ فرفار Varvar فى اللغة السنسكريتية، ومعناه اللفظ الجافى غير المثقف، وهو شديد الصلة أيضاً بلفظ بربر berber.

(٢) Taylor (Henry Obsorn), The Mediaeval Mind., Vol. I (London, 1936), pp. 138 - 139.; Copeland (W.O.L.), The Germanic Invaders., pp. 2211 - 2212.

عبد اللطيف أحمد على، مصادر التاريخ الرومانى، ص ٢١ – ٢٢.

قنصل Consul ثم شغل وظيفة البروقنصل Pro-Consule، وبهذا اللقب عين حاكماً لولاية آسيا (الصغرى) عام ١١٢م، ومن المعروف أنه كان كثير التردد على البلاط الامبراطوري، وصديقاً حميماً لبليني الصغير الخطيب المفوه المرموق، وظلت الصداقة تربط بينهما طوال حياتهما(١).

ألف تاكيتوس كتابه زمن الأمبراطور تراجان (٩٨ – ١١٧)، وهو أعظم وصف قام به مؤرخ قديم، تناول حياة الجرمان. والجدير بالذكر أن تاكيتوس لم يزر الجرمان في مناطقهم الأصلية على حدود الأمبراطورية، ولكن بوصفه من الطبقة الأرستقراطية، كان باستطاعته التحدث مع الجند العائدين من الجبهة، والاطلاع في حرية على الوثائق الحكومية. وقد وضع كتابه بهدف عقد مقارنة بين البساطة المثالية في المجتمع الجرماني التي ذكرته بفضائل روما القديمة من ناحية، والتدهور والانحطاط الذي وصل إليه المجتمع الروماني من ناحية أخرى، وحث مواطنيه الرومان على أن ينهجوا نهج الفضائل الجرمانية، وأن ينفضوا ماعلق بحياتهم من مظاهر الانحلال والترف من ناحية ثالثة(٢).

ويذكر تاكيتوس في كتابه أن موطن الجرمان يحيط به المحيط من الشمال، ويفصله عن بلاد الغال نهر الراين والدانوب، وتفصله عن سرماتيا Sarmatia وداكيا Dacia سلسلة جبال وعرة (سلسلة جبال الكربات). وموطن الجرمان أو جرمانيا – كما وصفها تاكيتوس – بلاد كئيبة، ذات مسالك وعرة، ومناخ بالغ القسوة، لاتبعث السرور في النفس. ويرى أن القبائل الجرمانية تتميز بعنصرها النقي، الذي لم يخالطه دماء غيرهم من الشعوب الأخرى، ويتصف أفرادها بصفات جثمانية معينة : عيون زرقاء حادة لامعة، وشعر أصهب، وقامة طويلة ضخمة. غير أن الجرمان أقل قدرة على تحمل العمل اليدوي الشاق، وأقل

---

(١) Church (A.J.) & Brodribbe (T.), The Complete Works of Tacitus., (New York, 1942), pp. ix - x ;

إبراهيم طرخان، تاكيتوس والشعوب الجرمانية، ص ١١ – ١٥؛ شرنشو، علم التاريخ، ص ٢٤ – ٢٥.

(٢) Cantor, op. cit., p. 108.

الشعوب احتمالاً للعطش والحر، أما البرد والجوع فقد تمرسوا عليهما، نتيجة مناخ وتربة بلادهم(١).

وأرض الجرمان بشكل عام مليئة بالغابات والأحراش، معرضة للرياح الشديدة، تغطيها المستنقعات، وهي وإن كانت صالحة لزراعة الحبوب، إلا أنها لاتصلح لأشجار الفاكهة، ومواشيها ضئيلة الحجم، وفيرة الأعداد، مفتقرة إلى الجمال. ولم يهتم الجرمان بحيازة الذهب والفضة إلا قليلاً، ويمكننا أن نرى لديهم أوان فضية، وهذه قدمت هدايا إلى سفرائهم وزعمائهم. وهنا نلاحظ أن سكان الحدود من الجرمان هم الذين عنوا بالذهب والفضة لفائدتهما التجارية، أما أولئك الذين ظلوا بعيداً عن الحدود الرومانية، فقد داوموا على استخدام نظام المقايضة البسيطة في معاملاتهم(٢).

أما ديانة الجرمان، فكانت خليطاً من الأساطير وعبادة قوى الطبيعة ومظاهرها، مثل الكواكب والنجوم والشمس والرعد والبرق وغيرها. والإله الرئيسي الذي عبدوه هو عطارد Mercurus، وفي أيام معينة من السنة كانت القرابين تقدم إليه، حتى من الضحايا البشرية، أما هرقل Hercules ومارس Mars فكانت القرابين تقدم لهما من الحيوانات عادة. وهناك البعض من قبيلة السويفي Suevi كان يقدم القرابين إلى الإلهة إيزيس. ولم يحدث أن شيد الجرمان معابد خاصة لآلهتهم، إذ كانوا يرون أنه من السخف أن تظل الآلهة حبيسة بين الجدران، أو أن تمثل بأي شكل يشبه الصورة البشرية(٣). واعتقد الجرمان في الحياة الأخرى، ومن ثم نشأت لديهم عقيدة الأطياف. ولما كان الإله فودان Wodan ينتقي من الأرواح من يدخل في نعيم العالم السفلي، كان على بقية الأرواح أن تظل هائمة على الأرض، تنشر بين الناس الذعر والرهبة، ولاتزال

---

(١) Church & Brodribbe, op. cit., pp. 709 - 710; Tacitus, A treatise on the Situation, Manners and Inhabitants of Germany., (U.S.A., 1977), pp. 247 - 248.

(٢) Tacitus., p. 249.; Church & Brodribbe, op. cit., pp. 710 - 711.

(٣) Tacitus., p. 251; Church & Brodribbe, op. cit., p. 713.

هذه النظرة تتمثل فى حكايات الجان والأشباح والحوريات والغيلان والسعلاة(١). وهم أكثر الناس اعتقاداً فى الفأل والطيرة، ويعتقدون مع الشعوب الأخرى فى التفاؤل بأصوات الخيل. وثمة طريقة للتنبؤ بمصير الحروب الدائرة بينهم وبين أعدائهم، وهى أنهم يحاولون القيام بأسر واحد من القبيلة التى هم فى حرب معها، فإذا نجحوا أجبروه على مبارزة واحد اختاروه من بينهم، على أن يحمل كل مبارز سلاح قبيلته، ويقبل انتصار أحدهما على الآخر، نذيراً بنتيجة الحرب الدائرة بين الطرفين(٢).

ومن المعروف أن الجرمان لم يقطنوا المدن فى أيامهم الأولى، ولم يشيدوا بيوتهم مجاورة لبعضها البعض، ولكنهم عاشوا مبعثرين ومتفرقين، حول نبع أو فى غابة، فى أكواخ مشيدة من الكتل الخشبية والطمى من غير تهذيب أو إصلاح. كذلك عنوا بحفر الكهوف فى باطن الأرض، وحرصوا على إخفاء معالمها بتغطيتها بأكوام من المهملات، لاستغلالها فى تخزين حبوبهم ومحاصيلهم، فلا يستطيع العدو الوصول إليها إذا تعرضوا لهجوم شديد، بالإضافة إلى أنهم لجئوا إليها فى فصل الشتاء فراراً من قسوة البرد الشديد. واعتاد الجرمان أن يرتدوا ملابس بسيطة من جلود الحيوانات المفترسة، وهنا نلاحظ أن زى النساء لايختلف عن الرجال، فيما عدا لباسهن الداخلى الذى يصنع من التيل، وخلو السترة الخارجية من الأكمام، بحيث تظهر أذرعتهن عارية وكذلك جزءاً من الصدر(٣). وشرابهم كانوا يصنعونه من الشعير أو القمح، أما النبيذ فلم يستطع الحصول عليه غير الجرمان المقيمين على الحدود الرومانية، وعرف عنهم الميل إلى الشراب حتى الثمالة، حتى أنه صار من السهولة إيقاع الهزيمة بهم، إذا أسرفوا فى الشراب. وكان طعامهم بسيطاً يتألف من الفاكهة الطبيعية واللبن ولحوم الصيد(٤).

---

(١) على الغمراوى، ملحمة البطولة الجرمانية، ص ٧ – ٨.

(٢) Church & Brodribbe, op. cit., pp. 713 - 714.

(٣) Copeland, The Germanic Invaders., p. 2222.; Tacitus., pp. 256 - 257; Church & Brodribbe, op. cit., pp. 716 - 717.

(٤) Tacitus, p. 257; Church & Brodribbe, op. cit., p. 720.

وقد انقسم الجرمان من حيث البناء الاجتماعي إلى أحرار وعبيد، ولم يزاول الأحرار من حملة السلاح شيئاً من ألوان الحياة المادية، مثل الاشتغال بالزراعة أو التجارة، وإنما قضوا كل وقتهم في الحرب أو التدريب على حمل السلاح. أما الأقنان والعبيد فقد اقتصر عملهم على الاشتغال بالزراعة. ويسود بعض الاعتقاد بوجود شكلين من أشكال الزراعة القروية، الأول يعتمد على العبيد، والآخر قام به أحرار لا يخضعون لزعامة حربية. وأرض القرية الصالحة للزراعة كانت مقسمة إلى قسمين على مدار العام، قسم يزرع، والآخر يترك كي تستعيد الأرض خصوبتها. وفي مجتمع القرية الزراعي قسمت الأرض الصالحة للزراعة بين الأسر، وتركت أراضي المراعي والغابات مشاعاً[١].

أما الجماعات الجرمانية المقيمة بالقرب من السواحل، فقد احترفت التجارة أحياناً، وركوب البحر، والاشتغال بالقرصنة، وهي كلها أمور ارتبطت إذ ذاك بالحرب، وولدت في النفس الشجاعة والحرية[٢]. ومن المشاهد أن الأرقاء لم يزاولوا الأعمال المنزلية في بيوت السادة كما هو الشأن عند الرومان، فهذه مهمة زوجة السيد وأطفاله، ولكن العبد التزم بأن يقدم لسيده قدراً معيناً من الحبوب، وعدداً من الماشية، وكسية من الملابس. وكان للسيد الحق في ضرب عبده وتسخيره في الأعمال القهرية، وقد يقتله في ثورة الغضب والانفعال كما يقتل أحد أعدائه، وفي مثل هذه الحالة لا يدفع السيد تعويضاً أو دية[٣].

والحياة القبلية من الخصائص الرئيسية في المجتمع الجرماني. وهنا نلاحظ أن أسماء مثل «الفرنجة» و «السكسون» وغيرها، لا تعني قبائل معينة، ولكنها تعني مجموعة من القبائل متشابهة في لغتها وتقاليدها وعاداتها. إذ من المحتمل أن الشعوب الجرمانية قبل أن تبدأ هجراتها من مواطنها الأصلية اختلفت كل مجموعة منها عن الأخرى اختلافاً بيناً، سواء في اللغة أو العادات نتيجة انعزالها

---

(١) Tacitus, pp. 256 - 257; Painter, A Hist. of the Middle Ages., pp. 23 - 24.

(٢) إبراهيم العدوي، المجتمع الأوربي في العصر الوسيط، ص ٥٧.

(٣) Church & Brodribbe, op. cit., p. 721.

خلال تجوالها، مما أدى إلى تطوير لغتها وخصائصها الثقافية من ناحية، وتعديل أسلوبها في الحياة في المنطقة التي استقرت فيها من ناحية أخرى. ولهذا كله نشأت اختلافات واضحة بين مختلف الشعوب الجرمانية[١]. وقد عاشت القبيلة عيشة صاخبة، لها رئيس يحيط به زمرة من رفاقه في الحروب، ولكل قبيلة مجلس خاص يتألف من القادرين على حمل السلاح، فإذا جد أمر اجتمع كافة الأحرار وتدارسوه، إلى أن ينتهوا إلى قرار بشأنه. ومن المعروف أن الجرمان أولعوا بالحرب والمغامرات الحربية، وبمعنى آخر كانت الحرب شاغلهم الأول. وسلاحهم المفضل هو الحربة المعروفة باسم Framea ذات الرأس القصير التي لا يزيد طولها عن ستة أقدام، وهي سهلة الاستخدام سواء عند الالتحام في المعركة أو للقذف من بعد، كذلك لم يرتد المحارب صدرة مزردة تحمي جسمه، ولكنه حمل في يده درعاً زينها بألوان منتقاة. وينبغي القول هنا أن حفريات القبور أثبتت صحة ما جاء به تاكيتوس حول الأسلحة التي استخدمها الجرمان. ولما كانت خيولهم لاتتميز بالسرعة ولا بالرشاقة، فقد تركزت قوتهم في فرق الرجالة، التي كانت تحارب جنباً إلى جنب مع الفرسان؛ ودربوا على حمل جثث قتلاهم في المعركة حتى قبل أن يتحدد مصيرها، ومهما كانت خطورة الموقف. ومن العار أن يتخلى المحارب عن درعه ويفر من المعركة، إذ يعتبر الجبن من أحط الجرائم التي تشينه، ومن يثبت عليه ذلك يحرم من حضور الطقوس الدينية المقدسة، ولا يحق له الاشتراك في مجلس الجرمان العام، ولذلك فضل الكثير ممن لاذوا بالفرار من المعركة، التخلص من حياتهم بالانتحار[٢]. ولاجدال أن كثيراً من العشائر الجرمانية تناولتها يد التغيير خلال الفترة الواقعة بين عصر تاكيتوس والقرن الخامس الميلادي، بسبب وفيات زعمائها وأبطالها، أو سقوطهم صرعى في ساحات الوغى، ولذلك اختفت أسماء قبائل ترجع إلى زمن مبكر، في الوقت الذي

---

(١) Painter, op. cit., p. 20.

(٢) Tacitus, pp. 256 - 257.; Church & Brodribbe, op. cit., pp. 711 - 712; Copeland, op. cit., pp. 2217 - 2218.

أعيد فيه تشكيل قبائل أخرى[١]. ومن الجرمان من انخرط كجنود مرتزقة فى الجيوش الرومانية، ووصل العديد منهم إلى ضباط وقواد أصحاب رتب عالية، ومنهم من جرى تجنيده فى الحرس الأمبراطورى، وفى كثير من الأحيان دأبت الأمبراطورية على استئجار جماعات جرمانية تحت أمرة قائدها الدفاع عن حدودها[٢].

ويتضح جوهر التنظيم السياسى الجرمانى فى أن زعيم القبيلة، فضلاً عن الأعباء الملقاة عليه وقت السلم، كانت مهمته الأولى قيادة الحروب، فهو الذى يضع الخطط الحربية ومشاريعها، ويوجه النداء إلى المحاربين الشجعان الباحثين عن المغامرة، وعليهم أداء اليمين بالطاعة والولاء، وفى مقابل ذلك يمدهم بالأسلحة والطعام، والحصول على أنصبة من الغنائم[٣]. وقد آمن المجتمع الجرمانى بمبدأ المشورة فى تصريف أموره مهما قل شأنها. فبالنسبة للأمور الصغيرة التى تحتاج إلى حل سريع، اقتصر الأمر على اجتماع يحضره زعماء العشائر للتشاور، أما فيما يتعلق بالأمور الخطيرة، كان لابد أن يجتمع الشعب الجرمانى كله كى يأخذ ما يصلون إليه من قرار صفة الإجماع. وقد جرى عند اجتماع القبيلة أن يأتى أفرادها مسلحين، فإذا ما اكتمل عدد الحاضرين، جلسوا صامتين، وآذانهم صاغية لما يقدمه زعيمهم من اقتراح، فإذا لم يوافقوا على اقتراحه أخذوا يزمجرون ويهمهمون بألفاظ مبهمة دلالة على الرفض، أما إذا لقى الاقتراح القبول والاستحسان لديهم، فإنهم يعبرون عن ذلك بضرب الحراب بعضها ببعض[٤]. ومن الواضح أن الملوك أو الزعماء كانوا لا يرثون العرش، وإنما يتم انتخابهم على أساس النبالة، أما القادة الحربيون فلا يقع الاختيار على أحدهم إلا إذا توافرت فيه الكفاءة والمقدرة، وكان باستطاعة أى زعيم حكم مدة

---

(١) Taylor, op. cit., Vol. I., pp. 139 - 140;
قشر، تاريخ أوربا العصور الوسطى، جـ ١، ص ٢٠.

(٢) Jones, op. cit., p. 71.

(٣) Painter, op. cit., p. 22.

(٤) Tacitus, pp. 251 - 252.

طويلة أو أحرز نصراً عسكرياً عظيماً أن يكون أسرة ملكية، ولكن التعاقب على العرش ليس ميراثاً يرثه الأبناء عن الآباء، فعند موت الملك يجتمع الزعماء، وينتخبون أحد أعضاء الأسرة الملكية الجديد بالعرش، وهذا يعني أن يكون أفضل محارب[١]. وقد بقي حق الشعب الجرماني في انتخاب الملك أو اختياره، تقليداً سياسياً قوياً في العصور الوسطى دام عدة قرون، لاسيما في الدول التي ظلت فيها النظم الجرمانية ذات تأثير ونفوذ؛ فكان انتخاب الملك معمولاً به في انجلترا في أواخر القرن التاسع الميلادي في حالة رفع الملك الفرد Alfred الشهير إلى عرش انجلترا، وحتى لغاية سنة ١١٩٩م عندما دان الملك يوحنا John بعرشه للمبدأ الانتخابي[٢].

وكان يتم تصريف شئون العدالة في محاكم شعبية للبت فيها، فأمام مجلس القبيلة العام كان من حق أي مواطن جرماني أن يرفع دعواه. وهنا لابد أن يمثل المتهم أمام المحكمة، فإذا لم يأت تعلن المحكمة إدانته، ويتم الاقتصاص منه، أما إذا ظهر المتهم أمام المحكمة، فعليه تقديم الدليل بإحضار عدد من الرجال يقسمون على براءته، فإذا لم يستطع إثبات براءته عليه أن يدفع للمدعي عليه مبلغاً من المال يختلف حسب طبيعة الجريمة التي ارتكبها[٣]. وتختلف أنواع العقوبة حسب نوع الجريمة، فالجبناء والهاربون من ميدان القتال يعاقبون علانية بالشنق على الأشجار، حتى يكونوا عبرة ودرساً للغير، أما الذين أتوا أعمالاً سيئة لا تليق بالمجتمع الجرماني وتقاليده، فأولئك يدفنون أحياء في الطين أو في مستنقع مغطى بسياج، دلالة على خسة الجرم وفظاعته، وحتى لا يراهم أحد[٤].

وفي المجتمع الجرماني قدر للمرأة الجرمانية أن تلعب دوراً بعيد الأثر، لاسيما في الحروب. فمن تقاليدهم المعروفة أن الجيش إذا انسحب من المعركة، أو

---

(١) Ibid., p. 205.

(٢) Cantor, op. cit., p. 112.; Painter, op. cit., p. 23.

(٣) Painter, op. cit., p. 22.

(٤) Church & Brodribbe, op. cit., pp. 714 - 715.

لاحت الهزيمة في الأفق، اعترضت النساء – خاصة العذارى – طريق المحاربين المتقهقرين بكشف صدورهن، ليدرك الرجال مدى ما يلحق بهم من عار، إذا وقعت نساؤهم فى ذل الأسر. ومن المسلم به أن وجود الأمهات والزوجات على مقربة من رحى المعارك الدائرة، جعلهن لا يبدين أى مخاوف من مشاهدة الجروح والدماء السائلة من جهة، وحملهن على بث الشجاعة في قلوب المحاربين وتقديم الطعام والخدمات لهم من جهة أخرى. وقدر الجرمانى للمرأة مكانتها، وعرف باحترامه ورعايته لها، واعتقد فى أن للنساء إلهاماً وقدسية خاصة، ومن ثم التمس نصيحتهن، ولم ير بأساً من العمل بآرائهن، ولكن بعيداً عن الإطراء الخارج عن الحد المألوف، الذى يجعل منهن آلهة(١).

وتوضح قوانين الزواج عند الجرمان مدى التناقض البالغ بينهم وبين الرومان. وقد نالت تلك القوانين التى اتسمت بالصرامة إعجاب المؤرخ تاكيتوس، ويكمن ذلك الإعجاب فى أن الجرمانى كان يقنع بزوجة واحدة، والقليل النادر من خرج على تلك القاعدة، الأمر الذى جعل للمرأة الجرمانية – كما أسلفنا القول – مكانة مرموقة فى المجتمع. وجرت العادة أن الزوج هو الذى يدفع الدوطة للزوجة، ويتفق والدا العروس وأقاربها على الهدايا التى يتبادلها الزوجان، وهى هدايا تثير دهشتنا، فهدية الزوج عبارة عن ثور وجواد مطهم ودرع ورمح وسيف، من الطبيعى أنها ليست من النوع الذى يرضى الذوق الأنثوى أو يصلح لزينة العروس، أما هدية العروس لزوجها فهى بعض الأسلحة؛ وتدل تلك الهدايا على أن الرابطة القوية التى تربط بين الزوجين كانت تقوم أساساً على الحروب من ناحية، وحتى تضع المرأة الجرمانية فى حسبانها أنها ليست معفاة من المهام الحربية ومتاعبها من ناحية أخرى. وعلاوة على ذلك جرى أن تقسم العروس فى حفل عقد القران على مشاركة زوجها فى السراء والضراء(٢). ومما يدعو إلى الإعجاب أن الجرمانيات عشن حياة الطهارة والعفة، ولم يعرفن الخلاعة والفجور، وكان من

---

(١) Taylor, op. cit., Vol. I., p. 139.

(٢) Tacitus, p. 254.

النادر أن تقوم إمرأة جرمانية بارتكاب الخطيئة وسط مجتمع لم يرحم من تجلب العار، فمن حق الزوج الذى ضلت زوجته طريق العفاف أن يعاقبها بحلق شعرها، أو يقوم بطردها من بيته، ويشهر بها فى طرقات القرية كلها، ولا ينفع الخاطئة جمالها أو شبابها أو ثروتها فى الحصول على زوج. ومن تقاليد الجرمان أنه لا يسمح بالزواج إلا للعذارى، ويعنى ذلك أن من تدنس شرفها، تنتهى آمالها وأحلامها[(١)]. ومن عادة الجرمان أيضاً الإكثار من الذرية، وهو الأمر الذى أهمله الرومان – ونعنى بذلك الطبقتين العليا والوسطى – منذ القرن الأول. ومن المؤكد أن تفوق الجرمان فى الخصب البشرى، أدى إلى تفوقهم العددى على الرومان، ولهذا عندما نشبت الحروب بين الفريقين، قدر للجرمان الانتصار[(٢)].

ومن الواضح أن الأسرة كانت العصب الأساسى للمجتمع الجرمانى، فبزواج الأبناء والبنات كانت الأسرة – بالضرورة – تنمو إلى عشيرة، يلتزم أفرادها جميعاً بواجبات تجاهها، منها الأخذ بالثأر إذا ما وجد، وتحمل الفدية المطلوبة لمن تلحق به الأضرار من أفراد العشائر الأخرى، وحق كل الأفراد فى إبداء الرأى فى مجلس العشيرة العام وتقرير إعلان الحرب. وفى أوقات الهجرة لم يكن هناك بطبيعة الحال ملكية ثابتة للأرض، ولكن عندما بدأت العشائر فى الاستقرار بعد طول تجوال، تقرر للأسرة حق الملكية فى حدود ثلث الموطن، على أن يبقى الثلثان مشاعاً للعشيرة[(٣)]. ولاريب أن بساطة المعيشة بين الجرمان خلقت بينهم روحاً من التقارب، جعلتهم بمنأى عن الحقد الاجتماعى الذى سيطر على طبقات المجتمع الرومانى، وأوجد بينها التفاوت البعيد.

وأولعت الشعوب الجرمانية بالغناء وترديد الأناشيد، لاسيما أناشيد الحرب والبطولة التى أسماها تاكيتوس «باريتوس» Baritus، وانتشرت بينهم بغرض

---

(١) Church & Brodribbe, The Complete Works of Tacitus., pp. 716 - 718; Taylor, op. cit., Vol. I., p. 139.

(٢) فشر، تاريخ أوربا العصور الوسطى، جـ ١ ص ١٩.

(٣) على الغمراوى، ملحمة البطولة الجرمانية، ص ٨.

إثارة الشجاعة فى النفوس، وإظهار القوة والبأس؛ وكان الصوت العنيف المدوى هو أحب الأصوات لديهم، ولذلك كان من عادة المحاربين وضع دروعهم أمام أفواههم كى يجعلوا الصوت أكثر قوة وارتفاعاً(١).

ومن الفضائل الحميدة التى تميز بها الجرمان خصلة الكرم التى فاقوا فيها غيرهم. فمن واجب كل مضيف أن يستقبل ضيفه مرحباً، ويقدم إليه أفضل ما لديه من أطعمة وأشربة طبقاً لإمكاناته المتاحة، وإذا حدث أن نفذ طعامه وطرق بابه ضيف، فلا يقفل بابه دونه، بل يجعل من نفسه دليلاً لضيفه، ويتوجه به إلى أقرب جار من غير دعوة أو استئذان، وعند الجار ينال الاثنان بالغ الترحيب(٢). على أن فضيلة الكرم التى كانت من شيمهم، يقابلها فى الجانب الآخر ميل شديد إلى الميسر، حتى وصل الأمر إذا خسر أحدهم فى لعبة النرد، ومن الجائز أن يقامر على حريته الشخصية التى يعتز بها، وعندئذ يصبح الخاسر عبداً للرابح دون أى ضيق أو تذمر(٣).

ذلك هو المجتمع الجرمانى الذى وصفه تاكيتوس بدافع الإعجاب الشديد به. ومما زاد من أهمية ذلك الوصف الرائع أن الوثائق الجرمانية التى كتبت بعد عهده، ولازالت باقية إلى الوقت الحاضر، أكدته ودعمته. على أنه يبدو أن تاكيتوس بالغ – إلى حد ما – فى وصف الفضائل التى يتمتع بها الجرمان، لاسيما عادات الزواج والحياة العائلية، حبا فى لفت الأنظار إلى تلك العناصر الجديدة النقية، بما تحمله من دماء فتية، بات الرومان فى أشد الحاجة إليها إذ ذاك(٤). ويبقى ثمة أسئلة هامة تلوح فى الأفق أثارت همة العديد من المؤرخين : من أين أتى أولئك الجرمان؟ وما الأسباب التى دفعتهم إلى إقتحام أبواب الأمبراطورية الرومانية؟ وما علاقتهم المبكرة بتلك الأمبراطورية؟ وكيف استطاعوا

---

(١) Church & Brodribbe, op. cit., p. 710.

(٢) Tacitus, p. 255; Church & Brodribbe, op. cit., p. 255.

(٣) Church & Brodribbe, op. cit., pp. 720 - 721.

(٤) Stephenson, op. cit., p. 51;

ابراهيم طرخان، تاكيتوس والشعوب الجرمانية، ص ٣٧.

تأسيس ممالك جديدة لهم في غرب أوربا عندما عجزت الأمبراطورية عن القيام بواجباتها ومسئولياتها؟

المعروف أن الموطن الأول للشعوب الجرمانية الغربية يقع في البلاد التي تحيط بالحافة الغربية لبحر البلطيق، فيما نطلق عليها حالياً جنوب السويد وجوتلاند Jutland، وشلزويج Schleswig، وهولشتين Holestein، والشواطيء الجنوبية لذلك البحر، فضلاً عن الجزر المتصلة به(١). ويحيط الغموض الشديد بالتاريخ المبكر للشعوب الجرمانية التي سكنت تلك المناطق منذ أزمنة سحيقة. فالمصادر الأدبية الخاصة بالجرمان لم تشف غليل الباحث، إذ أنها ضئيلة إلى حد بعيد، وكل ما نعرفه عنهم في القرون الأولى قبل الميلاد أتى عن طريق الجهود التي كشفت عنها الحفريات الأثرية كما ذكرنا من قبل. غير أن أول بيانات علمية وصلت إلينا أوردها البحار اليوناني بثياس المرسيلي Pythias Massiliensis، الذي كان قد سافر في رحلة إلى بريطانيا حوالي سنة ٣٥٠ ق.م، وواصل سفره إلى الشمال ليشاهد البلاد التي لا تغيب الشمس في صيفها، وحل بأصقاع أطلق عليها اسم «تولى» Thule، وليس من المعروف على وجه التحديد ما إذا كانت تولى هي النرويج أو أيسلندا، ويروى بثياس أنه رأى في تلك الأصقاع أقواماً جرمانية أسماهم الأنجفيونيين، يعيشون على ثمر العليق وحب الجاروس وأنواع من الفاكهة والأعشاب والعسل، ويتاجرون مع غالة وإيطاليا في الكهرمان. ويمكن القول أن الغموض بدأ ينقشع عندما بلغت الشعوب الجرمانية حدود الأمبراطورية على نهر الراين في القرن الثاني قبل الميلاد، فقبل ذلك القرن لم تكن الأمبراطورية تعرف أن خلف أعدائها القدامى وهم الكلت Celts الذين عرفهم الرومان باسم الغاليين Gauls شعباً آخر أشد عداوة، أطلقوا عليه اسم الجرمان Germani(٢).

---

(١) Deanesly, A Hist. of Early Medieval Europe., p. 29.

(٢) Lot, Les Invasions Germanique., p. 13.; Bang (Martin), "Expanion of the Teutons. (To A.D. 378)", in Camb. Med. Hist., pp. 183 - 185;

علي الغمراوي، ملحمة البطولة الجرمانية، ص ٦.

وليس من المعروف الأسباب التى أدت إلى تحرك القبائل الجرمانية من مواطنها الأصلية فيما وراء نهرى الراين والدانوب. من المحتمل أن الدافع إلى ذلك هو الأمل فى التخلص من الضغوط الشديدة التى جاءت فى مؤخرتها من أجناس أخرى أشد بربرية، أو الحروب المستمرة بين القبائل الجرمانية التى ترغم الخاسر إلى النزوح جنوباً والتجوال خلف الحدود الرومانية حتى يجد المأوى المنشود، أو التزايد فى السكان المقترن بندرة المؤن والصيد. كل تلك الأسباب يبدو أنها دفعت الجرمان إلى التحرك. وصفوة القول أن تلك الشعوب لم يكن لديها هدف أو سياسة مرسومة تسعى إلى تحقيقها، كذلك لم تقصد بداية – عند ظهورها على مسرح الأحداث – القضاء على الأمبراطورية، ولكنها عندما اقتربت من حدودها بهرت عيونها ما تتمتع به الأمبراطورية من ازدهار وتقدم ورخاء ومناخ لطيف معتدل، فآثرت بغزواتها وتجوالها السلمى، مشاركة الأمبراطورية ثرواتها وخبراتها من ناحية، وإيجاد مكان أمين للعيش بين ظهرانيها من ناحية أخرى[1].

وكان أن تحركت الشعوب الجرمانية، لاسيما قبائل الكمبرى Cimbri والتيوتون Teutons من موطنها الأصلى فى أقصى شمال جوتلاند، وبعد أن شقت طريقها إلى وادى الدانوب الأوسط اتجهت غرباً. كل ذلك وروما لا تعلم شيئاً عما تقوم به تلك القبائل من تحركات وراء حدودها، إلى أن أتت سنة ١١٣ ق.م، وعندئذ بدأت روما تستيقظ من سباتها، وتعرف من هم الجرمان وتقدر خطرهم. ذلك أنه فى تلك السنة غزت قبائل الكمبرى والتيوتون أراضى التورسكى Taurisci حلفاء روما القاطنين شمالى جبال الألب بين أعالى الدراف Drave والدانوب، ولم تلبث روما أن أرسلت جيشاً لمساعدة حلفائها، ولكنه منى بهزيمة فادحة على يد تلك القبائل التى اتجهت غرباً بعدئذ نحو الراين، حيث انضمت

---

(١) Cantor, op. cit., pp. 107 - 108.; Painter, op. cit., p. 24.;
هارتمان وباراكلاف، الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى، ترجمة د. جوزيف نسيم، ص١١.

إليها قبائل التونجرين Tungrii (Tigurini) والأمبرونيس Ambrones، وفي عام ١١١ ق.م، عبرت تلك القبائل جميعاً نهر الراين إلى إقليم الغال، وهناك اشتبكت في حروب مع القوات الرومانية أظهرت ما هي عليه من قوة وبأس، بدليل أنها طلبت أرضاً داخل الحدود الرومانية للإقامة فيها، ولكن السلطات الرومانية أجابت بالرفض. ثم توالت هزائم القوات الرومانية، ففي عام ١٠٩ق.م ألحق الكمبرى هزيمة قاسية بها، بيد أنهم فشلوا في استغلال موقفهم كغالبين بعدئذ؛ وظهر خطر الكمبرى والتيوتون مرة أخرى عندما زحفوا أسفل وادي الرون، وهناك تحرك جيشان رومانيان ضخمان لمقابلتهما، بيد أن الضغائن التي كانت تحكم العلاقة بين قائدى الجيش، فضلاً عما تشب بينهما من نزاع، مكنت القبائل الجرمانية من تحطيم الجيش وإلحاق كارثة بهما في معركة رهيبة بالقرب من منطقة الأورانج Orange في عام ١٠٥ق.م، راح ضحيتها حوالى ٢٠.٠٠٠ ألف روماني، الأمر الذي جعلها من أفدح الكوارث التي لحقت بالرومان طوال تاريخهم، ولو حدث أن قبائل الكمبرى والتيوتون تابعت زحفها على إيطاليا آنذاك، لما استطاعت قوة أن تصدها، ولكنها آثرت أن تحول وجهتها نحو أسبانيا، ثم مالبثت أن غادرتها راجعة إلى بلاد الغال بعد ذلك بثلاث سنوات (١٠٢ق.م)(١).

وكان أن عقدت روما العزم على مسح العار الذي لحق بها من جراء الهزائم التي نالتها على أيدي الجرمان، فبادرت بإعادة تنظيم قواتها، وعهدت بقيادتها إلى القائد الروماني ماريوس Marius الذي استطاع إلحاق الهزيمة بالتيوتون سنة ١٠٢ق.م في موقعة ايكس Aix في بروفانس، ثم دمر قوات الكمبرى في موقعة بالقرب من فرسلاى Vercellae بإيطاليا في ٣٠ يوليو سنة ١٠١ق.م، توقفت الغزوات الجرمانية على إثرها، وترتب على ذلك أن نعمت روما بفترة هدوء وأمن(٢).

---

(١) Lot, op. cit., p. 23; Bang, op. cit., pp. 187 - 191.

(٢) Sinnigen & Boak, A Hist. of Rome to A. D. 565., pp. 179 - 181; Robinson, A Hist. of Europe., p. 232.; Bang, op. cit., p. 193..

وبعد فترة الهدوء التي زادت عن أربعين سنة، اضطرت روما أن تخرج من ذلك الهدوء، عندما قام أريوفستوس Ariovistus زعيم قبائل السويفي الجرمانية في عام ٥٨ق.م بعبور نهر الراين، ثم اجتاح بعض أراضي إقليم الغال. فبادر يوليوس قيصر الذي تسلم مهام منصبه حاكماً للغال في ذلك العام بمحاربته. ودارت بينهما معركة بالقرب من ستراسبورج Strassburg انتهت إلى هزيمة الزعيم السويفي هزيمة ساحقة ودحره إلى ما وراء نهر الراين. بيد أن قيصر لم يلبث أن عقد صلحاً مع ذلك الزعيم، وحث السناتو على قبوله صديقاً للرومان وضمه إلى طائفة الحكام الموالين لروما، ولكن أعداءه في روما استغلوا هذا الأمر واتهموه بالخيانة(١). على أنه من الإنصاف القول أن جانباً كبيراً من الفضل يرجع إلى يوليوس قيصر في أنه استطاع أن يجعل نهر الراين حداً فاصلاً بين الامبراطورية والجرمان. ومهما يكن من أمر، فقد شهدت المنطقة آنذاك ازدياد أعداد الجرمان واستقرارهم، ودأب التجار الرومان على الوصول إليهم حاملين السلع، وبذلك دخل الجرمان في مرحلة جديدة من مراحل التطور الحضاري(٢).

وفي تلك الأثناء أخلد الجرمان إلى الهدوء مرة أخرى، في وقت كان من الممكن أن يستغلوا فيه الموقف الناجم عن الحرب الأهلية التي اندلع أوارها بعد اغتيال يوليوس قيصر سنة ٤٤ق.م. وجدير بالذكر أن الجرمان آنذاك رغم شجاعتهم وقوتهم، كانوا منقسمين إلى قبائل متناحرة، دأبت على محاربة بعضها بعضاً، لم تجد من يوحد بينها ويوجهها. على حين أن روما كانت على النقيض من ذلك، فلم تقف ساكنة، بدليل أنه ما إن صار أوكتافيانوس أوغسطس صاحب السيادة في روما، حتى قرر أن يضع حداً للأخطار التي تهدده من الشمال، وبمعنى آخر لم يرض بنهر الراين حداً للامبراطورية، وصمم على رد الجرمان إلى ما وراء نهر الإلب Elbe. وكان أن عهد بتلك المهمة إلى ابني زوجته دروسوس Drusus وتيبريوس، اللذين استطاعا – بمساندة الأساطيل الرومانية – إحراز

(١) Lot, op. cit., pp. 24 - 25.; Bang, op. cit., pp. 194 - 195.; Sinnigen & Boak, op. cit., pp. 212-213.

(٢) Katz, The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe., pp. 99 - 100.

النصر على الجرمان في عدة مواقع. غير أن ماروبودوس Marobodus القدير ملك الماركوماني، وهم قوم من الجرمان كانوا يقطنون منطقة بين نهري الإلب، والدانوب (وتقابل حالياً بوهيميا)، أثار القلاقل ضد الرومان آنذاك. فأرسل إليه أوغسطس بعض القواد لم يستطيعوا كسر شوكته، ومن ثم أخذ تيبريوس القائد القدير في إعداد حملة ضخمة، وبعد أن جهزها تجهيزاً تاماً سار على رأسها في عام ٦م ليصد خطر الماركوماني، غير أن قيام ثورة في منطقة بانونيا (شرق فيينا وشمال بلغراد الحالية) اضطرت تيبريوس إلى عقد اتفاقية مع الماركوماني، استقر الأمر بموجبها على الاعتراف بماروبودوس صديقاً وحليفاً للشعب الروماني. ولم تلبث قبائل الشيروسكي Cherusci والشاتي Chatti الجرمانية أن ثارت على الرومان في عام ٩م، واستطاع زعيم الشيروسكي قتل فاروس Varus القائد الروماني عند غابة تيوتوبرج Teutoburg Forest بعد أن نصب له كميناً، راح ضحيته ثلاث فرق رومانية لم تعوضها روما، لما كانت تعانيه من نقص في القوى البشرية. وفي أعقاب تلك الكارثة المفجعة تخلى الرومان عن فكرة تثبيت حدود الأمبراطورية عند نهر الإلب، وجعلوها عند الراين[1]. ومعنى هذا أن الأمبراطورية أرغمت على أن يكون الخط الأطول (الدانوب – الراين) حدوداً لها من جهة الشمال، بدلاً من الخط الأقصر (الدانوب – الإلب)، مضحية بذلك بكل الفتوحات الرومانية في شرق الراين، أي في المنطقة المحصورة بين الراين والإلب. وكان لهذه الخطوة عواقب بعيدة المدى بالنسبة لمستقبل الأمبراطورية الرومانية وأوربا بوجه عام، فالشعوب الجرمانية التي تركت وشأنها في تلك المنطقة من الأمبراطورية، كانت عاملاً من عوامل انهيارها وسقوطها في النهاية.

وبعد وفاة أوغسطس اعتلى تيبريوس عرش الأمبراطورية الرومانية (١٤–٣٧م)، فرأى أن يسير على نهج سلفه فيما يتعلق بحدود الأمبراطورية بعد كارثة فاروس، ووطد العزم على عدم التورط في أية حرب قدر الإمكان. ورغم ذلك لم يخلو عصره من حروب خارجية. ففي عامي ١٤ و١٥م كان القائد الروماني

---

(١) Simnigen & Boak, op. cit., pp. 273 - 275, Salmon, A Hist. of the Roman World., pp. 108 - 112.

العظيم جرمانيكوس Germanicus – ابن دروسوس – يقوم بمهمة عسكرية تستهدف تأكيد نفوذ الأمبراطورية على جبهة الراين بعد ما عانته من جراء هزيمة فاروس من ناحية، والقضاء على القلاقل والثورات الناشبة من قبل بعض الفرق العسكرية من ناحية أخرى، غير أن ما كان يعتمل فى ذهن جرمانيكوس من أفكار، لم يكن بإمكان الأمبراطورية إيقافها، إذ طغت على جرمانيكوس فكرة إحراز مجد عسكرى، ولذلك قام بثلاث حملات مكثفة لاستعادة الأقاليم الشمالية الغربية (بين الراين والويزر Wesser) من أيدى الجرمان. وقد أسفرت جهوده المضنية عن إحراز عدة إنتصارات كلفت الأمبراطورية الجهد والمال والأرواح، اضطرت الأمبراطور إلى إصدار أوامره باستدعاء قائده وإنهاء الحرب مع الجرمان، مع إخلاء المناطق التى استولى عليها وتثبيت حدود الأمبراطورية عند الراين[١]. وبذلك صارت جبهتا الراين والدانوب مرة أخرى حداً فاصلاً بين العالمين الرومانى والجرمانى، أو بالأحرى بين الحضارة والبربرية، حضارة الرومان وبربرية الجرمان.

واقتضى الموقف على جبهة الراين إبان عهد الامبراطور دوميتيان (٨١–٩٦م) القيام بجهود مكثفة ضد الجرمان، ذلك أن قبائل الشاتى وهى قبائل محاربة قوية الشكيمة تسكن فى غابات تاونوس Taunus، دأبت منذ عام ٦٩م على إثارة القلاقل فى جبهة الراين، ويبدو أن الموقف كان صعباً، بدليل أن الأمبراطور قاد جيشاً بنفسه فى عام ٨٢م، توجه به شمالاً، وهناك استطاع الانتصار على قبائل الشاتى، ثم عاد إلى روما سنة ٨٥م، حيث أجريت احتفالات رائعة احتفاء بعودته ظافراً. هذا وقد حرص دوميتيان على إقامة سلسلة من الحصون وأبراج المراقبة الخشبية على امتداد تلك الجبهة[٢].

(١) Lot, op. cit., p. 27; Salmon, op. cit., pp. 128 - 129; إبراهيم طرخان، تاكيتوس، ص ٣٢.

(٢) Salmon, op. cit., pp. 246 - 249.

على أن متاعب دوميتيان لم تقتصر على جبهة الراين، فقد امتدت أيضاً إلى جبهة الدانوب، ففي شمال تلك الجبهة عاشت قبائل متبربرة، بعضها كان على صلة طيبة بالأمبراطورية، مثل قبيلة الهيرموندوري Hermundure التي استقرت في المنطقة المواجهة لرائتيا Raetia، والبعض الآخر بادلها العداء، مثل قبائل الماركوماني والكوادي في بوهيميا، والسارماتيين الذين استقروا في المنطقة الممتدة بين الدانوب وثيس Theiss. أما السكيثيون الذين عاشوا في أسفل النهر، والداكيون الذين شغلوا الجزء الأكبر من المنطقة المعروفة حالياً بهنغاريا ورومانيا، فكانوا أشد تلك القبائل مراساً وأقواها. ومهما يكن من أمر، قام الداكيون بعبور الدانوب في عام ٨٥م، واجتاحوا منطقة مؤيسيا Moesia (بلغاريا الحديثة)، وعندما تصدى لهم حاكمها الروماني قتلوه. فما كان من دوميتيان إلا أن تولى قيادة الجيوش بنفسه، واشتبك معهم في عدة حروب انتهت إلى إجلاء مؤيسيا منهم، وردهم على أعقابهم إلى ماوراء نهر الدانوب. ويبدو أن الأمبراطورية أرادت أن تتخذ موقفاً حاسماً تجاه الداكيين، بدليل أنه في العام التالي (٨٦م) قام أحد قواد الأمبراطور دوميتيان بعبور نهر الدانوب، مستهدفاً القضاء عليهم في عقر دارهم، ولكنه سقط هو وجيشه في أيديهم، وحيال تلك الكارثة أخذ دوميتيان يعد عدته للانتقام من الداكيين، غير أن ثمة صعوبات قابلته وأحرجت موقفه، ففي جبهة الراين رفع أحد القواد الرومان راية العصيان والتمرد، واستطاع إقناع القوات الرومانية المعسكرة في ميتز Mainz المناداة به امبراطوراً، في الوقت الذي خرجت فيه قبائل الماركوماني والكوادي الجرمانية على الامبراطورية، وبدأت تهدد منطقة بانونيا؛ ولذلك لم يكن أمام دوميتيان بعد أن أفسدت عليه خطته، إلا التراجع عن استخدام القوة مع الداكيين، مكتفياً بعقد الصلح معهم[١].

غير أن ما وصل إليه دوميتيان بالطرق السلمية لم يرض الأمبراطور تراجان (٩٨ – ١١٧م)، فضرب باتفاقية الصلح التي عقدت مع الداكيين عرض الحائط، مفضلاً استخدام القوة على السلم. ومما يجدر ذكره أن تراجان كان واحداً من

(١) Sinnigen & Boak, op. cit., pp. 304 - 305.

أعظم الأباطرة المحاربين، فقد نشأ فى مهاد الحرب، ووافقت الحياة العسكرية ميوله، وكان له من الخبرة بالحروب ما جعلته يعمل على كسر سياسة الجمود والضعف التى انتهجتها الامبراطورية على جبهة الدانوب. ولذلك قرر عبور الدانوب والتوغل فى أراضى الجرمان بغية فتح داكيا. ولاشك أن ذلك القرار كان خطيراً للغاية، بيد أنه أعد عدته قبل أن يشرع فى تنفيذ مشروعه العسكرى، فأعاد تمهيد الطريق البرى القديم الذى شيده تيبريوس على شاطىء الدانوب الرومانى كى يسهل تحركات الجنود، وبلغ عدد الجيش الذى جهزه تحت قيادته حوالى ١٠٠,٠٠٠ جندى. والحقيقة أن تراچان رسم خطته الحربية بمهارة فائقة، إذ كان يدرك أن قوة الداكيين تتركز فى عاصمتهم الحصينة ترانسلڤانيا -Tran sylvania الواقعة فى جبال الكربات، ومن ثم لابد من الاستيلاء عليها. على أى حال، قاد تراچان جيشه الضخم عبر ممرات جبال الكربات، متغلباً على كل ما اعترضه من الصعاب، حتى وصل تاباى Tapae فى عام ١٠١م، وهناك حقق انتصاراً ساحقاً على الداكيين، بيد أنهم لم يستسلموا، ولم تنهار مقاومتهم، إذ حل فصل الشتاء، فأعاق العمليات الحربية، ولم يحسم الموقف معهم. وفى العام التالى (١٠٢م) عبر تراچان الدانوب مرة أخرى، وشق طريقه إلى ترانسلڤانيا، فوصلها بعد أن تغلب على كل مقاومة اعترضت سبيله، وأرغمها على الاستسلام، واضطر الداكيون بزعامة ملكهم ديكيبالوس Decebalus إلى الخضوع لسلام مهين، استقر الأمر بمقتضاه على اعترافهم بسيادة روما، وترك حاميات رومانية فى ترانسلڤانيا. ثم عاد تراچان إلى روما ليحتفل بانتصاراته على الداكيين، ويطلق عليه لقب الداكى Dacicus[١].

بيد أن ديكيبالوس ملك الداكيين لم يلبث أن نقض عهده، إذ رفض أن يكون تابعاً ذليلاً لروما، فجمع قواته على غفلة من الرومان فى بداية عام ١٠٥م، وانقض على الحاميات الرومانية التى تركها تراچان وراءه، فأبادها، ثم أغار على منطقة مؤيسيا. وعندما وصل الخبر بذلك إلى تراچان أسرع إلى جمع جيش ضخم قاده

(١) Salmon, op. cit., pp. 274 - 277.

بنفسه إلى داكيا، وعبر نهر الدانوب على الجسر الشهير الذي شيده المهندس السورى أبولودورس Apollodorus، وهو من أروع المنجزات الهندسية آنذاك، ثم شق طريقه إلى ترانسلفانيا للمرة الثانية، فاجتاحها وسحقها، وضمها نهائياً إلى الأمبراطورية. أما الملك الداكي فقد دفعته الكارثة التى ألمت بشعبه إلى الانتحار فى الحال سنة ١٠٦م. وحتى لا تقوم للداكيين قائمة بعد ذلك، قام تراجان بنقل الآلاف منهم إلى الجانب الجنوبى من الدانوب، وأحل محلهم مستقرين أتى بمعظمهم من الأجزاء الشرقية للأمبراطورية. وهكذا صارت داكيا ولاية تابعة للأمبراطورية، وأحد مراكز الحضارة اللاتينية فى الجزء الشمالى من الدانوب[١].

ورغم ما بذله الأباطرة الرومان من جهود لإيقاف المد الجرمانى الزاحف على حدود الأمبراطورية، إلا أن هجماتهم فى النصف الأخير من القرن الثانى قد ازدادت بشكل لم تألفه روما من قبل. ويظهر ذلك مليا على عهد الأمبراطور العظيم ماركوس أوريليوس (١٦١ – ١٨٠م)، عندما قامت قبائل الماركومانى والكوادى والسارماتيين والشاتى والوندال، بغزو الحدود الرومانية عند الدانوب الأوسط بين سنتى ١٦٧ و١٧٥م، واستولوا على نوريكيوم Noricum وبانونيا، ثم توغلوا فى شمالى إيطاليا حتى وصلوا أكويليا على رأس البحر الأدرياتى. ومن الأمور التى ساعدت تلك القبائل على اقتحام حدود الأمبراطورية آنذاك، ما كانت تعانيه الأمبراطورية من سوء الأحوال بها، لاسيما الوباء الذى فشا سريعاً فى مدينة روما والعديد من الولايات، وأدى إلى الفتك بالأهالى، حتى أقفرت بلاد كثيرة من سكانها. ولذلك اضطر الأمبراطور إلى فرض ضرائب جديدة، وأقدم على تجنيد العبيد والمصارعين ورجال الشرطة، واستأجر المرتزقة من الجرمان. ووسط تلك الظروف المريرة السيئة قاد الأمبراطور الجيوش بنفسه، واستطاع فك

---

(١) Lot, op. cit., pp. 29 - 30.; Salmon, op. cit., pp. 277 - 278; Sinnigen & Boak, op. cit., pp. 310 - 312.

الحصار عن أكويليا، وأرغم الجرمان على إخلاء الأراضي التي استولوا عليها، والارتداد بفلولهم إلى ما وراء نهر الدانوب(١).

غير أن النصر الذي حققه ماركوس أوريليوس لم يكن حاسماً، فقد ثارت القبائل الجرمانية من جديد، الأمر الذي اضطره إلى اجتياز نهر الدانوب في عام ١٧٨م، وإلحاق الهزيمة بقبائل الكوادي، وكان على وشك أن يضم إلى سيادته مناطق الكوادي والماركوماني والسارماتيين، ويجعلها ولايات تابعة للأمبراطورية، ولكن الموت عاجله(٢). وقد كان من المتوقع أن يواصل خليفته ابنه الأمبراطور كومودوس (١٨٠ – ١٩٢م) Commodus السير في نفس الاتجاه، ولكنه آثر السلامة، فعقد الصلح مع الأعداء، لكي يوفر لنفسه حرية التمتع بالملذات في روما(٢).

وينبغي التأكيد هنا أن الأمبراطورية الرومانية التي كانت قد بلغت أوج عظمتها، بدأت في الاضمحلال بوفاة ماركوس أوريليوس سنة ١٨٠م، فبعد أن ظلت قرنين من الزمان قادرة على صد الجرمان والبرابرة، نعم المواطنون خلالهما بالأمن والسلام، أخذت مظاهر الفوضى تظهر في الأمبراطورية أواخر القرن الثاني، وهوت عظمة روما في لجة الأزمات والمشاكل. وإذا ألقينا نظرة فاحصة على حدود الأمبراطورية في القرن الثالث الميلادي، لوجدنا أن الجماعات الجرمانية قد انتشرت على طول خطوط ومواقع تلك الحدود بشكل لم يعهد من قبل. صحيح أن تلك الحدود قد تعرضت منذ فجر الأمبراطورية لغزوات هنا وهناك قام بها الجرمان، إلا أن تلك الغزوات في القرن الثالث غدت بمثابة ضغوط مستمرة على طول امتدادها. ولم يكن ذلك بسبب ظهور جماعات جديدة من

(١) Sinnigen & Boak, A Hist. of Rome., p. 319.; Simons (Gerald), The Birth of Europe., (Spain, 1987), p. 25.; Cary (M.) & Scullard (H.H.), A Hist. of Rome. Third edition., (London, 1975), pp. 443-444.

(٢) Bang, "Expansion of the Teutons"., in Camb. Med. Hist.,p.200;

ديورانت، قصة الحضارة، مج ٣، جـ ٢، ص ٤٣٧؛ ددلي (رونالد. ر.)، حضارة روما، ترجمة جميل يواقيم الذهبي، فاروق فريد، مراجعة د. صقر خفاجة، (القاهرة ١٩٦٤م)، ص ٢٨٩.

الجرمان على الحدود، بل يرجع إلى النتائج المباشرة للسياسة القديمة التي سار عليها الأباطرة منذ وقت مبكر، وهي سياسة تجنيد الجرمان والمتبربرين في الجيش الروماني، التي زادت بدرجة ملحوظة في القرن الثاني، ووصلت مداها في القرن الثالث. وبذلك صارت الحدود قوة مغناطيسية أو بيئة جاذبة اجتذبت إليها الجماعات الجرمانية المحاربة الباحثة عن الثروات المادية من خلال الخدمة في الجيوش الرومانية. ومن ناحية أخرى، صار الطريق الآن ممهداً أمام تلك الجماعات الجرمانية النازحة للحصول على الكثير من الغنائم والأسلاب، لأن بعض مناطق الحدود أصبحت خالية من حامياتها، بعد أن جرى سحبها لتواجه متاعب أشعلها الجرمان في مكان آخر، أو لمشاركتها في أحداث الحروب الأهلية. ومهما يكن من أمر، فقد أخذت حدود الأمبراطورية الشمالية في القرن الثالث تعج بالشعوب البربرية المختلفة، مثل السكسون الذين شغلوا منطقة الشمال الساحلية الواقعة بين الراين والويزر، وأخذت أساطيلهم تقوم بالإغارة على شواطيء بريطانيا والغال؛ والفرنجة الذين استقروا في منطقة الراين الأدنى؛ والأليماني الذين هددوا أعالي ألمانيا ورانتيا. وإلى الشرق في جبهة الدانوب، اتخذت قبائل الماركوماني والكوادي مراكزها في أعالي الدانوب؛ أما داكيا ومؤيسيا السفلى فقد شغلها جيرانهم القدامى السارماتيون والكاربي Carpi؛ كذلك شغل الوندال جزءاً من هنغاريا، أما قبائل القوط، وهي أشد تلك القبائل خطورة، فقد شقت طريقها من البحر البلطي إلى الشاطيء الشمالي للبحر الأسود، حيث انضمت لها قبائل الهيرولي Heruli(١).

وحوالي منتصف القرن الرابع الميلادي امتدت القبائل الجرمانية بحذاء الحدود الرومانية الشمالية، من مصب نهر الراين غرباً حتى أقصى شرقي البحر الأسود، بعد أن كان انتشارها من قبل لا يتجاوز نهر الراين وحول بحر البلطيق. كذلك حدث تغيير جوهري في تنظيم القبائل الجرمانية، فالقبائل الصغيرة العديدة التي تحدث عنها يوليوس قيصر، وأسهب تاكيتوس في وصفها، نراها قد تجمعت

(١) Sinnigen & Boak, op. cit., pp. 389-390.

في شكل تحالفات أو اتحادات ضخمة، حتى أن ستة من تلك التحالفات المقيمة حول نهر الراين وحده، كانت على عهد تاكيتوس حوالي ثلاثين قبيلة صغيرة. وليس من شك أن اندماج القبائل الجرمانية في بعضها، وظهورها في صورة تكتلات ضخمة، يرجعان إلى الحروب التي خاضتها تلك القبائل ضد الرومان من ناحية، ومحاربة بعضها البعض من ناحية أخرى، والتداخل - مصادفة - أثناء قيامها بالهجرة من الشمال إلى الجنوب من ناحية ثالثة. على أن بعضاً من تلك القبائل الصغيرة المقيمة على امتداد الراين الأدنى ظلت على حالها، لم تندمج في أي تحالف ضخم حتى نهاية القرن الخامس الميلادي(١). وخلال تلك الفترة أيضاً، صارت حدود الأمبراطورية بين العالمين الروماني والبربري غير واضحة المعالم تماماً، ذلك أن التغلغل الجرماني داخل تلك الحدود صار يأخذ طابعاً سلمياً هادئاً، بدلاً من الإغارات والغزوات والهجمات العنيفة. ومن المسلم به أن الحضارة الرومانية أخذت تؤثر تأثيراً واضحاً في الجرمان المستقرين بالقرب من الحدود أو الملتصقين بها، حتى يمكن القول أنهم صاروا رومانيين، أما أولئك الذين كانوا بعيدين عن الحدود، فكانوا أقل عمقاً في تأثرهم بتلك الحضارة(٢). وقد سلكت الحضارة الرومانية إلى الجرمان عدة طرق، منها الزيارات المتكررة التي دأب التجار الرومان على القيام بها لمناطق الجرمان، ولجوء الكثير من الرومان الفارين من وجه العدالة إلى الجرمان بحثاً عن المأوى الآمن بينهم، وعودة بعض الأسرى الجرمان إلى ذويهم، كذلك كان لسياسة «فرق تسد» divide et impera التي سارت عليها الأمبراطورية من حين لآخر، جعلت بعض القبائل الجرمانية تتحالف مع الرومان ضد القبائل الجرمانية الأخرى(٣). ومما يجدر ذكره أن السلطات الرومانية أسكنت إبان القرن الرابع أعداداً هائلة من الجرمان في الجهات التي خربها الحروب، لاسيما جهات البلقان الشمالية وغاليا، وجعلت منهم مستعمرين

---

(١) Sellery & Krey, Medieval Foundations., p. 70.

(٢) Painter, op. cit., pp. 18 - 19.

(٣) Sellery & Krey, op. cit., pp. 7 - 8.

زراعيين وحربيين، بحيث وجد الغزاة البرابرة مناطق الحدود الرومانية مأهولة عادة بشعوب من جنسهم، ألفوا الحضارة الرومانية، واصطبغوا بها إلى حد متفاوت[١].

ثم كان أن تجددت هجمات الجرمان على حدود الأمبراطورية مرة أخرى منذ سنة ٢٧٥م، متخذة طابعاً لم تألفه من قبل، فبعد أن كانت الهجمات التي يقوم بها الجرمان عبارة عن غارات متقطعة، تفتقر إلى خطة موحدة، إذا بها تمتد بشكل إغارات واسعة ضخمة منذ ذلك التاريخ، واستمرت هذه الغارات حتى سنة ٥٦٨م – وهى السنة التي اقتحم فيها اللومبارديون[٢] إيطاليا – أى حوالى قرنين من الزمان، استطاع خلالها كثير من الجماعات الجرمانية اجتياح أقاليم رومانية هامة، وتأسيس ممالك جديدة داخل تلك الأقاليم، الأمر الذى غير وجه العالم تغييراً جذرياً، وأخذت صورة أوربا العصور الوسطى تبدو أقرب وضوحاً[٣]. وسنحاول فى الصفحات المقبلة أن نلقى بعض الضوء على أهم الجماعات الجرمانية التى قامت بتمزيق أراضى الأمبراطورية، وانتزعت أجزاء منها، مؤسسة بذلك ممالك جديدة فى الغرب الأوربى.

---

(١) دوسن، تكوين أوربا، ص ١٠٢.

(٢) أنظر كتابنا اللومبارديون فى التاريخ والحضارة، ٥٦٨ – ٧٧٤م (دار المعارف ١٩٨٦).

(٣) Thompson, A Hist. of Europe., pp. 49 - 50.;

سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، جـ ١، ص ٦٧ – ٦٨.

الفصل الرابع

غزوات الجرمان وتأسيس ممالكهم فى غرب أوربا

الهـون : Huns

الهون قبائل رحل من العنصر المغولي عرفوا في أوطانهم الآسيوية باسم هسيونج – هو Hsiung-Hu، وعاشوا في أعالي النهر الأصفر (هوانج هو) شمال ولاية كان – سو Kan-sou الصينية، ثم بدأوا التوسع والانتشار في القرن الثاني قبل الميلاد، حتى وصل نفوذهم غرب بحيرة بلكاش في القرن الأول الميلادي، وتمكنوا من القضاء على امبراطورية الأورز Aorses الواقعة في منطقة السهوب بين بحيرة آرال وجنوب جبال الأورال. وفي القرن الثاني أو الثالث سيطروا على شمالي الصين فيما يعرف حالياً بمنغوليا، وأسسوا امبراطورية لم تعش طويلاً[١]. والهون أقوام شديدو المراس، يقضي الرجال منهم حياتهم على ظهور الخيل في أراض السهوب الآسيوية، رحل لا يعرفون للاستقرار معنى؛ وهم مكتنزو الأجسام، قصار القامة، كبار الرؤوس، قمحيو اللون، عيونهم مشقوقة مائلة، وأفواههم كبيرة، وشعرهم أسود صلب، لهم سحنة تثير الاشمئزاز، ويخفون تحت شكلهم الآدمي فظاعة الحيوان المتوحش. وتختلف ظروف حياتهم من فصل لآخر، ففي الشتاء تبلغ بهم المجاعة حدها بسبب الجفاف، في حين تبلغ الوفرة الزائدة صيفاً. وقد نظر الرومان والجرمان جميعاً إلى قبائل الهون المتبربرة نظرة الرعب والفزع، نظراً لما اشتهروا به من السرعة الخارقة، والمبالغة في أعدادهم مبالغة زائدة عن الحد. ويعزى إلى الهون اكتشاف حدوة الخيل وسروجها، وتتضح تلك الأهمية إذا أدركنا أن الحدوة سهلت على الخيل السير مسافات طويلة دون تعب، والسروج مكنت المحاربين من خوض المعارك وهم على ظهور خيولهم. هذا في الوقت الذي لم يكن لدى الجرمان آنذاك سوى دراية قليلة بالفروسية، جعلتهم لا يستطيعون الصمود أمام قوات الهون. ويصف مؤرخ روماني الهون بأنهم شياطين خفية، لا يقاتلون من على ظهور خيولهم فقط، بل يقضون حياتهم أيضاً على ظهورها، مما أدى إلى انحراف أقدامهم إلى الخارج

---

(١) Lot, Les Invasions Germaniques., pp. 52-54.; Cantor, Mediaeval Hist.; p. 117.

وتقوس سيقانهم ولا يصيب (سمانة) الساق إلا حظ «ضئيل» من النمو. ووصل الأمر بالهون أنهم لا يترجلون عن خيولهم لتناول الطعام، بل يحتفظون بطعامهم المؤلف من اللحم تحت سروجهم، حتى لا يضيعون وقتاً خلال الزحف[١].

وقد بدأت قبائل الهون المتبربرة الظهور على مسرح الأحداث السياسية أواخر القرن الرابع الميلادى، عندما دفعتها من الوراء تحركات غامضة قامت بها قبائل الأورال - الطائية في وسط آسيا، ربما بسبب زيادة أعدادها زيادة هائلة، أو نشوب صراع وحروب بينها، أو تغيرات مناخية أثرت تأثيراً بالغاً على حياة الهون الرعوية. على أية حال، شقت قبائل الهون طريقها إلى سهول روسيا الجنوبية (شمال البحر الأسود)[٢]، وهناك أدى ظهورها إلى إثارة الفوضى والقلاقل، ونشر الفزع والرعب وسط الجماعات الجرمانية المستقرة من قبل. وكان القوط الشرقيون أول تلك الجماعات التى لم تستطع مقاومة جحافل الهون عندما انقضت عليها فى أوكرانيا فى عام ٣٧٥م[٣]، مما أدى إلى تحطيم مملكتهم وفرار فلولهم نحو الغرب ولم يلبث الهون أن زحفوا غرباً إلى أوربا الوسطى، ناشرين التدمير والخراب في المناطق التى يمرون بها، وكان ضغطهم هو المحرك الفعال لتدفق الجرمان على حدود الأمبراطورية في الجزء الغربى منها. أما الشعوب الجرمانية التى عجزت عن الوقوف أمام وحشية الهون أثناء زحفهم العاصف، فقد أرغمت على الانضمام إليهم، والوقوع تحت وطأتهم وسيطرتهم، ومن تلك الشعوب الجيبيداى Gipidae والآلان Alans والقوط والصقالبة وغيرهم. وهكذا نرى أن الهون عندما أوقفوا زحفهم إبان القرن الخامس كانوا قد شيدوا امبراطورية ضخمة، جعلوا مقرها في سهل هنغاريا (المجر)؛ ومن المعروف أن تلك

---

(١) Stephenson, Mediaeval Hist., p. 48; Sellery & Krey, Medieval Foundations., p. 9; Cantor, op. cit., p. 9.;

موس، ميلاد العصور الوسطى، ص ٩٢ - ٩٥.

(٢) Hoyt & Chodorow, Europe in the Middle Ages., p. 61.

(٣) Katz, The Decline of Rome., p. 104.

الأمبراطورية قد بلغت أوج عظمتها عندما توحدت تحت زعامة أتيلا، الذى ورث الحكم سنة ٤٣٣م، وفى عهده بلغ بلاط الهون منزلة عالية من الثراء الفاحش، بهرت عيون السفراء الوافدين من روما أو القسطنطينية، وتركت أثراً عميقاً فى نفوسهم[١].

فرض آتيلا نفوذه وسطوته على القبائل الجرمانية والمتبربرة التى قادها مصيرها إلى الوقوف فى طريقه، وتسابق الحكام على إرضائه بتقديم الهبات المالية والهدايا القيمة خوفاً من جبروته. واستطاع آتيلا بفضل موقعه المتوسط أن يهدد شطرى الأمبراطورية الشرقى والغربى، وبلغ به الأمر أن دأب على مطالبة الأمبراطورية بإعادة الفارين إليها، وإرغامها صاغرة على دفع جزية سنوية له[٢]. وكان من الممكن أن تستقر العلاقة بينه وبين الأمبراطور على هذا النحو، غير أنها ما لبثت أن توترت عندما طالبها برفع قيمة الجزية، فرفضت الإذعان له، وجرى تدبير مؤامرة فى بلاط القسطنطينية للتخلص منه باغتياله، اشترك فى نسج خيوطها الأمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠م)، ولكنه كشف النقاب عنها فى اللحظات الأخيرة؛ وقد سخر آتيلا من تلك المؤامرة قائلاً باختصار: «إن عبده ثيودوسيوس (الثانى) الذى دأب على دفع الجزية له، حدثته نفسه بالتآمر على قتل سيده»[٣].

لم يكتف آتيلا بما تحت يده من أمبراطورية شاسعة، وبما فرضه من سيادة على العديد من القبائل الجرمانية والمتبربرة، بل امتدت أطماعه إلى أراضى الأمبراطور الرومانى، ومن ثم عول على تقويض الأمبراطورية ونهب ممتلكاتها. وبداية اجتذب الجزء الشرقى من الأمبراطورية أنظاره، فاجتاح شبه جزيرة البلقان، ووصلت غاراته المدمرة إلى أبواب القسطنطينية، وعندئذ تحرج الموقف

---

(١) Hoyt & Chodorow, Europe in the Middle Ages., p. 67.

(٢) Jones, The Decline of Ancient World., p. 80.

(٣) Hoyt & Chodorow, op. cit., p. 67.

عندما رفض الأمبراطور مرقيان (٤٥٠ – ٤٥٧م) Marcian الإذعان لآتيلا، والرضوخ لإرادته، وازداد الموقف تعقيداً عندما أعلن امتناعه عن دفع الجزية. وشاء حظ القسطنطينية أن يحول آتيلا وجهته صوب غرب أوربا، فانصرف من أمام أسوارها، تسبقه شهرته التى طبقت الآفاق، بما عرفت به من قسوة ووحشية لا تبقي ولا تذر، حتى أن معاصريه اعتقدوا أنه سلاح لا يقهر، وأطلق عليه أنذاك «سوط الله» The Scourge of God، أي «العقاب الذي سلطه الله على الخطاة»، وكان أن عبر نهر الراين، وتوغل في شمالي بلاد الغال[1]. ووسط تلك الظروف ظهر القائد الروماني القدير أئتيوس Aétius لمواجهة آتيلا ومنعه من التقدم أبعد من ذلك. وحمله الخطر الهوني على جمع القوات الرومانية الرابضة فى الغرب الأوربي، وأضاف إليها الجموع الجرمانية فى بلاد الغال التى بادلت آتيلا العداء والكراهية. والجدير بالذكر هنا أن خطة آتيلا الحربية كانت تقوم على تجنب الاشتباك مع عدوه – قدر الإمكان – فى معركة وجهاً لوجه، فما حققه من انتصارات اعتمدت بالدرجة الأولى على سرعة التنقل والحركة من ناحية، ونشر الفزع فى قلوب أعدائه من ناحية أخرى. ولا يغيب عن البال أن الالتحام فى المعارك يقتضى مهارة وقيادة يقظة وتكتيكاً بارعاً، وهى صفات يفتقر إليها آتيلا. ومهما يكن من أمر، فقد أسقط في يد آتيلا، ووجد نفسه مرغماً على خوض معركة – وجهاً لوجه – ضد أئتيوس وحلفائه من الجرمان بالقرب من سهول شالون Châlone على نهر السين الأعلى. وفي تلك المعركة التى حدثت فى عام ٤٥١م هزم آتيلا هزيمة ساحقة، اضطرته للارتداد شمالا، مخلفا وراءه أكواما من الجرحى وأشلاء من القتلى. وقد أطلق على تلك المعركة التى أسفرت عن فشل آتيلا فى الاستيلاء على بلاد الغال «معركة الشعوب» The Battle of the Nations نظراً لأن شعوباً جرمانية مختلفة اشتركت فيها. فقد ضم جيش آتيلا الألمانية، والجيبيداى، والقوط الشرقيين، والسكيرى Sciri، والهيرولى، والبرجنديين الشماليين، والفرنجة البريين؛ أما جيش أئتيوس فقد تألف من القوات

---

(١) Loc. Cite.

الرومانية، والبريتون Bretons، والالان، والسكسون، والقوط الغربيين، والأرموريك Armoricans، والبرجنديين الجنوبيين، والفرنجة البحريين. ومن المشاهد أن القوط الغربيين لعبوا دوراً بارزاً في تلك المعركة الحاسمة، حتى أن ملكهم ثيودوريك لقى مصرعه بعد أن حارب ببسالة منقطعة النظير تحت راية الرومان. وصفوة القول أن معركة شالون أنهت الأسطورة التي زعمت أن الهون قوم لايغلبون من جهة، وأن أتيلا سلاح لا يقهر من جهة أخرى(١).

وفي ربيع العام التالي (٤٥٢م) تحرك أتيلا على رأس جيش ضخم، فقام بعبور جبال الإلب، ثم غزا شمال إيطاليا، فسقطت أكويليا Aquilia في يده بعد أن أحكم حولها حصاراً عنيفاً، اضطر أهلها إلى الفرار بجلدهم إلى المستنقعات الكائنة في الجزر الواقعة على رأس البحر الأدرياتي، حيث أسسوا قرى صارت فيما بعد مدينة البندقية الشهيرة. ومضى أتيلا في تقدمه، فسقطت في يده مدينتا ميلان وبافيا دون مقاومة، ثم تقدم إلى روما، ولكن انتشار المجاعة وتفشي الأوبئة بين قواته، جعلته يوقف هجومه عليها. ومن الملاحظ أنه في غمرة المتاعب التي قابلت أتيلا، وصلت إلى معسكره سفارة من روما على رأسها البابا ليو الأول (٤٤٠-٤٦١م)، لإقناع أتيلا أن اقتحام روما سوف لا يحقق له الغاية المنشودة، وفعلاً دارت المفاوضات بين الجانبين، انتهت إلى انسحاب أتيلا عائداً إلى مقر حكمه في هنغاريا يجر أذيال الفشل والخيبة. وتروي الأساطير أن شبحي القديسين بطرس وبولس ظهرا الزعيم الهون، وهدداه بالموت السريع إذا خذل البابا. ولاشك أن ذلك الاعتقاد أضاف رصيداً ضخماً من النفوذ لحساب البابوية في الغرب الأوربي. وشاءت الأقدار أن يموت أتيلا بعد شهور قليلة في عام ٤٥٣م، في ليلة زفافه على عروسه الأميرة الجرمانية الجميلة كريمهيلد Kriemhild كما تسمى في ملحمة نيبيلونج Nibelungenlied التي وصلتنا في مخطوطة يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر الميلادي، فبعد أن أفرط في الشراب حتى فقد

---

(١) Pirenne, A Hist. of Europe., pp. 29 - 30.; Taylor, The Mediaeval Mind. Vol. I., pp. 112 - 113.; Jones, op. cit., p. 80.

الوعي، وغلبه النوم، نزفت أنفه وهو يغط في نومه دماء كتمت أنفاسه، بعد أن اندفعت إلى رئتيه ومعدته(١). وعلى أية حال، فقد تمزقت أمبراطورية الهون بعد وفاة دعامتها القوية أتيلا، ذلك أن أبناءه الذين اقتسموا ميراثه سرعان ما دب النزاع بينهم حول سيادة الشعوب الجرمانية التي كانت تدين بالولاء لأبيهم، مثل القوط الشرقيين، والجيبيداي والروجيين، والهيرولي، والسكيري؛ ولكن تلك الشعوب أحست بمدى الضعف الذي وصل إليه الهون، فثارت، وانقضت على الأبناء في موقعة جرت أحداثها على نهر نيداو في نفس العام (٤٥٣م)، باءت بهزيمتهم هزيمة ساحقة، حتى لم يبق منهم غير شراذم متناثرة، وقد استقرت تلك الشعوب في الولايات الدانوبية، سواء كقوى مستقلة أو كحلفاء للأمبراطورية الغربية(٢). وهكذا انهارت امبراطورية الهون، وكسرت شوكتها، ومحيت من صفحات التاريخ.

القوط الغربيون : Visigoths

يبدو من خلال أساطير القوط أنهم عبروا البحر البلطي من جنوب شبه جزيرة اسكندناوه في القرن السادس قبل الميلاد، حتى وصلوا مصب نهر الفستولا Vistula؛ وحوالي سنة ٢٥٠ق.م ظهروا تاريخياً عندما شرعت بعض القبائل القوطية في التحرك صوب الجنوب الشرقي، إلى أعلى الفستولا خلال مستنقعات البريبت Pripet، حتى استقرت في النهاية في حوض الدنيبر الأدنى والساحل الشمالي للبحر الأسود(٣). وهناك انقسم القوط إلى فرعين قبليين كبيرين هما : القوط الترفنج Tervingi والقوط الجروتنج Greutungi. وقد استقر فرع الترفنج بين الدانوب والدنيستر، وعرف فيما بعد باسم القوط الغربيين

(١) Hoyt & Chodorow, Europe in the Middle Ages., p. 68.;
جيبون، اضمحلال الأمبراطورية الرومانية وسقوطها، جـ ٢، ص ٢٨٨ – ٢٩٠.

(٢) Baker (Ernest), "Italy & the west, 410 - 476.", in Camb. Med. Hist., Vol. I, p. 420.

(٣) Copeland, The Germanic Invaders., p. 2212.; Deanesly, A Hist. of Early Medieval Europe., p. 26.

Visigoths؛ أما الفرع الآخر الجروتنج فقد أقام في جنوب روسيا على نهر الدنيبر، وعرف فيما بعد باسم القوط الشرقيين Ostrogoths. وتجدر الإشارة إلى أن خط التمييز الجغرافي بين القوط الغربيين والقوط الشرقيين ظل واحداً، حتى بعد أن تكونت ممالك القوط فيما بعد، فكان القوط الغربيون في تولوز، بينما كان القوط الشرقيون في إيطاليا شرقيهم[1].

وقد ظهر خطر القوط واضحاً في منتصف القرن الثالث الميلادي، عندما اشتدت إغاراتهم البربرية على ولايات الجزء الشرقي من الأمبراطور، فاجتاحوا إقليم مؤيسيا السفلى، ثم فرضوا الحصار على مرقيانو بوليس Marcianopolis (بالقرب من فرنا) عاصمة الإقليم، غير أنهم مالبثوا أن فكوا الحصار عن تلك المدينة بعد أن دفع السكان مبلغاً ضخماً من المال، ثم قفلوا عائدين إلى بلادهم. وإبان عهد الامبراطور ديكيوس (٢٤٩ – ٢٥١م) Decius، عبر القوط الدانوب الأدنى، واجتاحوا تراقيا ومقدونيا، وظلوا ينشرون الدمار والخراب، حتى وجد ديكيوس نفسه مضطراً لمواجهتهم خلال زحفهم على مدينة فيلبو بوليس Philip-popolis (عاصمة تراقيا)، ولكنه لقى الهزيمة رغم شجاعته ونشاطه، والحق أن تلك الهزيمة لم تنل من عزيمة الأمبراطور، فما لبث أن جمع قواته المبعثرة، وشرع في إنقاذ المدينة من الحصار الذي فرضه عليها القوط. وفعلاً تغير الموقف بعد أن طال أمد الحصار، فقد قاسى القوط عناء الانتظار تحت أسوار المدينة، وخاب أملهم في الاستيلاء عليها، وأسقط في يدهم، فراسلوا ديكيوس يعرضون عليه تسليم الأسرى وإعادة الغنائم، بشرط أن يسمح لهم بالعودة إلى بلادهم سالمين.

(١) Bradley (Henry), The Goths. Fifth edition., (London, 1887), pp. 5-6.; Bang, "Expansion of the Teutons.", p. 203.

وثمة تفسير أضافه البعض حول تقسيم القوط إلى شرقيين وغربيين، ففرع القوط الترفنج الذي عرف فيما بعد باسم Visigoths يعني القوط الحكماء Wise Goths وليس كما ترجمت عادة القوط الغربيون (Western Goths)؛ أما الفرع الآخر الجروتنج الذي عرف فيما بعد باسم Os-trogoths فمعناه القوط الساطعون (Austr) "bright Goths" وليس كما عرف القوط الشرقيون (Eastern Goths). انظر:

Lot, The End of the Arcient World., p. 191.

ولكن الامبراطور رفض ذلك العرض، إعتقاداً منه أن القضاء عليهم بات أمراً ميسوراً، وبذلك ارتكب خطأ لا يمكن تلافيه، إذ نسي أن القوط يدافعون هذه المرة عن طوق نجاتهم، أو بالأحرى يدافعون عن حياتهم دفاع المستميت، الأمر الذي أرغمهم على خوض معركة عنيفة في عام ٢٥١م، كلفت الأمبراطور وابنه حياتهما. وبعد أن كانوا يطلبون طوق النجاة، إذا بهم قد استولوا على الولايات الدانوبية بعد أن عجزت القوات الرومانية عن ردهم. وقد انعكست هذه الهزيمة على موقف جالوس (٢٥١ – ٢٥٢م) عندما اعتلى عرش الامبراطورية، ذلك أنه أحسن بعجزه عن مواجهة القوط، وعدم قدرته على طردهم بالقوة، خاصة بسبب الطاعون الذي اجتاح ولايات الدانوب، فاتفق معهم على مغادرة أراضي الامبراطورية نظير دفع جزية ضخمة سنوياً(١).

وهنا نلاحظ أن القوط ظلوا سادرين في غيهم، فواصلوا إغاراتهم على أملاك الأمبراطورية، وقد ساعدتهم أحوال الأمبراطورية على ذلك، فبين سنتي ٢٥٣ و٢٦٨م هدد الجرمان الجزء الغربي من الأمبراطورية، في الوقت الذي واجهت فيه المتاعب مع فارس. ومما يذكر أن تاريخ القوط خلال تلك الفترة كان مليئاً بالفظائع ونشر الرعب والفزع، بالإضافة إلى نهب المدن الغنية التي تعرضت لغزوات ضارية. وأخيراً في عام ٢٦٩م نشأ تحالف قوى بين القوط وجماعات من الجرمان مثل الجبيداي والهيرولي وغيرهم، استهدف مهاجمة أملاك الأمبراطورية بحراً، وفعلاً أبحر أسطول مؤلف من خمسمائة سفينة من الساحل الغربي للبحر الأسود، وصل الساحل الغربي لآسيا الصغرى، ثم عبر البحر الإيجي متجهاً إلى بلاد اليونان، وكانت المدينة العريقة أثينا من بين المدن التي تعرضت لنهب القوط، ثم توجه الأسطول إلى البحر الأدرياتي، إذ يبدو أن القوط كانوا يفكرون في غزو إيطاليا. ولكن النزاع الذي شب بين زعماء البرابرة أدى إلى انقسام الجيش القوطي إلى جماعتين، إحداها عادت إلى موطنها الأول شمال البحر الأسود،

(١) Bradley, The Goths., pp. 24-29.; Rostovtzeff (M.), The Social and Economic Hist., of the Roman Empire., Vol. I., (London, 1957), pp. 442-443.; Cary & Scullard, A Hist. of Rome., p. 508.

واتجهت الأخرى إلى إقليم مؤيسيا قاصدة غزوه، وفعلاً سقط فريسة في أيديها. وفي تلك الأثناء كان كلوديوس الثاني (٢٦٨ – ٢٧٠م) Claudius II قد وصل إلى عرش الأمبراطورية، وعقد العزم على تطهير الأمبراطورية من البرابرة الغزاة، فخرج لملاقاتهم على رأس جيوشه، والتقى الفريقان عند نيسوس (نيس) -Nais sus في معركة دامية حدثت في عام ٢٧٠م، وأسفرت عن هزيمة القوط هزيمة ساحقة، راح ضحيتها خمسون ألف قوطي، فضلاً عن ألوف عديدة أخرى وقعت في ذل الاسترقاق، أما باقي القوط فقد ارتدوا إلى شمال الدانوب، ثم توالت انتصارات كلوديوس الثاني على القوط، لدرجة أفقدتهم الثقة في أنفسهم، وذاع صيت كلوديوس الثاني بأنه قاهر القوط، واستحق عن جدارة لقب «القوطي» Gothicus الذي عرف به في التاريخ[1]. وبعد أن توفي كلوديوس الثاني بمرض الطاعون، خلفه أوريليان (٢٧٠ – ٢٧٥) على عرش الأمبراطورية، وفي بداية عهده عاد القوط لمهاجمة أراضي الأمبراطورية، واشتبكوا مع الأمبراطور في معركة لم يتحدد مصيرها، ولكنها كلفت الجانبين الكثير من الخسائر، مما أدى إلى اتفاقهما على الصلح. وكان أن رأى الأمبراطور أن احتفاظه بولاية داكيا سوف يجلب المتاعب للأمبراطورية، فضلاً عن صعوبة الاحتفاظ بها آنذاك، ولذلك أمر بسحب الحاميات الرومانية من تلك الولاية، وإخلائها من السكان الرومان، ثم تسليمها للقوط للإقامة بها؛ وهكذا صارت أحدث ولاية ضمتها الأمبراطورية إلى نفوذها، أول ولاية تفرط فيها للجرمان!. ورغم أن أوريليان قد حل مشكلة داكيا على حساب الأمبراطورية، إلا أنه في الواقع أبعد الخطر القوطي عن أملاكه مدة خمسين سنة. ومنذ ذلك الوقت صار جنوب الدانوب الحد الشمالي للأمبراطورية، كما كان الوضع في أيام الأمبراطورية الأولى[2].

---

(١) Bradley, the Goths., pp. 30., Lot, Les Invasions Germaniques., pp. 35-36.; Rostovtzeff, op. cit., Vol. I, pp. 445-446.; Cary & Scullard., op. cit., p. 513.; Bang, op. cit., p. 205.

(٢) Robinson, A Hist. of Rome., pp. 397-398.; Tailor, op. cit., pp. 111-112.

جنح القوط إلى الهدوء خلال فترة الخمسين عاماً التى أعقبت قيام الصلح بينهم وبين الأمبراطورية، بدليل أن المصادر المعاصرة لم تذكر شيئاً عن أحداثهم إبان تلك الفترة. وعلى أية حال، فقد خرجوا عن هدوئهم الطويل على عهد قنسطنطين العظيم، فحدث أول صدام بينه وبينهم فى عام ٣٢٢م، استطاع خلاله أن يحقق النصر عليهم فى ثلاث معارك متتالية، أجبرتهم على الخضوع له، ثم بعد ذلك بثمانى سنوات (٣٣٠م) اشتبك معهم فى حرب أسفرت عن هزيمتهم هزيمة فادحة؛ وهنا نلاحظ أن قنسطنطين عامل أولئك البرابرة بعدئذ معاملة طيبة، فعقد معهم معاهدة صاروا بمقتضاها حلفاء Foederati (allies) للرومان، وجرى الاتفاق أيضاً على أن يسلم الملك القوطى ابنه الأكبر رهينة فى أيدى الأمبراطور، إعراباً عن إخلاصه وصدق ولائه(١).

ثم حدث الحدث الأعظم فى تاريخ القوط عندما شقت المسيحية طريقها إليهم فى منتصف القرن الرابع، عن طريق المبشر القوطى الآريوسى المذهب أولفلاس Ulfilas (٣١١ - ٣٨١)، الذى لقنهم الدين الجـديد على المذهب الآريوسى، مخالفاً المذهب الأثناسيوسى المنتشر فى الغرب الأوربى، الأمر الذى كان له عواقب بعيدة المدى على مستقبل قبائل القوط الغربيين والشرقيين والوندال والبرجنديين واللومبارديين وغيرهم. وكان أولفلاس قد أتى إلى منطقة شمال الدانوب، بعد أن قرر مجمع أنطاكية فى حوالى عام ٣٤٠م برئاسة أيوزيب المناهض للمذهب الأثناسيوسى، تعيينه أسقفاً ومبشراً بين القوط. وقد انصرفت همة أولفلاس إلى القيام بمهمته خير قيام، ويعزى إليه الفضل فى ترجمة الإنجيل إلى لغة القوط الذين لم تكن لهم دراية بالكتابة آنذاك، ولهذا نراه قد استعار الحروف اليونانية للتعبير عن الأصوات الجرمانية، واضعاً بذلك أساس الكتابة عند الجرمان، وبلغت شهرته فى التبشير حداً جعلته يعرف باسم حوارى القوط أو رسولهم Apostle of the Goths(٢).

---

(١) Bradley, The Goths., pp. 38 - 41.

(٢) Lot, op. cit., p. 38; Pirenne, op. cit., p. 25.; Taylor, op. cit., p. 112.; Thompson, Hist. of the Middle Ages., p. 54., Bang, op. cit., Vol. I., p. 312., Previté - Orton (C.W.), The Shorter camb. Med. Hist., Vol. I., (Camb., 1971), pp. 56-57.

وحوالى عام ٣٧٠م ظهر خطر الهون الذى زلزل الأرض بشدة تحت أقدام الشعوب المتبربرة، بما فيها القوط. وبداية خرجت جموع الهون من مواطنها الأصلية في شكل إعصار مدمر، انقض على قبائل الآلان الجرمانية فى المنطقة الواقعة بين القوقاز والدون، فاجتاحها؛ وبعد ذلك بخمس سنوات (٣٧٥م) تعرض القوط الشرقيون فى جنوب روسيا لهجوم الهون، فلم يقدروا على درئه، وما لبثت مقاومتهم أن انهارت، وهزموا شر هزيمة، انقسموا على أثرها إلى قسمين : قسم يمثل الغالبية انضوى تحت سيادة الهون، ولذلك عوملوا معاملة طيبة، أما القسم الآخر فقد اتجه إلى الدنيستر، ثم إلى الدانوب، حيث انضموا إلى إخوتهم القوط الغربيين الذين كانوا قد سبقوهم إلى هناك[1]. ولكن القوط الغربيين بعد الكارثة التي ألمت بإخوتهم القوط الشرقيين خشوا أن يقعوا فريسة فى أيدى الهون، فاضطروا إلى التقهقر نحو الغرب. وفعلاً كانت جحافل الهوية لهم بالمرصاد، إذ لم تلبث أن ضغطت عليهم، فأسقط فى أيدى القوط الغربيين، لاسيما بعد أن تصوروا جسامة الفظائع التى ستنالهم إذا أمسكت بهم قبائل الهون، وتلفتوا حولهم فلم يجدوا خلاصهم إلا فى أراضى الامبراطورية، فالتمسوا الإذن من الامبراطور فالنز (٣٦٤ – ٣٧٨) Valens بالسماح لهم بعبور نهر الدانوب. وكان الأمبراطور مشغولاً آنذاك بمشاريعه الحربية ضد الفرس، فوافق على عبورهم الدانوب فى ربيع عام ٣٧٦م، على شرط أن يصيروا حلفاء للأمبراطورية، يلتزمون بالدفاع عن حدودها مقابل إمدادهم بالمؤن. ولسنا فى حاجة إلى تصور الأعداد الهائلة من القوط الغربيين المهاجرين – أطفالاً ونساء ورجالاً وشيوخاً – الذين عبروا نهر الدانوب، فقد ازدحم مجراه بالسفن ازدحاماً خانقاً، مما أدى إلى غرق البعض منها. وهنا نلاحظ أن الرومان حاولوا إحصاء عدد اللاجئين، ولكن أعدادهم الغفيرة حالت دون إتمام هذه المهمة[2]. ثم إن إيواءهم ليس أمراً سهلاً كما نتخيل، بل هو أمر لابد أن يثير المتاعب والقلاقل، من حيث ندرة المؤن

---

(١) Lot, op. cit., pp. 58 - 59.

(٢) Bradley, op. cit., p. 66.; Previté - Orton, op. cit., Vol. I., p. 57.

والأقوات آنذاك، وإحداث الفوضى والاخلال بالأمن والنظام، علاوة على ما تعرض له أولئك اللاجئون من تعنت الموظفين الرومان وسوء معاملتهم، كل ذلك دفع القوط الغربيين إلى مخالفة ما عاهدوا الأمبراطورية عليه، وأعلنوا الثورة عليها(١). وبدأ القوط ثورتهم في عام ٣٧٧م بأن عبروا جبال البلقان، ثم انقضوا على تراقيا من بلاد اليونان الحالية، فسقطت في أيديهم، بعد أن عجز قائد القوات الرومانية عن صدهم، واضطرته الهزيمة للفرار إلى مدينة مرقيانوبوليس. وفي تلك الأثناء كان الأمبراطور غائباً عن عاصمته في آسيا، فلما علم بالاضطرابات التي أحدثها القوط الغربيون في أراضي الدانوب، رجع إلى عاصمته فوصلها في ٣٠ مايو ٣٧٨م. وفي خلال ذلك الوقت أيضاً كان جراتيان Gratian زميل الأمبراطور في الغرب الأوربي – وهو في نفس الوقت ابن أخيه – قد هزم الجرمان على جبهة الراين، واستطاع إعادة الهدوء إليها. وما لبث جراتيان بعد أن فرغ من مهمته أن وجه جهوده إلى العمل على إزالة الكارثة التي لحقت بالرومان في منطقة الدانوب، وحتى يحقق ذلك أسرع بالهبوط إلى تلك المنطقة، فوصل سرميوم عاصمة إقليم إيلليريا، وهناك أرسل إلى عمه الأمبراطور يطلب منه ألا يجازف بقواته قبل وصوله، للاشتراك معاً – بقواتهما – في عمل حربي من شأنه أن يحقق النصر على أعدائه. ولكن المتملقين المحيطين بالأمبراطور أوعزوا له ألا ينتظر وصول ابن أخيه حتى لا يشاركه فرحة النصر ويجمع الأضواء حوله، وأكدوا له ثقتهم الزائدة في مقدرته وكفاءته. وكان أن زحف الأمبراطور على رأس قواته البالغ عددها عشرة آلاف محارب في ٩ أغسطس سنة ٣٧٨، وعلى مقربة من أدرنة (أدريانوبل) Hadrianople في إقليم تراقيا، دار قتال عنيف بين الفريقين، انتهى بسحق القوات الرومانية وإبادتها، ولقي الأمبراطور مصرعه(٢) نتيجة طيشه واندفاعه. وتجدر الإشارة إلى أن استخدام القوط الغربيين للخيالة الثقيلة في تلك

---

(١) Pirenne, op. cit., pp. 26 - 27.; Hoyt & Chodorow, op. cit., p. 61.

(٢) Jones, op. cit., pp. 67 - 68.; Bradley, op. cit., pp. 67 - 73.; Baynes (Norman H.), "The Dynasty of Valentinian and Theodosius," in Camb. Med. Hist., Vol. I., p. 231.

المعركة ساهم في تحقيق الانتصار، وصارت الخيالة الثقيلة وفنونها العسكرية منذئذ هي العامل الحاسم في المعارك، وقضت أن تكون لمدة ألف سنة هي الأداة الفعالة في الحروب الأوربية[١]، وبعبارة أخرى لم يعد للجنود المشاة السيطرة بعد ذلك على ميدان المعركة.

وإزاء تلك الكارثة التي ألمت بالامبراطورية، توقف المؤرخ أمسيانوس مارسللينوس (٣٢٥ - ٣٩١م) عن ذكر أية تفاصيل عنها، إذ أن مارواه عنها جاء غامضاً؛ أما المؤرخ الانجليزى جيبون Gibbon فقد كان أحد الأوائل الذين رأوا في معركة أدريانوبل نقطة تحول في التاريخ[٢]. أما المؤرخ برادلي[٣] Bradley فقد ذكر أن القوط لو كانوا قد توحدوا ونظموا صفوفهم وعرفوا كيف يستغلون ما أحرزوه من نصر، لكان من المحتمل أن تنساق الأمبراطورية الشرقية إلى نهاية سريعة، ولكن فن الغزو الذى ألفوه كان ينقصه الكثير. ويشير المؤرخ كانتور[٤] Cantor إلى أن هذه المعركة أظهرت أن بمقدور أية قبيلة جرمانية أن تهزم جيشاً رومانياً، وكانت هذه الحقيقة المشئومة بمثابة جرس الموت للسلطة الرومانية.

وكان من حسن حظ الأمبراطورية أن يرتقي عرشها ثيودوسيوس العظيم (٣٧٨ - ٣٩٥م)، الذي بعث الثقة في قلوب جنده، ورفع من روحهم المعنوية بعد كارثة أدريانوبل، وبفضل مهارته وحكمته ودبلوماسيته، أمكن تحويل القوط الغربيين، بأن عقد معهم اتفاقية في ٣ أكتوبر عام ٣٨٢م، بعد مفاوضات دامت أربع سنين، صاروا بمقتضاها معاهدين Foederati ومنحهم أرضاً لإقامتهم في إقليمي مؤيسيا وتراقيا، فضلاً عن منطقة بانونيا؛ ومن الممكن القول أن تلك

(١) Sinnigen & Boak, op. cit., p. 426.; Bang, op. cit., pp. 215-217.;
موس : ميلاد العصور الوسطى، ص ٨٥.

(٢) Lot, op. cit., p. 61.

(٣) The Goths., p. 75.

(٤) تاريخ العصور الوسطى، قصة حياة حضارة ونهايتها، ص ٢٢٠.

الاتفاقية كانت في صالح الأمبراطورية، فضلاً عما أكدته من سلام في أراضي الدانوب، تعهد القوط الغربيون بتقديم عون حربي للأمبراطورية كل عام[١].

توفي ثيودوسيوس العظيم في ١٧ يناير سنة ٣٩٥م وهو في سن الخمسين، بعد أن استطاع – قدر جهده – الحفاظ على الامبراطورية في فترة من أحلك الفترات التي مرت بها، ولذلك عرف في التاريخ بأنه آخر الأباطرة الرومان العظام. وبعد موته تغيرت الأوضاع في الأمبراطورية بشكل لم تألفه من قبل. ويتضح ذلك في ازدياد شأن القواد الجرمان، فبعد أن كانوا في قبضة ذلك الأمبراطور العظيم، صار بوسعهم التحكم في مصائر الأباطرة[٢]. كما أن الأمبراطورية قد قسمت بين ولديه، فكان القسم الشرقي وعاصمته القسطنطينية من نصيب أركاديوس (٣٩٥ – ٤٠٨) Arcadius، وهو شاب في الثامنة عشرة من عمره؛ والقسم الغربي وعاصمته رافنا بشمال إيطاليا من نصيب هونوريوس (٣٩٥ – ٤٢٣) Honorius، وهو شاب في الحادية عشرة من عمره. ومن الملاحظ أن ولدي ثيودوسيوس أحاطت بكل منهما حاشية فاسدة ضعيفة، افتقرت إلى الصفات التي تؤهلها لمواجهة متاعب الامبراطورية، أضف إلى ذلك أن الأخوين لم يعتمدا في ممارسة نفوذهما على مهارتهما الشخصية، بل سلما زمام أمورهما لشخصيتين جاوزتا الحد المتاح لهما. فقد اعتمد هونوريوس في الغرب على قائد وندالي قدير هو ستليكو Stilicho، في حين اعتمد أركاديوس في الشرق على روفينوس Rufinus، وهو وزير قوطي عرف بالقسوة، استطاع أن يجعل مقاليد الأمور في يده وصاحب انقسام الأمبراطورية إلى شطرين تحول خطير في السياسة الرومانية – الجرمانية، ذلك أن أباطرة القسم الشرقي عمدوا إلى حل المشكلة الجرمانية على حساب القسم الغربي، غافلين وحدة الأمبراطورية كأن لم يعد لها وجود، مما جعل عام ٣٩٥م يمثل بداية الانهيار الرسمي للأمبراطورية في

---

(١) Lot, op. cit., pp. 61 - 62; Hoyt & Chodorow, op. cit., p. 61.

(٢) Cantor, op. cit., pp. 117-118.

الغرب(١). ومن الآثار التي تمخضت عن انقسام الأمبراطورية ظهور فوارق في التشريعات والقوانين، بحيث صار كل قسم مختلفاً عن الآخر اختلافاً واضحاً، ورغم ذلك لم يعترف المعاصرون بأى تقسيم رسمى في الأمبراطورية، إذ ظلت في نظرهم تمثل وحدة لا ينفصم عراها.

وفى تلك الأثناء اختار القوط الغربيون ألاريك Alaric ملكاً عليهم، وهو شاب فى العشرين من عمره من بيت بالثى Balthi القوطى العريق، والذى معناه «الشجعان». وقد عمد ألاريك إلى الانخراط فى سلك الجيش الرومانى، شأنه فى ذلك شأن الكثير من زعماء الجرمان، أملاً فى الوصول إلى مركز هام فى الأمبراطورية، ولكن فشله فى تحقيق غايته، جعله يخرج على شروط المعاهدين، ويعادى الأمبراطورية(٢). ويرى البعض أن ألاريك لم يكن فى نيته بادىء ذى بدء تدمير الأمبراطورية والقضاء على حضارتها، أو تفتيت النفوذ الأمبراطورى فى أراضى الدانوب. فكل ما كان يبتغيه هو الحصول على أقاليم خصيبة واسعة لشعبه للاقامة فيها، وكان من المحتمل تجنب الأمبراطورية المتاعب التى أحاطت بها، والتى كان لها أثرها في تحطيم نفوذها في الجزء الغربي، لو أن الأمبراطور الشرقي بادر بتحقيق طلباته المتواضعة، ولكن الأمبراطور قصير النظر رفض الاستجابة لمطالبه فى عناد وإصرار، الأمر الذى أثار ألاريك، ودفعه بالتالى إلى محاربة الأمبراطورية(٣).

خرج ألاريك من مؤيسيا على رأس قومه متجهاً إلى القسطنطينية مستهدفاً تحقيق أطماعه، فنهب مقدونيا وتساليا فى طريقه، ثم دخل بلاد اليونان، وأخذ يحرق المدن، ويسترق الأهالى، حتى وصل أثينا، فلم يتعرض لها بسوء بعد أن دفع الأهالى له مبلغاً ضخماً من المال، ولكن مدناً أخرى عريقة مثل كورنثه

---

(١) إبراهيم العدوى : المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى، ص ٦٢ – ٦٣.

(٢) Bradley, the Goths., p. 85.;

موس، ميلاد العصور الوسطى، ص ٨٥.

(٣) Cantor, op. cit., p. 118.; Simons, The Birth of Europe., pp. 36-37.

وميجارا وأسبرطة لم تسلم من أعمال النهب والسلب. وعندما وجد أركاديوس صاحب القسم الشرقي من الأمبراطورية نفسه في موقف صعب لا يحسد عليه، خرج روفينوس من القسطنطينية في مارس سنة ٣٩٥م، وأجرى مفاوضات مع الزعيم القوطي، حصل الأخير بمقتضاها على مبلغ من المال، فضلاً عن تعيينه قائداً أعلى لجيوش إقليم إيلليريا(١). غير أن ذلك الإقليم لم يحقق الأطماع التى كانت تجيش في صدر ألاريك من ناحية، ولم يكن كل ما يأمله من القسطنطينية من ناحية أخرى. ولذلك رأى أن يوجه أنظاره نحو الغرب لغزو إيطاليا سنة ٤٠٠م. فعبر جبال الألب في العام التالى (٤٠١م)، وواصل تقدمه بلا هوادة في شمال إيطاليا، حتى عسكر بقواته أمام ميلانو، وعندئذ جمع هونوريوس صاحب القسم الغربي من الامبراطورية كل قواته خشية وقوع إيطاليا في أيدى ألاريك، وزاد على ذلك أن أعاد تحصين أسوار روما توقعاً لأى هجوم يشن عليها، ثم ما لبث أن استدعى القائد الرومانى ستليكو من الغال لإدارة العمليات الحربية. واستطاع ذلك القائد مباغتة معسكر ألاريك بالقرب من بولانزو Pollanzo أثناء انشغاله - مع قومه - بالاحتفال بعيد الفصح (١٩ مارس سنة ٤٠٢م)، مما أدى إلى شل حركتهم وفقدانهم السيطرة على زمام المعركة، التى انتهت بهزيمة قاسية كبدتهم خسائر فادحة. وفي العام التالي (٤٠٣) ألحق ستليكو بالقوط الغربيين هزيمة أخرى مماثلة في موقعة فيرونا Virona في شمال إيطاليا، جعلت ألاريك لا يستطيع الإفلات من الهلاك إلا بفضل جواده السريع. وكان بإمكان ستليكو أن يقضى على ألاريك آنذاك، ولكنه لم يتعجل الأمر، رغبة في استخدامه ورقه رابحة في يده ضد منافسيه في بلاط أركاديوس، وجرت بينهما مفاوضات انسحب ألاريك بموجبها من إيطاليا عائداً إلى إيلليريا، بعد أن حصل على مبلغ ضخم من المال(٢). والجدير بالذكر أن ستليكو كان الشخصية الوحيدة التى تستطيع إبعاد الخطر القوطي عن إيطاليا، ولكنه كان في الحقيقة مكروهاً وسط حاشية البلاط

---

(١) Lot, op. cit., p. 69.; Taylor, op. cit., Vol. I., p. 112.

(٢) Bradley, op. cit., pp. 85-88.; Pirenne, op. cit., p. 27.

وموظفيه، لأسباب عدة أهمها سيطرته على الأمبراطور سيطرة تامة وهو الجرماني الأصل، الاريوسي المذهب، ومن المحتمل أنه كان يحلم ببناء امبراطورية يحكمها ابنه. ولذلك دفعت الغيرة القاتلة رجال البلاط إلى التآمر عليه، فأوغروا صدر الأمبراطور هونوريوس ضده، وجعلوا الشكوك تساوره في صحة إخلاصه، مما أدى إلى استياء الأمبراطور من قائده، وجرى اعتقاله وإعدامه بتهمة الخيانة سنة٤٠٨م(١).

ولاجدال أن إعدام ستليكو قد أزاح عقبة كأداء من طريق الاريك، في الوقت الذي وجد هونوريوس نفسه وجهاً لوجه أمام الزعيم القوطي، ضعيفاً عاجزاً، تعوزه الشجاعة وروح القيادة. لذلك لم يدع ألاريك الفرصة تفلت من يديه، فدبر لغزو روما، وكان أول ما قام به أن عبر جبال الإلب، ثم استولى على المدن التي اعترضت طريقه في شبه الجزيرة الإيطالية، مثل أكويليا وكونكورديا وكريمونا وغيرها، حتى استطاع أن يضرب خيام معسكره تحت أسوار روما في بداية عام ٤٠٩م. وتلا ذلك أن فرض عليها حصاراً محكماً عنيفاً، أدى إلى نقص الطعام والاقوات، وموت الآلاف من سكانها . ومما زاد من خطورة الموقف أن الأمبراطور العاجز لم يبد أية مقاومة وقتذاك، بل فر إلى مدينة رافنا، تاركاً المدينة العريقة نهباً لمصيرها، فسقطت في أيدي الزعيم البربري في ٢٤ أغسطس سنة ٤١٠م(٢). وكان من الطبيعي أن يعتري الناس هول وفزع من جراء سقوط مدينتهم الخالدة، وجرى اعتقادهم أن ما حدث لروما هو نذير بنهاية العالم، والقضاء على حضارته. وليس من السهل تصور الانطباع الذي تركه سقوط روما في نفوس المعاصرين، إذ رأوا فيه حدثاً لم تشهده الأمبراطورية الرومانية المتأخرة من قبل، حتى أن القديس چيروم (حوالي ٣٤٠ – ٤٢٠م) بكى في صومعته في بيت لحم البعيدة قائلاً : «لقد انطفأ مصباح العالم، وضاعت

(١) Lot, The End of the Ancient World., p. 204.; Simons, op. cit., p. 37.

(٢) Bradley, The Goths., pp. 91-92.; Previté-Orton, op. cit., Vol. I., p. 85.

الإنسانية كلها بين حطام روما»(١). وكتب أيضاً : «لقد ارتبك عقلي، وتشتتت أفكاري، حتى أنني نسيت نفسي.. فالمدينة التي امتلكت العالم، وقعت نفسها في الأسر»(٢). وترتب على سقوط روما في أيدي أولئك البرابرة أن صارت فريسة النهب والسلب، فاحرقت دور الأغنياء، ودمرت الكنوز النادرة، وما أكثر الأواني الذهبية والذخائر والتحف التي حطمت ببلطة أثناء تقسيم الغنائم والأسلاب بين أولئك الغزاة؛ وترتب على تلك الكارثة أيضاً أن تشتت السكان، فلجأ الكثير منهم إلى الأماكن النائية المنعزلة طلباً للأمن(٣). وعندما سار وفد من أهل المدينة إلى ألاريك ليسأله عن شروط الصلح، وافق على الانسحاب إذا أعطى كل ما في المدينة من ذهب وفضة. ولما سأله أعضاء الوفد : «وأي شيء بعد هذا يبقى لنا؟»، أجابهم في ازدراء : «حياتكم»(٤). وجدير بالذكر، أن ألاريك رغم أنه كان مسيحياً آريوسيا، إلا أنه احترم الكنائس الكاثوليكية، فلم يتعرض لها بسوء، ولم يمس آثارها وكنوزها. وعلى أية حال، تعتبر هذه المرة هي الأولى التي دخل فيها البرابرة مدينة روما، منذ أن خربت على أيدي هانيبال عام ٢١٦ قبل الميلاد(٥).

ترك ألاريك روما بعد أن نهبها برابرته القساة ثلاثة أيام، صارت خلالها خراباً موحشاً، خالية من ثرواتها وكنوزها. على أن سقوطها في الواقع لم يعط الاريك أية ميزة حقيقية، وبعبارة أخرى لم تحقق أحلامه التي سعى إليها في روما أو إيلليريا من قبل، ففي هاتين المدينتين لم يجد المأوى والاستقرار المنشود لشعبه، ويبدو أنه أدرك ذلك تماما، بدليل أنه قرر الجلاء عن روما، والتوجه إلى أفريقية، بهدف التحكم في ذلك الإقليم الغني بالقمح، والعمل على منع إيطاليا من الحصول عليه. وكان أن زحف على رأس قومه، ساعياً إلى هدفه بحماس لا يفتر، حتى بلغ

---

(١) Hoyt & Chodorow, op. cit., p. 64.; Previté-Orton, op. cit., Vol. I, p. 85.; Katz, The Decline of Rome., p. 92.

(٢) Baynes, Decay of the Western Power and its Causes., p. 2223.

(٣) موس : المرجع السابق، ص ٨٦ – ٨٧.

(٤) Bradley, op. cit., p. 93.

(٥) Pirenne, op. cit., p. 28.; Cantor, op. cit., pp. 76-77.

الطرف الجنوبي من إيطاليا، وعندما ركب البحر إلى صقلية، هبت عاصفة هوجاء حطمت أسطوله، وأعقب ذلك أن توفي فجأة قبل نهاية عام ٤١٠م في أبوليا بالقرب من كوتسنزا Cosenza. ولم يرغب القوط الغربيون في دفن زعيمهم في مقبرة، شأنه شأن بقية الناس، ولكنهم اعتزموا أن يعطوا جنازته ومراسيم دفنه أنشودة ملحمية، فقاموا بتحويل مجرى نهر بوزنتو Busento وهو نهر صغير في كالابريا، وأقاموا ضريحه في قاع النهر الذي خلا من المياه، ودفنوا معه كنوزه وغنائمه، ثم أعيد النهر إلى مجراه الأصلي، وحتى لا يعرف مكانه، قام القوط بقتل العبيد الذين كلفوا بأعمال الحفر، حتى يظل قبره سراً غامضاً إلى الأبد[١].

بعد وفاة ألاريك، اختار القوط الغربيون أثولف Athaulf ملكاً عليهم، ويقال أنه فكر في الإطاحة بالامبراطورية الرومانية، وإقامة امبراطورية قوطية على أنقاضها، ولكنه لم يلبث أن عدل عن تلك الرغبة، بعد أن تبين له أن القوط الغربيين لا يصلحون ورثة للرومان، لما عرف عنهم من ضيق بالقوانين وعدم الخضوع لها، كما أنه رأى الاستحالة على جرماني أن ينتزع التاج الأمبراطوري ولقب الأمبراطور الروماني؛ وكان أن عول في نهاية الأمر، على وضع قواته وشعبه في خدمة الأمبراطورية[٢]، متخذاً لنفسه لقب «باعث مجد الأمبراطورية الرومانية» Restitutor Orbis Romani، وفي نفس الوقت استقر رأيه على اتخاذ إقليم الغال وطناً لقومه. وما لبث أن قادهم إلى شمال إيطاليا، ثم عبر بهم جبال الألب إلى جنوب بلاد الغال، حيث صار سيداً لمعظم تلك المنطقة قبل نهاية عام ٤١٣م، بعد أن بسط سيطرته على مدن هامة مثل بلنسية، وبوردو، وناربون، وتولوز التي صارت عاصمة للقوط الغربيين فيما بعد[٣].

---

(١) Bradley, op. cit., pp. 97-98.; Hoyt & Chodorow, pp. 64-65.; Manitius (M.), "The Teutonic Migrations. 378-412.", in Camb. Med. Hist., Vol. I., p. 274.;

جيبون، اضمحلال الأمبراطورية الرومانية، جـ٢، ص ٢٢٧ – ٢٢٨.

(٢) Bradley, The Goths., p. 100.; Simons, The Birth of Europe., p. 37.; Previté-Orton, op. cit., Vol. I., p. 86.

(٣) Deanesly, A Hist. of Medieval Europe., p. 28.

وفي العام التالي (٤١٤م) عقد أثولف قرانه على أخت الامبراطور الأميرة جالا بلاسيديا Galla Placidia في ناربون. وكانت تلك الأميرة التي تشع مرحاً وذكاء وحيوية، قد وقعت أسيرة في يده بعد سقوط روما، وعاملها معاملة طيبة، جعلتها تقع في حبه، وتقبل الزواج منه. بيد أن قنسطنطيوس قائد الجيش الروماني الذي خلف ستليكو أعلن معارضته، لأنه كان يود الزواج من بلاسيديا، وزاد من حقده ما لمسه من حرص أثولف علي تأكيد نفوذه وسيطرته في إقليم الغال. ومن جراء ذلك خرج قنسطنطيوس على رأس جيش ضخم متوجهاً لإقليم الغال لمنع أثولف من تحقيق مآربه، في الوقت الذي أرسل فيه أسطولاً ضخماً استطاع منع وصول المؤن إلى الموانيء الغالية. ولذلك عندما ضاق الخناق على القوط، وظهر شبح المجاعة في الأفق، اضطر أثولف إلى التحرك مرة أخرى، باحثاً لقومه عن موطن آخر، فعبر بهم جبال البرانس (البرينيه) إلى أسبانيا[١]، وكان أول ملك قوطي يدخلها.

لم يعش أثولف طويلاً بعد ذلك، إذ اغتيل على يد أحد خدمه في مدينة برشلونة في أغسطس سنة ٤١٥م، واختار القوط الغربيون سيجريك Sigeric خلفاً له. فاستهل حكمه بقتل أولاد أثولف، وإلحاق الأذى بالأرملة الشابة جالا بلاسيديا، من ذلك أنه أجبرها على السير بجوار فرسه مسافة اثنتي عشرة ميلاً، ولذلك لم ينعم طويلاً بالحكم، فقد جرى قتله بعد أسبوع واحد من توليته العرش على يد زعيم اسمه واليا Wallia. واستطاع ذلك الزعيم أن يحصل لشعبه بالطرق الدبلوماسية، ما فشل سابقوه من ملوك القوط في الحصول عليه بالحرب والعداء. ومما يدل على ذلك أنه عقد اتفاقية سلام مع الرومان في عام ٤١٨م، وافقوا بمقتضاها على استقرار القوط الغربيين في إقليم أكوتين (أكويتانيا)، وهو يشمل المنطقة التي تضمها فرنسا الحديثة جنوب نهر اللوار، وقد عرفت تلك المنطقة بالمملكة التولوزية، بعد أن اتخذ القوط الغربيون من تولوز عاصمة

---

(١) Bradley, The Goths., pp. 101 - 103.; Boak (Arthur E.R.), A Hist. of Rome to 565 A. D., (New York, 1930), pp. 378-379.

لملكتهم، التي تمتعت بالاستقلال الذاتي في ظل الامبراطورية[١]. كما وافقت الامبراطورية أيضاً على مدهم بالقمح، وفي المقابل، وافق القوط الغربيون على أن يكونوا معاهدين (محالفين) للامبراطورية، وأن ينهضوا بتطهير أسبانيا من جموع الوندال والآلان والسويفي لصالح الامبراطورية؛ أما الأميرة جالا بلاسيديا، فقد وافق القوط الغربيون على أرجاعها إلى إيطاليا، وهناك أجبرت على الزواج من قنسطنطيوس، رغم بغضها له[٢].

وبعد وفاة واليا في عام ٤١٩م، انتخب القوط الغربيون ثيودريك الأول The-oderic I ملكاً عليهم. وإبان عهده ظهر خطر الهون بزعامة آتيلا، مكتسحاً في طريقه صوب الغرب البلاد والمدن، ومخلفاً وراءه الدمار والخراب. وعندما وصل آتيلا منطقة أورليان Orleans، كان يأمل أن يقف القوط الغربيون في صفه ضد القوات الرومانية، ولكن ثيودريك آثر الانضمام إلى القوات الرومانية وحلفائها، مما أدى إلى رجحان كفة الرومان في المعركة التي دارت رحاها بالقرب من شالون سنة ٤٥١م، وفيها لقي ثيودريك حتفه كما ذكرنا من قبل. ولم تنقض بضع سنوات حتى صار إيوريك Euric ملكاً على القوط الغربيين في عام ٤٦٦م، وعلى عهده بلغت مملكة القوط الغربيين ذروتها في القوة والنفوذ، فقد ازدادت أراضيها اتساعاً لم تشهده من قبل. وبمعنى آخر نجح القوط الغربيون في توطيد سيادتهم في الغال وأسبانيا، بحيث صارت في حوزتهم المنطقة الممتدة بين المحيط الأطلسي وجبال الألب، ومن مضيق جبل طارق حتى أكوتين، فيما عدا إقليم جليقية – في الركن الشمالي الغربي من أسبانيا – الذي سيطرت عليه قبائل السويفي الجرمانية[٣].

---

(١) Hoyt & Chodsrow, op. cit., pp. 65-66.; Deanesly, op. cit., pp. 28-29.; Previté-Orton, op. cit., Vol. I., p. 87.

(٢) Deanesly, op. cit., p. 29.; Sinnigen & Boak, op. cit., p. 454.; Schmidt (Ludwig), "The Visigoths in Gaul, 412-507", in Camb. Med. Hist. Vol. I., p. 278.

(٣) Bradley, The Goths., pp. 116 - 117.

على أن مملكة القوط الغربيين ما لبثت أن تمزقت بعد وفاة ملكها إيوريك سنة ٤٨٥م، لأن خلفاءه كانوا يفتقرون إلى المقدرة والكفاءة التي تميز بها. ولا يغيب عن البال أيضاً أن أريوسية القوط الغربيين كانت حجر الزاوية في انهيار مملكتهم وتمزقها، فالغالبية العظمى من رعاياهم في إقليم الغال كانت على المذهب الكاثوليكي المناهض للأريوسية. وإذا تصورنا مدى الكراهية التي تبادلها أنصار المذهبين، لأدركنا أنه كان من المستحيل على أي ملك قوطي أن يحوز رضاء أتباع يعتبرونه هرطقياً في نظرهم[١].

الوندال : Vandals

ينحدر الوندال من الشعوب الجرمانية الشرقية التي غادرت ساحل البحر البلطي في وقت سابق على تحرك القوط. وقد ظهروا تاريخياً كإحدى القبائل الجرمانية القوية في أواخر القرن الأول الميلادي، وذكرهم بليني (٢٣ - ٧٩م) في الجزء الجغرافي من مصنفه الموسوعي الضخم «التاريخ الطبيعي» Naturalis Historia باسم vindili، كما ذكرهم المؤرخون الإغريق باسم Bandili أو Bandeli. وقد اتخذوا من الجزء الأوسط والشرقي من بروسيا Prussia موطناً لهم عند ظهورهم تاريخياً، ولكن إقامتهم في ذلك الموطن لم تدم طويلاً، إذ قامت الحرب بينهم وبين قبائل اللانجوباردي (اللومبارديين) Langobardi، انتهت بهزيمتهم هزيمة ساحقة كما تروي الأساطير، ونزوحهم جنوباً إلى المنطقة الواقعة بين سيليزيا وبوهيميا[٢]. وفي أثناء الاضطرابات والفوضى التي أثارتها حرب قبائل الماركوماني حوالي عام ١٦٦م، اتجهت قبائل الوندال الأسدنج (الأسدنجيين) Asdingi التي اشتقت إسمها فيما يبدو من اسم البيت المالك،

---

(١) Ibid., p. 117.

(٢) Hodgkin (Thomas), Italy and her Invaders., Vol. II., (London, 1892), pp. 212- 214.;

محمود الحويري، اللومبارديون في التاريخ والحضارة، ص ١٥ - ١٧.

صوب الجنوب إلى هنغاريا، على حين ظلت قبائل السيلنج (السيلنجيين) Silingi بسيليزيا، التي يظهر أن اسمها ليس إلا صيغة صقلبية للاسم القديم (سيلينجيا)(١).

وفي القرن الثالث الميلادي بدأت مرحلة جديدة لتحرك جماعات الوندال، هيئت لها الأحوال السيئة التي مرت بها الأمبراطورية آنذاك. فإبان ذلك القرن اختل البناء الأمبراطوري – كما ذكرنا في مرات عديدة – داخلياً وخارجياً، وتشير الأحوال الخارجية إلى ظهور موجات زاحفة من القبائل الجرمانية، أخذت تضغط على الحدود، التي أمست كحائط هش بني من الرمال لا يستطيع الصمود أمام رياح القلاقل. على أن ذلك القرن لم يعدم حقيقة بعض الأباطرة الذين حرصوا على إبعاد الخطر الجرماني عن الأمبراطورية. فعلى سبيل المثال، عندما ارتقى أوريليان عرش الأمبراطورية سنة ٢٧٠م أعطى الكثير من جهده لذلك الغرض، بدليل أنه خلال عودته إلى روما آتيا من جهة الدانوب الأوسط، اضطر إلى العودة إلى بانونيا، ليدفع عنها غارات قبائل الوندال والسارماتيين، واستطاع فعلاً إلحاق الهزيمة بالوندال في المعركة التي دارت رحاها سنة ٢٧١م(٢). ولم يلبث الوندال أن أرسلوا سفارة للأمبراطور طلباً الصلح، فوافق بشرط أن يحتفظ بأبناء ملوك الوندال وكبار نبلائهم رهينة، وأن يمدوا الجيوش الرومانية بألفي فارس كمعاهدين، وفي نفس الوقت تكفل الأمبراطور بمدهم بالمؤن حتى وصولهم إلى الدانوب. وبعد ذلك بسنوات قليلة قام حلف من الشعوب الجرمانية، ضم الأليماني والوندال والبرجنديين بعبور جبهة الراين، والتوغل في إقليم الغال، بيد أن الأمبراطور بروبس استطاع سحق العديد من الوندال في عام ٢٧٧م، وأخذ

---

(١) Alföldi (A.), "The Invasions of Peoples from the Rhine to Black Sea." in Camb. Ancient Hist., Vol. xII., p. 139.;

موس : ميلاد العصور الوسطى، ص ٨٩ – ٩٠.

(٢) Lot, Les Invasions Germaniques, pp. 33-34.; Sinnigen & Boak, op. cit., pp. 394 - 395.

أعداداً وفيرة منهم أسرى، ضمهم إلى الفرق العسكرية التى بعث بها إلى بريطانيا(١).

وفي عام ٤٠٠م اكتشف الوندال أن الأرض التي يعيشون عليها على نهر الثيس Theiss (في هنغاريا) قد ضاقت مواردها بهم، ولذلك اضطر عدد كبير منهم – بقيادة ملكهم جوديجيل Godigisel – إلى مغادرتها، بحثاً عن أراض جديدة تفي بمطالبهم، في الوقت الذي انحازوا فيه إلى قبائل الآلان. وتحت ضغط الهون آنذاك، اضطر الوندال والآلان إلى الاندفاع غرباً، وبعد أن اجتازوا الدانوب الأعلى، تمكنوا من الاستيلاء على منطقتي رانيتيا ونوريكيوم في العام التالي (٤٠١م). وهنا نلاحظ أن الامبراطورية لم تتخذ موقفاً حاسماً حيالهم، بل آثر القائد الروماني ستليكو مهادنتهم، وإجراء مفاوضات معهم، انتهت إلى اتفاق، قبلوا بمقتضاه أن يمدوه بالمرتزقة(٢). وبعد خمس سنوات (٤٠٦م) تعرضت إيطاليا لغزوة بربرية، قامت بها جماعات ضخمة من القوط الشرقيين وأحلافهم من الوندال وغيرهم، أنزلت بإيطاليا التخريب والتدمير. ولكن ستليكو استطاع هذه المرة أن يلحق بهم هزيمة ساحقة بالقرب من فلورنسة. ولم تكد تمر شهور قليلة علي تلك الهزيمة، حتى قامت جماعات من الشعوب الجرمانية، مؤلفة من الوندال الأسدنج، والوندال السيلنج، والسويفي، والآلان، بعبور نهر الراين بالقرب من ميتز Mainz في ٣١ ديسمبر سنة ٤٠٦م، وتوغلت في إقليم الغال، ناشرة الرعب والدمار في مدنه، حتى وصل خطرها مشارف جبال البرانس التي حالت ممراتها الحصينة دون توغلهم في أسبانيا، وبذلك نجت أسبانيا وقتئذ من أعمال التخريب والدمار(٣).

---

(١) Hodgkin, op. cit., Vol. II, pp. 216-217; Lot, op. cit., pp. 33-34.

(٢) Lot, op. cit., p. 69; Manitius, "The Teutonic Migrations", Vol. I, p. 264.

(٣) Lot, op. cit., pp. 70-71; Boak, op. cit., p. 379; Sinnigen & Boak, op. cit., p. 455; Manitius, op. cit., p. 266.;

موس : ميلاد العصور الوسطى، ص ٩١.

على أن الهدوء لم يلبث أن ساد إقليم الغال، بعد أن عبرت قبائل الوندال وحلفاؤها جبال البرانس سنة ٤٠٩م، وهبطت أرض أسبانيا. وهناك انتشرت بسرعة تدعو إلى الدهشة، حتى وقعت شبه الجزيرة كلها في أيديها. وعندئذ وجدت الأمبراطورية نفسها عاجزة عن الوقوف أمامها، ولم تجد مفراً من أن تعقد مع تلك القبائل المتبربرة معاهدة، صار زعماؤها بمقتضاها حلفاء Foederati، وفي مقابل ذلك جرى منحها أراضٍ في شبه الجزيرة للاستيطان، فاستقر الوندال الأسدنج والسويفي في الجزء الشمالي الغربي من أسبانيا (جليقية) Gallaecia، والآلان في لوزيتانيا Lusitania، على حين استقر الوندال السيلنج في الجنوب الشرقي من أسبانيا (بايتيكا) Baetica التي صارت تعرف منذ ذلك الوقت بالأندلس Andalusia نسبة إلى الوندال[١]. ورغم أن الأمبراطور هونوريوس – حاكم القسم الغربي من الأمبراطورية – كان مضطراً آنذاك لقبول هذا الوضع في أسبانيا، إلا أنه في حقيقة الأمر حرص على عدم التخلي نهائياً عن أسبانيا، ووضع في حسبانه اغتنام أية فرصة تساعده على التخلص من تلك القبائل التي اتصفت بالوحشية والتدمير، والتي كانت لا تقيم وزناً للسن أو للمقام في استخدام أنواع الإهانة والتعذيب مع الشعوب التي كانت تبدي أية مقاومة ضدها. وكان أن أتت الفرصة عندما تحالفت الأمبراطورية مع واليا ملك القوط الغربيين في عام ٤١٦م، واتفقت معه على مهاجمة الوندال وحلفائهم في أسبانيا وتطهيرها من شرهم. والحقيقة أن موقف الأمبراطورية يستحق أن نتمهل أمامه بالفحص، ذلك أنه كان وسيلة لغاية استهدفت إضعاف القوتين، قوة القوط الغربيين وقوة الوندال، بعد أن بلغت الأمبراطورية درجة من الضعف، صار من الصعب عليها إيقاف الجرمان عند حدهم. وبمعنى آخر آثرت الأمبراطورية اتباع سياسة «فرق تسد» مع أعدائها الجرمان والبرابرة. وتظهر تلك السياسة واضحة عندما نجح واليا في حروبه التي خاضها ضد الوندال، ففيها انمحى فرع الوندال

---

(١) Hodgkin, Italy and her Invaders, Vol. II, pp. 222-223; Boak, op. cit., p. 380; Manitius, op. cit., p. 275; Schmidt (Ludwig), "The Visigoths in Gaul, 412-507", in Camb. Med. Hist., Vol. I, p. 304.

السيلنج من الوجود تماماً، وضعف شأن الالان الذين اضطرت بقاياهم إلى الاندماج في الوندال الأسدنج في جليقية، ويقال أن ملك الوندال الأسدنج أطلق على نفسه آنذاك لقب ملك الوندال والالان»[١]. غير أن الامبراطورية سرعان ما أصابها الفزع من جراء ازدياد نفوذ القوط الغربيين في أسبانيا، فعمدت إلى إبعادهم عن أسبانيا في نهاية عام ٤١٨م، بأن منحتهم إقليم أكوتين للاستقرار به. وجريا على سياسة الأمبراطورية مع أعدائها الجرمان، تحالفت مع قبائل السويفي وقدمت لها العون، بهدف القضاء على الوندال والالان في جليقية. وكان أن لحقت الهزيمة بهم في العام التالي (٤١٩م)، وأرغموا على الانسحاب إلى بايتيكا في جنوب أسبانيا. وتجدر الإشارة إلى أنه رغم الضربات المتكررة التي أكيلت للوندال، إلا أنهم استطاعوا توحيد قواهم من جديد، وأنزلوا الهزيمة بجيش روماني، حاول استعادة بايتيكا – أو الأندلس – من أيديهم في عام ٤٢٢م[٢].

ظل الوندال في الأندلس بعد طول تجوال وترحال، حتى وقع اختيارهم على جزريك الأعرج Gaiseric the Lame ملكاً عليهم سنة ٤٢٨م وهو من الوندال الأسدنج. ويعتبر جزريك (٤٢٨ – ٤٧٧) أعظم رجال عصره من الجرمان، عرف بالذكاء والتقشف والزهد، لايهاب الردى في القتال، قاسياً على أعدائه، لا تأخذه بهم رحمة ولا شفقة، موهوباً في المناورات السياسية، الأمر الذي جعل البعض يطلق عليه لقب «بسمارك» القرن الخامس الميلادي[٣]. ومن الأمور التي تدل على ذكائه أن وضع قومه في أسبانيا شغل جانباً كبيراً من تفكيره، إذ رأى أنها لاتحقق حلماً مثالياً لهم، فضلاً عن أنها لا تصلح مأوى لهم في المستقبل. ومن ثم أخذ يتطلع إلى أفريقية التي وجد فيها أرضاً صالحة للاستيطان، ذات أهمية تفوق ما كانت عليه أسبانيا آنذاك. ولاشك أن جزريك كان صائباً في تفكيره، لعدة إعتبارات، منها أن ولاية أفريقية تميزت بخصوبتها ووفرة محاصيلها

(١) Hodgkin, op. cit., Vol. II, p. 223; Barker, "Italy and the West." p. 404.

(٢) Lot, op. cit., p. 37; Boak, op. cit., p. 380.

(٣) Hodgkin, op. cit., Vol. II, p. 228.

الزراعية، لاسيما القمح الذى يجرى تصدير كميات ضخمة منه، وهى أيضاً من الناحية الاستراتيجية بمثابة قلعة حصينة، يحدها البحر المتوسط شمالاً، والصحراء جنوباً(١). ولا يخفى علينا أن الأحوال فى ولاية أفريقية وقتذاك كانت تشجع على غزوها، فمنذ مدة طويلة ترجع إلى أوائل القرن الرابع الميلادى، بلغت فيها الفوضى السياسية والاجتماعية والاختلافات المذهبية درجة لم تشهدها من قبل. ويؤكد ذلك انشغال الكونت بونيفاس Bonifacius حاكم أفريقية فى الحروب الدائرة بينه وبين الأمبراطورية الرومانية فى الجزء الغربى، فضلاً عما كانت تعانيه تلك الولاية من اضطرابات قام بها سكانها من البربر Moorish، فى وقت افتقر فيه بونيفاس إلى القوة الكفيلة بردعهم. كل تلك الاعتبارات دارت فى ذهن جزريك، عندما وضع مشروعه للانتقال إلى شمالى أفريقية(٢).

وأمام تلك الاعتبارات، وتحت تأثير الرغبة فى عبور البحر إلى أفريقية، قاد جزريك قومه فى عام ٤٢٩م، عبر مضيق عمودى هرقل (جبل طارق) وعدتهم حوالى ثمانين ألف، نساء وأطفالاً وشيوخاً وعبيداً، وقد تراوح عدد المحاربين بين ١٢,٠٠٠ و ١٥,٠٠٠ ألف. وسرعان ما وقعت ولاية أفريقية فريسة الغزو الوندالى، واجتاح أولئك البرابرة معاقلها ومدنها التى أخذت تتهاوى الواحدة بعد الأخرى، فيما عدا مدينة قرطاجنة التى حالت أسوارها المنيعة القوية دون الاستيلاء عليها(٣). ثم واصلت جموع الوندال زحفها شرقاً دون إبطاء، مكتسحة فى طريقها شعوب البربر التى حاولت مقاومتها. ورغم أن جزريك عقد اتفاقية سلام مع الأمبراطورية فى عام ٤٣٥، إلا أنه لم يلبث أن رمى بها عرض الحائط، عندما انقض فجأة على مدينة قرطاجنة فى ١٩ أكتوبر سنة ٤٣٩م، فسقطت فى يده، وأنزل بها من أنواع المهانة والرذائل ما أرضى جشعه وجشع قواته القاسية؛

---

(١) Lot, Les Invasions Germaniques., p. 88.

(٢) Lot, The End of the Ancient World., p. 211; Schmidt, "The Sueve, Alans and Vandals in Spain, 409-429", in Camb. Med. Hist., Vol. I, p. 305.

(٣) Lot & Dfister and Ganshaf, Les Destinées de l'Empire en Occident, (Paris, 1940), pp. 55 - 56.

وقد أحدث سقوط تلك المدينة العظيمة التي تلي روما في المكانة دوياً هائلاً في الأمبراطورية. وخشية أن تقوم روما بأي عمل حربي ضد الوندال، دفع جزريك بأساطيله، فأغارت على جزيرتي صقلية وسردينيا ونهبتهما، الأمر الذي أجبر الأمبراطور الغربي فالنتنيان الثالث على طلب السلام في عام ٤٤٢م وكان الثمن الذي دفعه نظير السلام فادحاً، إذ اعترف بجزريك ملكاً مستقلاً على أفريقية(١). وهكذا فقدت الأمبراطورية ولاية من أهم ولاياتها، ويعتبر ضياعها أحد العوامل التي أسرعت بالأمبراطورية الغربية إلى التفكك والانهيار، فمن الواضح أن قيام دولة وندالية قوية – مقرها فيما يعرف بتونس الحالية – حرمت الغرب الأوربي من أعظم المناطق الغنية بالقمح من جهة، وجعلت موانيء غرب البحر المتوسط وتجارته تحت سيطرة الأساطيل الوندالية من جهة أخرى(٢).

غير أن فترة السلام بين الوندال والأمبراطورية الغربية لم يكتب لها البقاء طويلاً، فقد استغل جزريك الفتن والفوضى والاضطرابات التي شبت في الأمبراطورية، إثر اغتيال فالنتنيان الثالث في ١٦ مارس سنة ٤٥٥م، وأرسل أساطيله لشن هجوم على إيطاليا، أسفر عن وقوع العاصمة في أيدي الغزاة. وقد حاول البابا ليو الأول (٤٤٠ – ٤٦١) أن ينقذ المدينة من الوندال، كما أنقذها من أتيلا قبل ذلك بثلاث سنوات، ولكن محاولته باءت بالفشل. وظلوا بها مدة أسبوعين ارتكبوا فيها العديد من أعمال النهب والسلب والقتل والتدمير، فنهبوا القصر الأمبراطوري، ومعبد الإله جوبتر، والمساكن والكنائس، وانتزعوا الرقائق المطلية بالذهب من أسقف المعابد، واستولوا على التحف الثمينة التي أحضرها القائد الروماني تيتوس معه من بيت المقدس، والذخائر، والصحاف، والأثاث الفخم(٣).

---

(١) Lot & Dfister and Ganshof, op. cit., p. 63; Lot, The End of the Ancient World., p. 210; Barker, "Italy and the West.", pp. 420-421.

(٢) Lyon & Herbert and Hamcrow, A Hist. of the Westem World., Vol. I., pp. 100-101; Cary & Wilson, A Shorter Hist. of Rome., pp. 336-337.

(٣) Thompson, op. cit., p. 61; Schmidt, op. cit., p. 305; Barker, op. cit., Vol. I, pp. 420-421.

وبعد أن استباحوا المدينة، وأرضوا نزواتهم ورغباتهم الجشعة، عادوا إلى أفريقية محملين بالغنائم والأسلاب، التى كان من بينها إيودوكسيا Eudoxia أرملة الأمبراطور فالنتنيان الثالث وطفلتيها. وقد كان لذلك الحادث وقع سيىء فى قلوب المعاصرين، جعلهم يربطون بين اسم الوندال وبين قطع الطرق واللصوصية والتدمير الوحشى، الأمر الذى أوحى لأحد الباحثين الفرنسيين فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى بابتكار لفظ الوندالية Vandalism فى اللغات الأوربية الحديثة، وجعله مرادفاً للوحشية والهمجية[1]. أضف إلى هذا، أن الأساطيل الوندالية دأبت على ممارسة القرصنة البحرية فى غربى البحر المتوسط، فلم تسلم مدن وجزر ذلك البحر جميعاً من إغاراتها المخربة؛ وقد أدرك الرومان فى شرق الأمبراطورية وغربها خطورة انتشار القرصنة الوندالية، فارسلوا حملات بحرية بغية القضاء عليها، وإعادة الأمن والهدوء إلى مياه البحر المتوسط، ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل والخيبة[2].

على أن مملكة الوندال التى اعتمدت فى قيامها على جنزريك اعتماداً كلياً، وظلت باقية تستمد قوتها من قوته، لم تستطع أن تقف على قدميها بعد وفاته فى ٢٥ يناير سنة ٤٧٧م، ويؤكد ذلك ما قامت به قبائل البربر من ثورات على تلك المملكة، انتهت باستيلائهم على الإقليم الواقع جنوب الساحل. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فشل الوندال فى الاندماج - اجتماعياً واقتصادياً ودينياً - مع أهالى البلاد، خاصة طبقة النبلاء الثرية التى أذلوا أفرادها وأذاقوهم فنون التعذيب، رغبة فى اغتصاب ثرواتهم المخبأة، بعد أن صادروا أملاكهم، حتى اضطرت الحاجة بعضهم إلى التسول، وأنزلت البعض الآخر إلى مرتبة العبودية. وأخيراً، لما كان الوندال على المذهب الآريوسى، شأن جميع الشعوب الجرمانية،

(١) Lyon & Herbert and Hamerow, op. cit., p. 101; Lot & Dfister and Ganshof, p. 78.

(٢) Dill (S.), Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, (U.S.A., 1966), pp. 16-17; Hoyt & Chodorow, op. cit., p. 68

فقد اتبعوا سياسة دينية متطرفة، أثارت نقمة أهالى البلاد من أصحاب المذهب الكاثوليكى، لاسيما رجال الدين الكاثوليك(١).

البرجنديون : Burgundians

أما البرجنديون الذين عاشوا فى القرن الأول الميلادى بين الأودر والفستولا، فهم أحد الشعوب الجرمانية الشرقية، موطنهم الأصلى شبه جزيرة سكنديناوه، من جزيرة بورنهولم Bornholm التى حفظت اسمهم Burgundarholm(٢). وقد كتب الخطيب سيدونيوس(٣) عن البرجنديين فى أواخر القرن الخامس بأن الواحد منهم يبلغ طوله سبعة أقدام، يدهنون شعورهم بالزبد الزنخ، ويشتهرون بالشراهة فى الطعام، ويتحدثون بأصوات عالية. وهم أيضاً شعب مسالم، على دراية بنظم الشعر، بدليل أن قصائد ملحمة نيبولنج التى ظهرت فى القرن الثالث عشر، مستمدة من قصص ترجع فى أصولها إلى برجنديا فى القرن الخامس أو السادس الميلادى(٤).

وحوالى سنة ١٥٠م نفذ البرجنديون إلى سيليزيا، ثم في حوالى سنة ٢٨٦م، دخلوا وادى المين، ثم شقوا طريقهم إلى نهر الراين، فبلغوه فى نهاية القرن الرابع الميلادى(٥). وفى عام ٤٠٦م المضطرب العاصف عبروا نهر الراين تحت ضغط جحافل الهون بزعامة أتيلا، واستطاعوا الحصول على موافقة السلطات

---

(١) Schmidt, op. cit., pp. 311-312.

(٢) Lot, Les Invasions Germaniques., pp. 32-33.

(٣) عاش أبوليناريس سيدونيوس Appollinaris Sidonius فى إقليم الغال، وهو من أسرة رومانية عريقة، دأبت على اعتلاء مناصب إدارية عالية فى الحكومة الأمبراطورية. وقد نال سيدونيوس تدريباً فى تلك المناصب، وتدرج فيها حتى احتل منصباً قريباً للأمبراطور فى روما. ثم استقال من منصبه، وعاد إلى إقليم الغال، حيث شغل منصب أسقف كليرمونت Clermont وهو منصب استغله فى تقديم العون لرجال الدين الذين تعاملوا مع البرجنديين والقوط الغربيين. انظر :
Sellery & Krey, Medieval Foundations., p. 27.

(٤) Deanesly, A Hist. of Early Medieval Europe., p. 30; Cantor, op. cit., p. 119.

(٥) Deanesly, op. cit., p. 30;
موس، المرجع السابق، ص ٨٨.

الرومانية بالإقامة كمعاهدين Foederati في عام ٤١٣م على الضفة اليسرى لذلك النهر، حول مدن ورمز Worms وسباير Speyer والمينز؛ وقد أتاح استقرارهم في تلك الأماكن فرصة اعتناقهم الديانة المسيحية، بيد أن ما قاموا به من إغارات على جيرانهم، وما صحبها من أعمال النهب والسلب، جعلت القائد الروماني أتيوس يحرض عليهم جنوده المرتزقة من الهون سنة ٤٣٦م، فاشتبكوا معهم في معركة عنيفة أنزلت بهم كارثة مدمرة، قتل فيها ملكهم، أما البقايا التي نجت من الهلاك، فقد ولت الإدبار إلى منطقة وادي الرون الأعلى؛ وكان أن سمح لهم أتيوس في عام ٤٤٣م بالإقامة كمعاهدين للأمبراطورية في تلك المنطقة التي عرفت باسم برجنديا حتى يومنا هذا[١]. وتجدر الإشارة إلى أن البرجنديين منذ أن انتهى بهم المطاف في وادي الرون، عاشوا في سلام مع الرومان، واختلطوا بهم بالتزاوج، وقد أثارت الحضارة الرومانية إعجابهم، وبهرت عيونهم، فاقبلوا عليها، وأخذوا ينهلون من معينها، ويظهر ذلك بوضوح في مجموعة القوانين البرجندية Lex Burgundionum والتي أصدرها الملك البرجندي جندوباد (٤٧٣ - ٥١٦) Gundobad، وأيضاً مجموعة القوانين الرومانية البرجندية Lex Romania Burgundionum التي أصدرها ذلك الملك، لمعالجة القضايا المتداخلة بين الرعايا الرومان والرعايا البرجنديين، لاسيما ما تتعلق بالخلافات التي كانت تقوم بينهما[٢].

وفي الفترة المضطربة التي سبقت سقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب الأوربي، تولى حكم البرجنديين ملوك من أسرة جديدة، بعد أن ذبح آخر ملوك الأسرة القديمة على أيدي قبائل الهون المرتزقة في عام ٤٣٦م، وقد حرص أولئك الملوك بدورهم على التحالف مع روما. ويعطي جندوباد صورة واضحة، لما كانت عليه تلك الفترة من قلق واضطراب. فقبل أن ينفرد بعرش مملكة البرجنديين،

(١) Lot, The End of the Ancient World., p. 207; Dill, op. cit., pp. 16-17.

(٢) Sinnigen & Boak, op. cit, op. cit., p. 488.

حدث نزاع بينه وبين أخيه شلبريك الثاني Chelperic II حول الوصول إلى العرش، انتهى بنفيه إلى روما. ولكن الأحداث سرعان ما تطورت بعد ذلك على غير ما كان يأمل شلبريك، فما اتصف به من صفات الغطرسة، والميل إلى الارتياب والشك، جعله يفقد حب أهالي برجنديا، الأمر الذي شجع جندوباد على العودة من منفاه. وتلا ذلك نشوب قتال بين الأخوين، انتهى بانتصار جندوباد، وفوزه بعرش مملكة البرجنديين[١]. وقد وصف المؤرخ جريجوري التوري[٢] (٥٣٨م - ٥٩٤م) Gregory of Tours في كتابه «تاريخ الفرنجة» الطريقة البشعة التي انتقم بها جندوباد من أخيه، إذ قام بذبحه بالسيف، وأغرق زوجته بعد أن ربط حجراً حول عنقها حتى لا تطفو على سطح الماء، ثم تلا ذلك بنفي ابنتي أخيه، انتهى مصير كبراهما إلى الانخراط في سلك الرهبنة، أما الصغرى كلوتيلد Clothilde، فهي التي قدر لها الزواج بعد ذلك من كلوفيس Clovis ملك الفرنجة.

ورغم أن البرجنديين نشئوا على المذهب الأريوسي، شأنهم شأن بقية الطوائف الجرمانية، إلا أنهم - فيما يبدو - احترموا رغبة الإناث في اعتناق المذهب الآخر المخالف لآرائهم، وهو المذهب الكاثوليكي. وليس أدل على ذلك من أنهم لم يحركوا ساكناً حيال الأميرة كلوتيلد عندما اعتنقت الديانة الكاثوليكية، الأمر الذي كان له بعيد الأثر على مستقبل شعب الفرنجة، بعد أن تزوجت من زعيمه كلوفيس، الذي أعجبته بذكائها وفتنته بجمالها. فإليها يرجع الفضل في تشجيع زوجها وقومه على اعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكي. ومهما يكن من أمر، فقد قدر لدولة البرجنديين في النصف الأول من القرن السادس الميلادي (٥٣٢م) أن يسدل عليها ستار الانحسار وتذهب إلى حيث لا رجعة من صفحات التاريخ، بعد أن لقيت هزيمة ساحقة على أيدي الفرنجة.

---

(١) Lot, op. cit., p. 246.

(٢) The Hist. of the Franks., p. 274; Dill, op. cit., p. 21.

الأليماني : Alemanni

الأليماني من الشعوب الجرمانية الغربية التي واجهت الأمبراطورية خطرها، وكلمة الأليماني (Alemanni (Alemans مشتقة من التيوتونية القديمة ومعناها «كل الناس» و«كل الرجال» All Men، وهو اسم لا يعبر عن قبيلة معينة، ولكنه يدل على مجموعة من القبائل مختلفة في أنسابها. والجدير بالذكر أن ذلك الشعب الذي ظل وثنياً حتى النصف الأول من القرن الثامن الميلادي، لم يكن معروفاً للأمبراطورية، مثل بقية الشعوب الجرمانية الأخرى التي عرفتها على جبهتي الراين والدانوب، إذ يرجع ظهوره تاريخياً سعياً وراء الطعام، أو السلب والنهب، أو تحت ضغط من الخلف، على عهد الأمبراطور كاراكلا (٢١١ – ٢١٧م) -Cara calla، في أعداد غفيرة في شمال جبهة الراين الأدنى في المناطق المجاورة للولايات الأمبراطورية، حتى أنه استطاع غزو إقليم رائتيا Rhaetia (وهو جزء من سويسرا الحالية)، على أن كاراكلا الذي عرف بمقدرته الحربية، لم يتمكن من دحر الأليماني عبر الحدود فقط، بل توغل في أراضيهم الواقعة بين الماين Maine وألمانيا العليا ورائتيا، ثم ما لبث أن وجه جهوده نحو تقوية التحصينات الدفاعية في تلك المناطق[١]. ولم تكد تمر بضع سنوات على وفاة كاراكلا، حتى جدد الأليماني – وبعض القبائل الجرمانية الأخرى – هجماتهم على الحدود الرومانية، ووصل ضغطهم إلى حد بالغ الخطورة، اضطر الأمبراطور الكسندر سيفيروس (٢٢٢ – ٢٣٥م) معه إلى قطع حملته ضد الفرس في الشرق والعودة سريعاً إلى جبهة الراين لقيادة العمليات الحربية ضد الأليماني وحلفائهم، بيد أنه لم يلبث أن دخل معهم في مفاوضات، انتهت إلى إحلال السلام بين الجانبين. والواقع أن ذلك التصرف أفقد الأمبراطور احترام قواده، لما رأوا فيه من مذلة واستسلام، ومن ثم قامت ثورة ضده في عام ٢٣٥ بقيادة ماكسيمينوس -Maxi

---

(١) Bang, "Expansion of the Teutons", pp. 200-201; Cary & Scullard, A Hist. of Rome., p. 497.; Laistner (M.L.W.), Thought and Letters in Western Europe. A.D. 500 To 900, (London, 1957), p. 20.

minus أسفرت عن مصرع الأمبراطور وإعلان ماكسيمينوس أمبراطوراً. مما يجدر ذكره أن ماكسيمينوس (٢٣٥ – ٢٣٨م) كان قائداً حقيقياً، شجاعاً ذكياً، اكتسب محبة جنده، الذين رأوا فيه مثلهم الأعلى، ومما يدل على ذلك أنه لم يرض بما وصل إليه سلفه مع الجرمان، وكان أن بعث الحياة والنشاط فى الجيش الرومانى، ورفع من روحه المعنوية، واستطاع على رأسه أن يتوغل فى بلاد الأليمانى، ويلحق بهم الضربة تلو الأخرى، ويتلف حقولهم، ويضرب مساكنهم، ولاجدال فى أن ما قام به ماكسيمينوس أدهش شعب الأليمانى المحارب، فى الوقت الذى أعاد الأمن والاستقرار لجبهة الراين لفترة تزيد عن عشرين عاماً[١].

أخذ الأليمانى يحومون من جديد حول حدود الأمبراطورية، ويتحفزون للوثوب عليها، حتى سنحت لهم الفرصة فى سنة ٢٥٩م، فتحركوا تجاه وادى النيكر، واخترقوا منطقة الغابة السوداء Black Forest واستولوا على منطقة أكوا أوريليتسس Aqua Aureliensis (بادن – بادن الحالية)، حتى وصلوا أعالى الدانوب، وهنا هاجمهم القائد الطموح بوستوموس Posthumus، وحال بينهم وبين دخول إقليم الغال[٢]. ولكنهم عاودوا الكرة على عهد الأمبراطور جالينوس (٢٦٠ – ٢٦٨م)، فاندفعوا هذه المرة فى أعداد هائلة، كطوفان مدمر، فاجتاحوا سلسلة الحصون الدفاعية، وأصابوا إقليم الغال بخسائر جسيمة، ثم عبروا جبال الإلب إلى سهول لمبارديا فى إيطاليا، واستمروا فى تقدمهم حتى وصلوا رافنا، وهنا كان لابد من إيقاف زحفهم خشية أن يصلوا روما، فقام الأمبراطور بعمل حربى صدهم بالقرب من ميلان حوالى سنة ٢٦٨م، لم يضع حداً لعبثهم فى الواقع، ولكنه جعلهم ينسحبون عائدين إلى مواطنهم محملين بالغنائم، وقد رأى الرومان فى ذلك الانسحاب انتصاراً[٣].

---

(١) Universal Hist. of the World., Vol. 4, chronicle XII, pp. 2113-2114; Bang, op. cit., p. 201; Cary & Scullard, op. cit., p. 499.

(٢) Thompson, op. cit., pp. 45-46.

(٣) Universal Hist. of the World., Vol. 4, chronicle XII, pp. 2115-2117.; Robinson, A Hist. of Rome., p. 398.; Lot, Les Invasions Germaniques, p. 33; Cary & Scullard, op. cit., p. 509; Bang, op. cit., p. 201.

وفي أوائل عهد الامبراطور أوريليان (٢٧٠ – ٢٧٥م) تحرك الأليماني مرة أخرى في حشود ضخمة، فاندفعوا خلال جبال الألب الرايتية إلى سهل نهر البو في شمال إيطاليا، وبعد أن أغاروا وارتكبوا ما ارتكبوه من أعمال النهب والسلب، بدأوا رحلة العودة إلى مقر إقامتهم، غافلين عن الخطة التي تفتق عنها ذهن أوريليان وقتذاك، فقد اندفع كالسهم المارق إلى الدانوب قاطعاً عليهم خط الرجعة، واستطاع سحق طليعة جموعهم شمالي ذلك النهر، في الوقت الذي كانت فيه مؤخرة جموعهم لاتزال على الضفة الجنوبية للنهر، فاسقط في يدها، وشلت حركتها، بعد أن أحاطت بها قوات الأمبراطور وجعلتها عاجزة عن العودة. وعندما أحسن الأليماني بأن خطر الإبادة يتهددهم، دفعهم التشبث بالحياة إلى التحرك جنوباً في سرعة بالغة تدعو إلى الدهشة والإعجاب معاً. غير أن أوريليان تعقبهم، ودمرهم تدميراً عنيفاً على ضفاف نهر ميتاوروس Metaurus، وهو نفس المكان الذي استطاع فيه من قبل القائد الروماني كلوديوس نيرو Claudius Nero إحراز انتصار حاسم في الحروب الهانيبالية منذ خمسة قرون مضت. وتجدر الإشارة إلى أنه خلال تلك الفترة الطويلة لم تجرؤ أية قوة أجنبية على الاقتراب من قلب إيطاليا، مثلما اقترب الأليماني في تلك المرة. وقد كان هذا في الحقيقة مبرراً كافياً لتحرك أوريليان، فضلاً عن شروعه في بناء سور دفاعي جديد يحيط بمدينة روما(١).

ورغم تلك الضربة القاصمة التي لحقت بالأليماني على أيدي أوريليان، ومزقتهم شر ممزق، وأطاحت بفلولهم بعيداً إلى ماوراء الحدود، إلا أن خطرهم – في الواقع – لم ينته تماماً. ويبدو من سياق الأحداث المعاصرة أنهم جنحوا إلى الهدوء فترة أعادوا خلالها قوتهم، وظهروا في شكل تحالف أقاموه مع الفرنجة. ففي عهد الامبراطور قنسطنطيوس الثاني (٣٥٠ – ٣٦١م)، اندفع الفرنجة والأليماني في أفواج لا تحصى تجاه جبهة الراين في عام ٣٥٦م، في وقت هدد فيه الفرس حدود الامبراطورية من جهة الشرق، ولصعوبة الموقف أدرك

---

(١) Universal Hist., Vol. 4., Chronicle VII., p. 2119; Thompson, op. cit., p. 46.

قنسطنطيوس حاجته إلى زميل مخلص كفء يساعده فى إدارة كفة شئون الأمبراطورية، وكانت زوجته الأمبراطورة إيودكسيا Eudoxia قد أشارت عليه بتعيين ابن عمه چوليان – الذى صار إمبراطوراً فيما بعد – حاكماً برتبة قيصر، فاستمع إلى رأيها، وعهد إليه حكم إقليم الغال. ومهما يكن من أمر، فقد اخترق الأليمانى حدود الأمبراطورية عند جبهة الراين، وتقدموا مدى أربعين ميلاً فى إقليم الغال. ورغم القوات الصغيرة التى كانت تحت إمرة چوليان، إلا أنه استطاع أن ينتصر عليهم بالقرب من ستراسبورج Strassburg فى عام ٣٥٧م، وتعقبهم عبر الراين، وتمكن من إعادة العديد من الأسرى الذين وقعوا فى أيديهم. وبعد أن رد اعتدائهم، بقى فى إقليم الغال فترة أصلح خلالها الأماكن التى خربها الأليمانى، وأعاد تنظيم وسائل الدفاع عن جبهة الراين، الأمر الذى أكسبه شهرة واسعة آنذاك، أثارت الغيرة فى قلب الأمبراطور نفسه[١].

وفى تلك الأثناء أمكن للأمبراطورية إحكام قبضتها القوية على حدود جبهة الراين ضد شعوب الأليمانى والفرنجة، بفضل أعمال التحصينات التى أقامها الأمبراطور ڤالنتنيان الأول (٣٦٤ – ٣٧٥م)، لاسيما فى المنطقة الممتدة من رائتيا حتى بحر الشمال، واستطاع ذلك الأمبراطور الذى كرس حياته للدفاع عن حدود الأمبراطورية عند جبهتى الراين والدانوب، القيام بحملات ناجحة ضد تلك الشعوب وراء الراين؛ صحيح أنها لم تؤد إلى نتائج حاسمة، ولكنها منحت إقليم الغال فترة من الهدوء والاستقرار[٢]. ثم عاد الأليمانى إلى الظهور مرة أخرى على جبهة الراين، وقد شجعتهم الأحوال التى أحاطت بالأمبراطورية فى عام ٣٧٨م، ففى ذلك العام انصرفت همة الأمبراطور ڤالنز إلى مقاومة خطر القوط الغربيين المتفاقم فى البلقان، الأمر الذى أعطى فرصة للأليمانى، انقضوا من خلالها على جبهة الراين. ولكن جراتيان Gratian – ابن أخى الأمبراطور وزميله

---

(١) Universal Hist., Vol. 4., Chronicle VII, pp. 2194-2195.; Piganiol, L'Empire Chrétien., p. 7; Dill, Roman Society in Gaul., p. 7; Roman Society in the last century of the Western Empire., p. 288.; Previté - Orton, op. cit., Vol. I, P. 51.

(٢) Sinnigen & Boak, op. cit., p. 425.

فى الغرب الأوربى – كان لهم بالمرصاد، فأوقع بهم هزيمة ساحقة بالقرب من مدينة هوربورج الحالية Horburg فى ربيع سنة ٣٧٨، مكنته من استرداد جبهة الراين، وإيقاف نشاطهم العدوانى لفترة بلغ مداها خمسة وعشرين عاماً(١).

وهنا نلاحظ أنه ابتداء من القرن الخامس الميلادى، تكثفت غزوات الجرمان فى منطقة شمالى الغال الممتدة من اللوار حتى الراين، وقد لعبت قبائل الوندال والالان والسويفى دوراً بارزاً فى تلك الغزوات، التى بلغت ذروتها تحت ضغط جحافل الهون بزعامة آتيلا فى عامى ٤٠٧ و٤٠٨م. وتغير الموقف فى النصف الثانى من ذلك القرن، إذ تعرض إقليم الغال، من جهتى الشمال والشرق، لغزوات مستمرة واسعة النطاق أشد خطورة وعنفاً قامت بها شعوب الفرنجة والأليمانى. والحقيقة أن عين القائد الرومانى القدير أئتيوس لم تغفل عن أطماع تلك الشعوب، بدليل أن موته سنة ٤٥٤م أزاح عقبة كأداء من طريقها، وساعدها على التوسع والانتشار فى إقليم الغال، فاستقرت فى المناطق الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الراين(٢)، وعلى طول واديا الماين والنيكر، ومنطقة الغابة السوداء.

على أنه لم يقدر للتحالف القائم بين الفرنجة والأليمانى أن يستمر طويلاً، فقد انقلب إلى تنافس وعداء بين الفريقين، استطاع الفرنجة أن يخرجوا منه ظافرين. ذلك أن الفرنجة فى أواخر القرن الخامس أخذوا يتوسعون فى إقليم الغال على حساب النفوذ الرومانى، وكان لهذا التوسع أثره فى قيام دولة الفرنجة، التى لعب كلوفيس Clovis (٤٨٦ – ٥١١م) دوراً هاماً فى ظهورها كما سنرى بعد قليل. وعلى أية حال، فقد بدأ الصدام عندما استهدفت شعوب الأليمانى الحصول على مستقرات فى سهول إقليم الغال الغنية اقتداء بالفرنجة، فقامت بغزو ضخم سنة ٤٩٦م(٣)، ثم ركزت أعنف هجوم لها على منطقة كولون

---

(١) Lot, The End of the Ancient World., p. 194.; Piganiol, op. cit., p. 206.; Previté-Orton, op. cit., Vol. I, p. 53; Bang, op. cit., p. 210; Manitius, op. cit., pp. 252-253.

(٢) Lot, Les Invasions Germaniques, p. 123.

(٣) Dill, Roman Society in Gaul., p. 86.

Cologne. وعلى بعد أميال قليلة من تلك المدينة التقى الجمعان – الأليمانى والفرنجة – فى معركة ضارية فى تولبياك Tolbiacum. والجدير بالذكر أنه أثناء القتال الدائر بين الفريقين تعهد كلوفيس باعتناق الديانة المسيحية فى حالة انتصاره على أعدائه، وكان جيشه قد تعرض لموقف عصيب أول الأمر، كاد أن يسحق بسببه، الأمر الذى يعيد إلى الأذهان الموقف الذى تناولته أسطورة قنسطنطين العظيم فى معركة جسر ملفيان[1] فى أكتوبر سنة ٣١٢م، وفعلاً أوفى كلوفيس بعهده، إذ سقط ملك الأليمانى صريعاً فى المعركة، وحلت هزيمة ساحقة بقومه، جعلت الغالبية العظمى منهم رعايا لكلوفيس، أما بقاياهم فقد اضطرت إلى الانسحاب إلى راتنيا، وتلا ذلك أن دخلت تحت طاعة ثيودريك العظيم (٤٩٣ – ٥٢٦م) ملك القوط الشرقيين[2]. ولا يخفى علينا أن نجاح الفرنجة فى القضاء على شوكة الأليمانى أسفر عن نتائج بالغة الأهمية، أفسحت المجال لتوسعهم، وتحديد مصير دولتهم ومستقبل الغرب الأوربى.

الفرنجـة : Franks

ظهر الفرنجة خلال النصف الأول من القرن الثالث الميلادى، بنزولهم فى الحوض الأدنى لنهر الراين فى مجموعتين هما : الفرنجة البحريون أو الساليون Salian Franks أى الذين ينزلون قرب البحر، والفرنجة البريون أو الريبواريون Ripuarian Franks أى الذين يقيمون على شاطىء النهر. وقد درج الجغرافيون الرومان فى ذلك القرن على إطلاق اسم فرانكيا Francia على الإقليم الواقع حول الضفة اليمنى لنهر الراين، الممتد من نيمجين Nimegen حتى كوبلنز Co-blentz، والذى كان يشغله منذ أيام المؤرخ تاكيتوس (توفى حوالى عام ١٢٠م) قبائل السيكامبرى Sicambri والشاماڤى Chamavi، والبروكتيرى Bructeri والشاتى والشاوكى Chauci. وبداية كان ظهور الفرنجة الساليين – وهم أشهر

---

(١) Taylor, Medieval Mind., p. 120.

(٢) Dill, op. cit., pp. 86-87; Gregory of Tours, op. cit., pp. 275-276.

الفرنجة – في المنطقة الواقعة شرقي نهر سالا (المعروف الآن باسم الايزيل the Issel في الأراضي المنخفضة)، وهو نفس المكان الذي كان مقراً للسيكامبري؛ ومن المحتمل أنهم اشتقوا اسمهم من ذلك النهر، بيد أننا نلاحظ أن اسم الفرنجة قد غلب على جميع أسماء القبائل الأخرى أكثر من الساليين. ورغم أن اسم الفرنجة Free - men أو Franks كان مثار جدل وخلاف، فقد جرى الاتفاق على أنه لفظ شائع لتحالف غير مستقر للقبائل المقيمة على نهر الويزر والراين الأدنى، وهس Hesse، وبرونزويك Brunswick، وبين تلك القبائل التي ضمها ذلك التحالف صار الفرنجة الساليون أعظمها شهرة(١). ويصف الفرنجة الساليون أنفسهم في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي بأنهم الشعب الجرئ السريع الذي لا تلين له قناة، وكانوا يرون في الشجاعة أسمى الفضائل كلها، ويرددون دوماً أنهم رجال أحرار تجري النبالة في عروقهم، ولم يعتبروا أنفسهم برابرة؛ ومن المعروف أن الفرنجة الساليين كانوا طوال القامة، شقر الوجوه، يجمعون شعرهم الطويل ويعقدونه فوق رؤسهم، ثم يتركونه يتدلى منها في شكل أشبه ما يكون بذيل الحصان، وكانوا يطلقون شواربهم، ويحلقون لحاهم(٢).

ويحدثنا التاريخ لأول مرة عن ذلك التحالف تحت اسم «الفرنجة» في القرن الثالث الميلادي، عندما اجتاحت القبائل التي يضمها ذلك التحالف إقليم الغال سنة ٢٥٣م، وواصلت زحفها جنوباً، فعبرت جبال البرانس حتى الجزء الشمالي الشرقي من أسبانيا، تاركة بصماتها فيما خلفته من حطام وخرائب. وفي تلك الفترة المظلمة من تاريخ الامبراطورية نجح القواد الرومان في إيقاع الهزيمة بقبائل الفرنجة، وردها إلى مواطن استقرارها على الويزر والراين(٣). على أن سكوت الفرنجة لم يستمر طويلاً، فقد انتهزوا فرصة ظهور الفوضى والقلاقل التي قامت في منطقة الراين في عام ٢٥٩م، بسبب اغتيال ابن الامبراطور فاليريان

(١) Dill, op. cit., p. 6; Hodgkin, op. cit., Vol. VII, pp. 3 - 4.

(٢) Simons, The Birth of Europe., p. 35;

ديورانت، قصة الحضارة، مج ٤، جـ١، ص ١٧٩.

(٣) Dill, op. cit., p. 6.

على يد القائد الطموح بوستوموس في كولون، وبادروا بشق طريقهم مرة أخرى إلى إقليم الغال، وظلوا يتجولون في أنحائه، ناشرين الفوضى والخراب، ليس هناك من قوة تستطيع كسر حدة اندفاعهم، وإيقاف اعتدائهم، فالأمبراطورية كانت غارقة آنذاك في لجة مشاكلها الداخلية والخارجية. وفي تلك الأثناء اعتلى بروبس Probus – وهو محارب شجاع – عرش الأمبراطورية، ورغم أن فترة حكمه (٢٧٦ – ٢٨٢م) كانت قصيرة، إلا أنها كانت بمثابة شعاع من الضوء ظهر في تلك الأيام المظلمة من تاريخ الأمبراطورية، بدليل أنه قاد عدة حملات ناجحة في منطقة الراين، أدت إلى تطهير بلاد الغال من الفرنجة[١]، وأخذ الآلاف العديدة منهم أسرى، وأنزلهم إلى مرتبة العبودية، وقد كتب إلى مجلس السناتو في عام ٢٧٧م مزهوا بانتصاراته قائلاً : «والآن يعمل البرابرة من أجلكم ويزرعون أرضكم». ويذكر مؤرخ سيرته أنه قام بنقل الآلاف من الأسرى إلى المناطق المهجورة التي كانت تحتاج إلى تعمير، كما أنه أدخل العديد منهم في الفرق العسكرية، وأرسل بهم إلى بريطانيا وتراقيا وآسيا الصغرى. ورغم ما قام به بروبس فإن خطرهم في الواقع لم يجتث من جذوره[٢]. وكان أن تحسن الموقف على جبهة الراين تحسناً ملموساً، عندما وصل دقلديانوس إلى عرش الأمبراطورية سنة ٢٨٤، فبفضل جهوده الشخصية ومقدرته الفائقة، أمكن إعادة الاستقرار والهدوء إلى تلك الجبهة، بعد أن كبح جماح الجرمان[٣].

على أن المتأمل في تحركات الفرنجة خلال القرن الرابع يلمس مدى الفارق بينها وبين نظيرتها في القرن السابق، فقد اتصفت بطابع الاستيطان أو الاستقرار الدائم، بدلاً من مجرد غزو هدفه الحصول على الغنائم المادية. ومما ساعد على ذلك أن القوات الرومانية كانت في حقيقة أمرها أضعف من أن تستطيع إيقافهم عند حدهم، سواء بطريق القوة أو بطريق الدبلوماسية. ويتضح

---

(١) Bang, op. cit., pp. 201-202.

(٢) Thompson, op. cit., pp. 46-47.

(٣) Universal Hist., Vol. 4., Chronicle XII, pp. 2121-2123.

ذلك من المحاولات التي قامت بها القوات الرومانية في عامي ٣٤١ و٣٤٢م بغرض الوقوف في وجه الفرنجة، ولكنها باءت بالفشل، وترتب على ذلك أن عقد معهم الأمبراطور قنسطانز (٣٣٧ - ٣٥٠م) Constans اتفاقية سلام لم تدم طويلاً، ففي غضون عشرة سنوات اقتحمت قبائل الأليماني والفرنجة جبهة الراين، ثم شقت طريقها إلى إقليم الغال، حيث أخذت مدن ذلك الإقليم الرائعة - مثل كولون وتريف وغيرها من المدن الهامة - تتساقط في أيديها واحدة بعد أخرى، حتى اضطر العديد من أهلها إلى الفرار. ولم يستطع أحد غير جوليان أن ينقذ موقف الأمبراطورية المنهار في جبهة الراين، فقد استطاع على رأس قواته في عام ٣٥٧م - كما رأينا من قبل - أن ينزل الهزيمة بالغزاة، وينجح في استعادة الضفة الغالية لنهر الراين الممتدة من ستراسبورج إلى كولون. لكنه لم يقم بعمل حاسم في العام التالي (٣٥٨م)، عندما اكتشفت السلطات الرومانية أن الفرنجة الساليين قد استقروا في أوقات سابقة في إقليم الغال في المنطقة التي يطلق عليها توكساندريا Toxandria (شمال بلجيكا الحالية) داخل الحدود الرومانية، وكل ما فعله هو أن سمح لهم بالإقامة كمعاهدين(١). ومن الواضح أن مسلك الأمبراطور على هذا النحو، حقق للفرنجة الحصول على أول وطن استقروا فيه داخل أراضي الأمبراطورية؛ وفي ذلك الوطن أخذوا يمارسون الزراعة في جو مفعم بالطمأنينة، الأمر الذي جعلهم ينهضون بدور حضاري هام في الغرب الأوربي فيما بعد.

والجدير بالذكر أن العلاقات بين الأمبراطورية وشعوب الفرنجة لم تكن عدائية دائماً، فالكثير منهم كان على صلة طيبة بروما. كما أن البلاط الأمبراطوري قد ازدحم بالشخصيات الفرنجية المغامرة التي علا شأنها منذ أوائل القرن الرابع الميلادي، وتأثرت بالحضارة الرومانية، حتى لم يعد لديها الإحساس بأصلها الفرنجي أو الشعور بالولاء لمواطنيها من الفرنجة، ووصل

---

(١) Dill, op. cit., p. 7; Sinnigen & Boak, op. cit., p. 456.; Piganiol, op. cit., p. 78, p. 223.

الأمر بها إلى الوقوف ضد أبناء أرومتهم الذين ظلوا برابرة إذا اقتضت مصالح الأمبراطورية ذلك[1]. وقد تبوأ العديد من الفرنجة مناصب عالية في الأمبراطورية، فمنهم من وصل إلى قواد فرسان وحكام أقاليم، كما وصل البعض منهم إلى مرتبة القنصلية، والبعض الآخر إلى مرتبة الأوغسطس زميلاً للأمبراطور. وعلى سبيل المثال لا الحصر، وصل ريكومير Richomer إلى منصب القائد الأعلى للجيوش الرومانية في عهدي جراتيان (٣٧٥ - ٣٨٣م) وثيودوسيوس الأول (٣٧٨ - ٣٩٥)، كما وصل أربوجاستس Arbogastes إلى نفس المنصب، وكان صاحب الفضل في وصول إيوجنيوس Eugenius إلى عرش الأمبراطورية. ولا جدال أن تلك الأسماء وغيرها معاً، تكشف لنا النقاب عن طموح الفرنجة في الربع الأخير من القرن الرابع، ذلك الطموح الذي امتد نطاقه إلى قلب الأمبراطورية[2]، مثلما امتد نفوذهم التوسعي إلى المنطقة الواقعة بين الراين الأدنى والميز والشلد من جهة، وعلى امتداد الموزل الأدنى من جهة أخرى.

وقد ازدادت الروابط بين الأمبراطورية والفرنجة قوة ومتانة منذ القرن الخامس الميلادي، ذلك أنه في الأيام الأخيرة من سنة ٤٠٦م اجتاحت الجموع الجرمانية والمتبربرة جبهة الراين في حشود ضخمة لم يسبق لها مثيل، ثم اندفعت إلى إقليم الغال، الأمر الذي جعل الفرنجة يحاربون إلى جانب القوات الرومانية. على أن الفرنجة لم يقفوا جميعاً وقفة رجل واحد في صف الأمبراطورية، بل هناك من سلك نحوها مسلكاً عدائياً، أملته أحداث الفوضى والاضطرابات التي انتشرت آنذاك. وتؤكد ذلك الشذرات التي حفظها لنا المؤرخ جريجوري مؤلف كتاب «تاريخ الفرنجة» Historia Francorum، فقد روى أن البعض من الفرنجة كان يحارب في صف الأمبراطورية ضد الوندال والأليماني، على حين كان يقوم البعض الآخر بنهب المدن الرومانية، مثل مدينة تريف التي نهبوها وأحرقوها أربع مرات بين سنتي ٤٠٩ و٤١٥م[3].

---

(١) Lot, The End of the Ancient World., p. 249.

(٢) Dill, Roman Society in Gaul., pp. 7-8.

(٣) Ibid., p. 8.

ويعتبر شلوجيو Chlogio أول ملوك الفرنجة الساليين في منطقة توكساندريا ببلاد الغال. وقد نجح ذلك الملك في التوسع ناحية الجنوب الغربي، فاستولى على كامبراي Cambrai بعد أن أنزل الهزيمة بالقوات الرومانية، ثم واصل نشاطه التوسعي حتى وصل نهر السوم Somme. ولكن أئتيوس أعظم القواد الرومان في عصره، لم يلبث أن أوقف أطماعه التوسعية، فقد انتهز فرصة انشغال الفرنجة بزواج أحد زعمائهم شمالي ذلك النهر حوالي سنة ٤٤٧م، وانقض عليهم في سرعة ألحقت بهم خسائر فادحة. ولم يمض وقت طويل حتى توفي شلوجيو في العام التالي (٤٤٨م) بعد حكم دام عشرين سنة، وأتى من بعده ميروفيتش Merovechus وهو الذي أحاطت به مسحة من الغموض والمعجزات، وسميت باسمه الأسرة الميروفنجية التي حكمت الفرنجة حتى عام ٧٥١م. وقد شهدت البلاد الغالية إبان عهده الذي تميز بالضعف حدثاً من أهم الأحداث التاريخية، إذ أتت قبائل الهون المتبربرة، تسبقها شهرة من البطش والقسوة، أجبرت العديد من سكان المدن الغالية على الفرار. والمعروف - كما أسلفنا القول - أن بعض القبائل الجرمانية تحالفت مع القوات الرومانية لدفع خطر الهون المشترك، فانضم الفرنجة الساليون أتباع ميروفيتش إلى جانب القائد الروماني أئتيوس صاحب الدور الهام في تلك المعركة. ويروي المؤرخ جوردان Jordanes الذي عاش في القرن السادس الميلادي أن الفرنجة الساليين حاربوا بشجاعة فائقة جديرة بأصلهم، أما فرع الفرنجة الريبواريين فقد حاربوا تحت راية أتيلا زعيم الهون(١).

وليس من شك في أن الفترة التي أعقبت مقتل الامبراطور فالنتيان الثالث سنة ٤٥٥م تعتبر من أسوأ الفترات الحالكة التي مرت الأمبراطورية بها. وخير صورة توضح ذلك نلمسها في المصير الذي آلت إليه جبهة الراين وقتذاك : فالفرنجة الريبواريون قد استولوا على ضفتي نهر الراين في المناطق الممتدة من

---

(١) Ibid., p. 9.

ليب Lippe إلى لاهن Lahn؛ واستغل البرجنديون فرصة اشتراكهم في معركة شالون مع الرومان، وأخذوا يتوسعون سلمياً، حتى استقر بهم الأمر سنة ٤٨٦م في المنطقة الواقعة حول نهرى الرون والساؤون؛ أما القوط الغربيون فقد صارت تحت أيديهم كل المنطقة الواقعة غربى الغال حتى نهر اللوار؛ أما الفرنجة الساليون، فعلى الرغم من الخسائر الفادحة التى لحقت بهم في معركة شالون، وأضعفت من قوتهم، فقد وصلوا بزعامة شلدريك Childeric عليهم في عام ٤٥٨م إلى تورناى Tournai (بالقرب من حدود فرنسا وبلجيكا الحالية)؛ وإلى الجنوب من منطقة الفرنجة الساليين نجد أن النفوذ الرومانى لازال قائماً في منطقة سواسون Soissons يمثله سياجروس[1]. ومن المشاهد أن المنطقة الأخيرة ظلت في أيدى السياجريين باسم روما، وإن كانوا في الواقع قد استقلوا بها في زحمة الأحداث التى ألمت بالغرب الأوربى آنذاك[2]. ويمكن القول أن سواسون تعتبر بمثابة جزيرة «رومانية» صغيرة، وسط محيط واسع من الممتلكات الجرمانية في إقليم الغال.

وعندما توفى شلدريك سنة ٤٨١م خلفه على عرش دولة الفرنجة الساليين ابنه كلوفيس (٤٨١ - ٥١١م) الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لتلك الدولة. وطبقاً لما أورده المؤرخ جريجورى التورى، تولى كلوفيس العرش في السادسة عشرة من عمره، وعرف بمقدرته الحربية، وشخصيته القاسية التى لا تقم للمبادىء الأخلاقية وزناً، الأمر الذى أهله لزعامة جميع قبائل الفرنجة الساليين من ناحية، ووضع اللبنة الأولى في صرح مملكة الفرنجة الميروفنجية - نسبة إلى جده الأسطورى ميروفيتش - من ناحية أخرى. وقد حرص كلوفيس على توسيع رقعة مملكته، فشرع في عام ٤٨٦م في الزحف بجيوشه بغية القضاء على سياجروس آخر بقايا النفوذ الرومانى في سواسون، وفى القتال الذى دار بين الجانبين، لحقت

---

(١) Ibid., pp. 9 - 10.

(٢) Ibid., pp. 12 - 13.

الهزيمة بسياجروس، واضطر عندئذ إلى ترك فلول جيشه فاراً إلى ألاريك الثانى (٤٨٥ – ٥٠٧) ملك القوط الغربيين فى تولوز طالباً الحماية، ولما بلغ كلوفيس ذلك هدد بشن الحرب على ألاريك إذا لم يبادر بتسليم اللاجىء، ويبدو أن ألاريك لم يكن فى موقف يسمح له بالوقوف ضد كلوفيس، فأذعن لطلبه، وجرى قتل سياجروس على أيدى كلوفيس، وضم سواسون إلى ممتلكاته[١]. كذلك استطاع كلوفيس أن يزيح من طريقه سيجبرت Sigibert ملك الفرنجة الريبواريين، رغم أن هذا الملك قدم له العون خلال حروبه ضد ألاريك القوطى، وأخضع شعب الأليمانى – فى الألزاس – لنفوذه فى عام ٤٩٦م؛ كما انتصر على ألاريك عند فوييه القريبة من بواتييه الشهيرة سنة ٥٠٧م، منهياً بذلك حكم القوط الغربيين فى الغال؛ وبذلك يكون كلوفيس قد حقق الكثير من الانتصارات والأمجاد لقومه، ويكفى أن مااستولى عليه من أراض قبل وفاته، بلغ ما يعادل ثلاثة أرباع إقليم الغال[٢].

على أن أهم خطوة قام بها كلوفيس هى اعتناقه المسيحية على المذهب الكاثوليكى أو الأثناسيوسى، مخالفاً بذلك جميع الطوائف الجرمانية الأريوسية. وكان كلوفيس قد أقدم – مثلما أسلفنا القول – على الزواج من كلوتيلد وهى أميرة برجندية دانت بالمذهب الكاثوليكى؛ ومهما قيل من أن أسباب اعتناقه لذلك المذهب كان بإيحاء منها، أو أنه استمع لنصيحة رئيس أساقفة ريمس الذى أشار عليه بالتحالف مع الكنيسة الغربية حتى يضمن ولاء شعوب إقليم الغال[٣]، أو أنه تعهد باعتناق المسيحية فى حالة انتصاره على الأليمانى سنة ٤٩٦م، فالحقيقة

---

(١) Gregory of Tours, op. cit., pp. 273 - 277.; Simons, The Birth of Europe., pp. 58 - 59.

(٢) Hodgkin, op. cit., Vol. III, p. 9; Taylor, op. cit., p. 119', Lyon & Herbert and Hamerow; op. cit., p. 103.; Schmidt, "Teutonic Kingdoms in Gaul", in Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 286.

فشر، تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص ٣٦ – ٣٧.

(٣) Painter, op. cit., p. 29.

التى لا مراء فيها أن ذلك كله يعنى أنه صار بطلاً من أبطال الكنيسة الكاثوليكية. وإذا كانت تلك الكنيسة قد وقفت إلى جانبه فى صراعه مع الشعوب الجرمانية الأخرى، فإن الغالبية العظمى ممن يدينون بالمذهب الكاثوليكى قد وقفت إلى جانبه أيضاً، الأمر الذى وطد نفوذه، وأوجد رباطاً وثيقاً بينه وبين رعاياه فى إقليم الغال من جهة، ومكنه من الانتصار على منافسيه من جهة أخرى[١].

---

(١) Taylor, op. cit., p. 20.

الفصل الخامس

سقوط الأمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوربى

(٤٧٦م)

كان من الممكن أن تحافظ الأمبراطورية الرومانية على وحدتها وتماسك بنائها، خلال الفترات التى تعرضت فيها لغزوات الشعوب الجرمانية والمتبربرة. ولكن سوء أحوالها الاقتصادية والاجتماعية، فضلاً عن الأباطرة الضعاف الذين تولوا أمرها، وتركوا السلطة الحقيقية فى أيدى قواد كانوا فى معظم الأحيان ينتمون فى أصولهم إلى عناصر جرمانية وبربرية، لها أطماع خاصة تعمل على تحقيقها داخل الأمبراطورية، كل ذلك جعل الأمبراطورية عاجزة عن حماية حدودها عندما اقتحمتها تلك الشعوب. ولا يغيب عن البال أن الخطر الخارجى الذى أحاط بالأمبراطورية لم يأت من جانب الشعوب الجرمانية فحسب، فهناك أيضاً خطر الفرس وغيرهم فى الشرق. فكثيراً ما تطلب الأمر أن تواجه الأمبراطورية الخطرين فى وقت واحد، الأمر الذى كان يؤدى إلى ارتباك تحركات القوات الرومانية، ويجعل من الصعب عليها تغطية الدفاع عن الحدود كلها – وهى مترامية الأطراف – فى وقت واحد. ومن ناحية أخرى، اقتضت العمليات الحربية فى كثير من الأحيان، نقل القوات الرومانية من جبهتى الراين والدانوب لدفع خطر الفرس فى الشرق، ونتيجة لذلك وجدت ثغرات فى حدود الأمبراطورية، استطاع الجرمان والمتبربرون النفاذ منها إلى داخل أراضيها.

ويمثل عام ٣٩٥م بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الأمبراطورية الرومانية استمرت سنوات طويلة، كانت فى روحها وطابعها نذيراً بتداعى الدولة وانهيارها، خاصة فى الجزء الغربى منها. ففى ذلك العام انقسمت الأمبراطورية إلى قسمين منفصلين بعد وفاة الأمبراطور ثيودوسيوس الأول أو العظيم، الأمر الذى جعل الأحداث فى الشرق والغرب تسير فى طريقين مختلفين. هذا من ناحية، ومن

ناحية أخرى، فإن أية معالجة لأحداث سقوط الأمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوربى فى عام ٤٧٦م، لابد أن تبدأ – عن طريق مباشر أو غير مباشر – بعام ٣٩٥م. ومهما يكن من أمر، فقد انقسمت الأمبراطورية إلى قسمين : القسم الشرقى ويشمل تراقيا، وداكيا، وآسيا الصغرى، وسوريا، ومصر، وقد حكم هذا القسم أركاديوس (ت ٤٠٨م) وهو الابن الأكبر، فى الثامنة عشرة من عمره؛ والقسم الغربى ويشتمل على إيطاليا، وبانونيا، ونوريكوم، ودالماشيا، وقد حكم هذا القسم الابن الأصغر هونوريوس (ت ٤٢٣)، وهو فى سن الحادية عشرة. وتجدر الإشارة إلى أن الأمبراطورية سبق أن قسمت على عهد دقلديانوس إلى أربعة أقسام، بهدف الحفاظ على وحدتها، وتيسير حكم أقاليمها المترامية الأطراف، مع احتفاظ الأمبراطور بالسلطات العليا فى يده. ولكن تقسيم الأمبراطورية بعد وفاة ثيودوسيوس ترجع أهميته إلى أن الأمبراطورية ظلت على هذا التقسيم – شرقى وغربى على الرغم من استمرار فكرة وحدة الأمبراطورية. إذ ليس فى الحقيقة ثمة امبراطوريتان، بل امبراطورية واحدة، انقسمت إلى جزئين، تولى حكمها امبراطوران[1]. ويرى البعض أن الأمبراطورية الشرقية أو البيزنطية تكونت بحدودها الاقليمية منذ أن قام ثيودوسيوس بتقسيم الامبراطورية بين ولديه أركاديوس وهونوريوس، لاستحالة إلغاء ذلك التقسيم أو القضاء عليه؛ ولاجدال أن الجرمان لعبوا دوراً هاماً فى تأكيد هذا التقسيم، بوقوع الجزء الغربى من الأمبراطورية الرومانية فريسة فى أيديهم، وليس معنى ذلك أن الجزء الشرقى من تلك الأمبراطورية قد ظل بعيداً عن غزوات الجرمان، فالذى حدث أنه تعرض لغزواتهم، وقاسى الكثير من التدمير والخراب على أيديهم، ولكن الجرمان لم يستقروا فى ولايات ذلك الجزء بسبب السياسة التى سار عليها أباطرة ذلك الجزء بتشجيعهم على الاتجاه غرباً[2].

(١) Katz, The Decline of Rome., pp. 111 - 112.; Vasiliev, The Byzantine Empire., p. 92.;

الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٣٨.

(٢) Brehier, The Life and Death of Byzantium., p. 9; Painter, A Hist. of the Middle Ages., p. 33.

والحقيقة التى لا مراء فيها، أن ثيودوسيوس الأول عندما قسم الأمبراطورية بين ولديه، لم يضع فى حسابه أن تقع الأمبراطورية فريسة الشقاق والصراع بينهما، ذلك أنه أراد لهما دولة موحدة تنعم بالاستقرار والهدوء، يتعاونان على القيام بأعبائها، غير أنه لسوء حظه أن أبناءه وأحفاده لم يرثوا كفاءته ومقدرته، فى الوقت الذى صار فيه مصير الأمبراطورية بشقيها معلقاً بين أيدى قادة ووزراء، وبعبارة أخرى صار الجزء الغربى تحت سيطرة القادة العسكريين، أما الجزء الشرقى فكان مصيره فى أيدى الموظفين المدنيين[١]. ويعتبر القائد الوندالى العظيم ستليكو Stilicho قائد القوات الرومانية فى غرب أوربا من أهم الشخصيات التى ساهمت فى أحداث تلك الفترة، ذلك أنه سرعان ما بسط نفوذه على هونوريوس، حتى أصبح الأمبراطور الصغير دمية فى يده يحركها كيفما شاء؛ حقيقة أن ذلك القائد قد استبد بالسلطة، ولكنه بفضل مقدرته الحربية استطاع الحفاظ على سلامة الأمبراطورية الغربية؛ ثم كان أن حدث نزاع بينه وبين روفينوس Rufinus فى القسطنطينية، أدى إلى وقوعه ضحية مؤامرة، نسج خيوطها خصومه موظفو البلاط الذين كانوا يحقدون عليه ، ورغم أنه لم تثبت إدانته، إلا أن هونوريوس استمع لهمسات الوشاة، وأصدر أمراً بإعدامه فى رافنا Ravenna – مقر إقامة الأمبراطور – سنة ٤٠٨م[٢]، كما سبق أن ذكرنا .

أخذت المصاعب تطل برأسها فى الجزء الغربى من الأمبراطورية بعد مقتل ستليكو، إذ واجه هونوريوس مشكلة إعادة نفوذه فى إقليم الغال، بعد أن ظهر منافس له أصله جندى عادى مغمور الشأن يدعى قنسطنطين، أعلن نفسه أمبراطوراً فى بريطانيا سنة ٤٠٦م، ثم شق طريقه على رأس قواته إلى إقليم الغال، مستهدفاً انتزاعه من الجرمان وضمه إلى ممتلكاته، ولكنه عندما وصل إلى هناك اكتفى بعقد معاهدات هزيلة الشأن مع زعماء الجرمان، ثم زحف جنوباً إلى

---

(١) Downey, The Late Roman Empire., p. 71.

(٢) Universal., Vol. 4, Chronicle XIII., pp. 2200 - 2202.; Boak, A Hist. of Rome., p. 378.

أسبانيا حتى وصل أرغون، وعندما استفحل أمره، وألحق بالأمبراطورية خسائر فادحة، اضطر هونوريوس إلى الاعتراف به زميلاً بلقب أوغسطس. وفي تلك الأثناء وقع اختيار الأمبراطور على قنسطنطيوس، وهو محارب قدير من أصل روماني نبيل، ليشغل منصب ستليكو كقائد للقوات الرومانية، وعهد إليه بمهمة القضاء على قنسطنطين في إقليم الغال، فأسرع إلى هنا سنة ٤١١م، واستطاع القضاء عليه عند مدينة آرال Arles(١). ولم يلبث قنسطنطيوس، بحكم انتمائه إلى صفوة المجتمع الروماني النبيل، أن صار زعيماً للجبهة المناهضة للنفوذ الجرماني في البلاط الروماني، وبلغ من علو المكانة شأناً لم ينافسه فيه أحد، حتى يمكن القول أنه غدا أقرب المقربين إلى قلب الأمبراطور وساعده الأيمن. ولكنه هو الآخر كانت له أحلام خاصة تدور في رأسه، بدأ في تحقيقها بأن أرغم الأمبراطور على أن يزوجه أخته الأميرة جالا بلاسيديا Galla Placidia، وكان القوط الغربيون قد أعادوها للامبراطور بعد أن وقعت أسيرة في أيديهم، وتزوجها ملكهم أثولف طائعة بعد أن وقعت في حبه. أما قنسطنطيوس فكانت لاتميل إليه، ومع ذلك تزوجته على كره منها في عام ٤١٧م؛ وبفضل هذا الزواج صار قنسطنطيوس شريكاً للامبراطور في الحكم برتبة الأوغسطس سنة ٤٢١م؛ غير أن الأقدار شاءت أن تكتب نهاية أحلامه، إذ لم يلبث أن توفي في نفس العام تاركاً وراءه ولداً من بلاسيديا(٢)، قدر له بعد بضع سنوات أن يعتلي عرش الأمبراطورية. وأعقب ذلك حدوث نزاع بين بلاسيديا وأخيها الأمبراطور، اضطرت بسببه إلى اللجوء – سنة ٤٢٣م – إلى أمبراطور الجزء الشرقي ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ – ٤٥٠م)، ومعها أطفالها الصغار لحمايتها(٣).

---

(١) Sinnigen & Boak, A Hist. of Rome., pp. 457-458.; Hadas, A Hist. of Rome., pp. 227-231.

(٢) Bradley, The Goths., p. 105; Previté-Orton, Shorter Camb. Med-Hist., Vol. I, pp. 87-88; Boak, op. cit., pp. 381-382; Hadas, op. cit., pp. 233-234.

(٣) Universal., Vol. 4, Chronicle III, pp. 2201-2204; Previte-Orton, op. cit., Vol. I, p. 88.

ثم حدث أن مات الأمبراطور هونوريوس في عام ٤٢٣م دون أن يعقب أولاداً، فقامت مشكلة حول من يخلفه على عرش الأمبراطورية الغربية. وقد حلت تلك المشكلة بتولية حنا John أحد كبار موظفي البلاط أمبراطوراً، وهو من الشخصيات الضعيفة، لم يستطع الوصول إلى منصبه إلا بمساعدة قسطينوس Castinus القائد العام للجيوش الرومانية في الغرب[١]. ولعل ضعفه كان من الأسباب التي جعلت الأمبراطور الشرقي ثيودوسيوس الثاني يصر على عدم الاعتراف به امبراطوراً، ويتهمه باغتصاب العرش. وفي تلك الأثناء كانت جالا بلاسيديا وابنها الطفل فالنتيان الذي بلغ الخامسة من عمره يعيشان في القسطنطينية، فاستقر رأى ثيودوسيوس الثاني على ارتقاء ذلك الطفل عرش الأمبراطورية الغربية باسم فالنتيان الثالث بوصاية أمه بلاسيديا التي منحت لقب أوغسطسا Augusta، أما حنا المغتصب، فقد تولت قوات الأمبراطورية الشرقية مهمة أقصائه عن الحكم، الذي لم يدم فيه سوى سنتين (٤٢٣ – ٤٢٥م)[٢].

وإبان النزاع الذي نشب حول ارتقاء فالنتيان الثالث (٤٢٥ – ٤٥٥م) عرش الأمبراطورية الغربية، ظهر قائدان على مسرح الأحداث، أحدهما الكونت بونيفاس Boniface حاكم أفريقية، وهو من أصل روماني، له شهرة واسعة في الأعمال الحربية، وصيت ذائع في التقى والورع. والآخر وهو أتيوس الذي عاش فترة وسط قبائل الهون الذين استقروا في أعالي الدانوب، واستطاع أن يحتفظ بعلاقات طيبة معهم. وقد بدأ الصدام بين القائدين عندما وقف أتيوس في صف حنا المغتصب، فأحضر معه جيشاً من الهون للعمل كمرتزقة تحت إمرته، ولكنه وصل إلى إيطاليا بعد أن أقصي حنا عن العرش. وقد لفتت شخصية أتيوس الأنظار، وتركزت الأضواء حولها، عندما استطاع في عام ٤٢٩م التخلص من منافسه فيلكس Felix، وكان الأخير قد خلف قسطينوس في منصب القائد العام

---

(١) Previté-Orton, op. cit., Vol. I, p. 88.

(٢) Lot, The End of the Ancient World., pp. 206-207; Previté-Orton, p. 89.

الجيوش الرومانية في إقليم الغال، وبذلك شغل هو ذلك المنصب، أو بالأحرى صار صاحب النفوذ في الغرب الأوربي[١]. وقد أثار ما فعله أئتيوس مخاوف بلاسيديا، وخشيت من ازدياد نفوذه، ولذلك اعتزمت كسر شوكته والقضاء عليها، واضعة آمالها في الكونت بونيفاس الذي كان مشغولاً في حروبه مع الوندال، وعندئذ جرى استدعاؤه، فحضر مسرعاً إلى إيطاليا في عام ٤٣٢م، وعينته في منصب القائد العام للجيوش الرومانية الذي خلا بمقتل فيلكس. ومن الطبيعي أن ما قامت به بلاسيديا أثار حفيظة أئتيوس، فلم يقف ساكناً، وتصدى لمنافسه بونيفاس بالقرب من أريمنيوم (ريميني) Ariminum في إيطاليا، بيد أنه لقي الهزيمة وأرغم على الفرار إلى أصدقائه الهون. غير أن بونيفاس لم ينعم طويلاً بلذة النصر الذي أحرزه على خصمه، إذ مات عقب ذلك، وبذلك خلا الجو لأئتيوس من وجود منافس له، فعاد على رأس قواته إلى إيطاليا في العام التالي (٤٣٣)، وفي هذه المرة أجبر بلاسيديا على تعيينه قائداً عاماً للقوات الرومانية. ومنذ ذلك الوقت حتى وفاته سنة ٤٥٤م، صار أئتيوس صاحب النفوذ المطلق في الامبراطورية الغربية، يدير شئونها، ويستقبل السفراء الأجانب، ويعقد المعاهدات معهم بدلاً من الامبراطور[٢].

ورغم أن أئتيوس قد حجب الامبراطور فالنتنيان الثالث وأمه بلاسيديا عن السلطة والنفوذ، بحيث لم يعد لهما منهما إلا ظلا ضئيلاً، فالحقيقة التي لانستطيع انكارها أنه حمى الامبراطورية ضد أعدائها من الشعوب الجرمانية والمتبربرة. ذلك أنه وجه كل جهوده للحفاظ على نفوذ الامبراطورية في إقليم الغال، بدليل أنه نجح في كبح جماح الفرنجة في الشمال، والبرجنديين في الشرق، والقوط في الجنوب الغربي. وينسب إليه الفضل في الوقوف ضد الخطر الهوني، وكانت جحافل الهون المتبربرة قد استولت على المنطقة التي تشغلها حالياً هنغاريا ورومانيا وجنوب روسيا. وكما مر بنا من قبل، كان الهون يتألفون

---

(١) Hoyt & Chodorow, op. Cit., p. 60; Boak, op. cit., p. 383.

(٢) Sinnigen & Boak, op. cit., p. 458.; Boak, op. cit., pp. 383.

من شعوب جرمانية متفرقة، نجح آتيلا فى توحيدها تحت زعامته القوية سنة ٤٤٤م، وبدأ يزحف بهم غرباً. ومما يجدر ذكره أن آتيلا ظل محافظاً على صداقته مع أتتيوس حتى ذلك الوقت، بيد أن أطماعه فى أراضى الأمبراطورية، لاسيما بلاد الغال، قلبت الصداقة إلى عداوة. ويظهر ذلك بوضوح عندما طلب آتيلايد هونوريا Honoria أخت الأمبراطور فالنتيان الثالث، واشترط أن تكون بائنتها نصف الأمبراطورية الغربية. وكان أمراً طبيعياً أن يرفض الامبراطور التنازل عن شبر من ممتلكاته لذلك الزعيم المتبربر، فالقى بمطالبه عرض الحائط. وقد رد آتيلا على الأمبراطور بعبور نهر الراين، ثم قام بفرض الحصار العنيف على أورليانز. وأمام ذلك الخطر المشترك – خطر الهون الداهم – وقف الرومان وحلفاؤهم من الجرمان فى إقليم الغال وقفة رجل واحد، كانت بداية النهاية للهون، ونقصد بذلك معركة شالون الفاصلة (٤٥١م) بين الهون بزعامة آتيلا وارتداده عبر الراين[1] يجر أذيال الفشل ويلعق مرارة الهزيمة. غير أن فشل الحملة التى قام بها آتيلا فى إقليم الغال لم يترتب عليها إضعاف معنوياته أو قواته العسكرية، بدليل أنه فى العام التالى (٤٥٢م) زحف بقواته على إيطاليا، ولكن تفشى المجاعات والأوبئة بين قواته، فضلاً عن وصول قوات من الأمبراطورية عززت الموقف، كل ذلك جعل آتيلا، مع ما اتصف به من صلف وكبرياء ووحشية، يصغى للسفارة التى رأسها البابا ليو الأول، ويقبل الانسحاب من أمام أسوار روما. وشاء الموت أن يضع نهاية آتيلا سنة ٤٥٣م، الأمر الذى ألحق التفتت والانهيار بامبراطوريته الواسعة. ويروى المؤرخ جيبون[2] أنه فى الليلة التى مات فيها آتيلا، شاهد الأمبراطور الشرقى مرقيان (٤٥٠ – ٤٥٧) Marcian فى حلمه قوس آتيلا محطماً، وقد تدل هذه الرواية على أن طيف ذلك الزعيم البربرى الرهيب قلما كان يفارق ذهن الأمبراطور الرومانى.

---

(١) Boak, op. cit., pp. 383 - 384; Hadas, op. cit., p. 244.

(٢) اضمحلال الأمبراطورية الرومانية وسقوطها، جـ ٢ ص ٢٩١.

غير أن أنتيوس لم يعش طويلاً بعد أن زال خطر الهون، وكان الأقدار قد أخرت موته طالما ظلت الأخطار تمسك بعنق الأمبراطورية؛ وبعبارة أخرى، يمكن القول أن سلطته المطلقة ظلت باقية بقاء الأخطار، فإذا مازالت ضعف نفوذه، وانحسرت الأضواء من حوله. والحق أن نجم أنتيوس بدأ في الأفول بعد موت جالا بلاسيديا في ٢٧ نوفمبر سنة ٤٥٠م، وكانت قد صفحت عنه وأقرته في منصب القيادة، فتعاون معها مدة طويلة. وبموتها خرج الأمبراطور فالنتنيان الثالث من إسار الوصاية، وخلع عنه رداء الضعف والتبعية. ولكن تربيته التي أنشأتها أمه كانت غير صالحة، فيها الكثير من التدليل والنعومة، أثرت على سلوكه عندما شب عن الطوق، فامتلأ قلبه بالشر، ودأب على مرافقة السحرة والمنجمين، ومطاردة النسوة المتزوجات، ومطارحتهن الغرام، رغم أن زوجته كانت رائعة الجمال[(١)]. ولما كان يكره أنتيوس بدافع من الحقد الشخصي المقوت، فقد ازداد حقده عندما طلب أنتيوس يد يودكيا Eudocia ابنة الأمبراطور لابنه جودنتيوس Gaudentius، ولم يكن بوسع الأمبراطور آنذاك غير إبداء موافقته مرغماً، ولكنه في قرارة نفسه اعتبر ذلك الطلب مهانة لشخصه، وتأكيداً لما كان يساوره من شكوك حول أنتيوس، ولذلك بيت النية على التخلص منه، فاستدرجه إلى القصر الأمبراطوري في ٢١ سبتمبر سنة ٤٥٤م بحجة مناقشته في موضوع الزواج، ولم يكد القائد يدخل القصر، حتى بادره الأمبراطور على الفور بطعنه من سيفه، وكان أول سيف يستله في حياته، تلتها طعنات من رجاله حتى أجهزوا عليه، وقبل أن يعرف أصدقاء أنتيوس المقربون حقيقة ما حدث، استدرجهم الأمبراطور واحداً بعد الآخر وقتلهم بنفس الطريقة[(٢)]. وهكذا انتهت حياة أنتيوس «آخر الرومان العظام»، كما انتهت من قبل حياة القائد الوندالي ستليكو على يد هونوريوس.

---

(١) Hadas, op. cit., p. 238.

(٢) Boak, op. cit., p. 284; Universal., Vol. 4, Chronicle VIII, p. 2267.; Simons, The Birth of Europe., p. 40;

إبراهيم طرخان، نهاية الأمبراطورية الرومانية في الغرب، ص ٧٢.

والحقيقة أن مقتل أئتيوس كان خطأ فادحاً ارتكبه فالنتنيان الثالث، فما أداه من خدمات جليلة للامبراطورية قوبلت – للأسف – بالجحود والنكران. وقد علق مؤرخ معاصر على اختفاء أئتيوس من مسرح الأحداث الأوربية قائلاً : «بموت أئتيوس ضاع الأمل في إنقاذ الامبراطورية وخلاصها»(١). ولكن أنصار أئتيوس لم ينسوا ما حدث لزعيمهم، فانتقموا لقتله بطعن الامبراطور طعنات قاتلة، أثناء مشاهدته بعض الألعاب العسكرية في العام التالي (١٦ مارس سنة ٤٥٥م)(٢). وبمقتل فالنتنيان انتهى حكم آخر امبراطور من أسرة ثيودوسيوس الأول(٣) في شرقي الامبراطورية الرومانية وغربيها، ودخلت الامبراطورية الغربية فترة من الفوضى والاضطراب، لعب فيها القادة العسكريون دوراً بارزاً، إذ صارت أقدار الامبراطورية تحت رحمتهم، بيدهم تولية الأباطرة وعزلهم، بدليل أنه في خلال الواحد والعشرين عاماً التي أعقبت اغتيال فالنتنيان الثالث، اعتلي عرش الامبراطورية الغربية تسع رجال، كان معظمهم ألعوبة في أيدي أولئك القواد(٤). أضف إلى هذا أن الشخصيات الرومانية الطموحة أخذت تحارب بعضها بعضاً أملاً في الوصول إلى العرش، وفي سبيل تحقيق ذلك الأمل لم تتورع عن الاستعانة بالجيوش المرتزقة في إيطاليا، أو بالقبائل الجرمانية المقيمة في الأجزاء الأخرى من الغرب(٥).

بعد مقتل فالنتنيان الثالث استطاع بترونيوس ماكسيموس Petronius Maximus، وهو أحد أعضاء السناتو الطاعنين في السن، الوصول إلى عرش

---

(١) Pirenne, op. cit., p. 30.

(٢) Lot, The End of the Ancient World., p. 208.

(٣) بمقتل الامبراطور فالنتنيان الثالث، انتهى حكم أسرة ثيودوسيوس الأول أو العظيم، وهي الأسرة التي حكمت الجزء الشرقي من الامبراطورية بين سنتي ٣٧٨ و٤٥٢، أي من سنة ارتقاء ثيودوسيوس العرش حتى وفاة بولكيريا Pulcheria ابنة أركاديوس، كما حكمت نفس الأسرة الجزء الغربي بين سنتي ٣٩٤ و٤٥٥، أي من سنة اشتراك هونوريوس مع أبيه في الحكم حتى مقتل فالنتنيان الثالث.

(٤) Downey, The Late Roman Empire., p. 82; Hoyt & Chodorow, op. cit., p. 68.

(٥) Sellery & Krey, Medieval Foundations of Western Civilization., p. 26.

الأمبراطورية الغربية. ولم يلبث ماكسيموس أن أجبر ايودوكسيا Eudoxia أرملة فالنتنيان الثالث على الزواج منه. غير أنه لم يهنأ بالعرش الأمبراطوري سوى أربعة أشهر، إذ حضر جزريك الأعرج الوندالي بأساطيله وجموعه الضخمة قادما من قرطاجنة إلى إيطاليا. ولما رسا علي مصب نهر التيبر فرماكسيموس من اللقاء، ولكن الجموع الغاضبة التي تركها تواجه مصيرها لحقت به، وفتكت به، ومثلت بجثته أشنع تمثيل، ثم ألقت بها نهر التيبر. وتلا ذلك أن دخل جزريك مدينة روما دون مقاومة في ٢ يونيو سنة ٤٥٥م، واستمرت جماعته تقوم بعمليات النهب والسلب والتدمير قرابة أسبوعين، قاست المدينة خلالها أشد مما قاست على أيدى ألاريك القوطي سنة ٤١٠م. وقبل أن يترك ألاريك روما حطاماً، قام بنقل ما في القصر الأمبراطوري من كنوز، وكل ما كان باقياً في بيوت الأغنياء من الحلي والتحف الثمينة[١].

وفي تلك الأثناء ظهرت شخصية القائد أفيتوس Avitus، وهو من أسرة عريقة نبيلة في ولاية أوفيرن Auvergne بإقليم الغال، اشتهر بالمقدرة السياسية والبراعة الحربية، وظهرت براعته في الحروب التي خاضها من أجل الأمبراطورية الغربية، لاسيما معركة شالون الشهيرة، فقد لعب دوراً هاماً في الحصول على مساعدة حلفائه القوط الغربيين، ثم هو من ضباط القائد العظيم أئتيوس الذين رافقوه طيلة ثلاثين عاماً؛ ونظراً لكفاءته ونجاحه في المهام التي كلف بها، فقد ارتقى إلى وظيفة الحاكم البريتوري في الغال، وهي وظيفة ذات اختصاصات قضائية، ثم أنعم عليه الأمبراطور ماكسيموس بتعيينه في منصب القيادة العامة للقوات الرومانية في بلاد الغال، وبذلك صار صاحب الكلمة النافذة في شئون الأمبراطورية[٢].

---

(١) Hadas, op. cit., p. 242; Bradley, The Goths, pp. 114 - 115; Lot & Dfister and Ganshof, Histoire du Moyen Age., p. 69.

(٢) Hadas, op. cit., p. 243; Lot & Dfister, op. cit., p. 78; Dill, Roman Society in the Last Century, p. 325.

فكر أفيتوس في أن يملأ العرش الأمبراطوري الشاغر دون إراقة دماء، ويبدو أنه قبل أن يقدم على ذلك طلب إعانة حلفائه القوط الغربيين، فأظهروا له استعدادهم لمساعدته، ويؤكد ذلك أنهم عقدوا مجلساً في مدينة آرل Arles (عاصمة الغال) حضره زعماء الغال والرومان وقادة الجيش الروماني، نادى بإعلان أفيتوس أمبراطوراً على الرومان في ٩ يوليو سنة ٤٥٥م، ووافق أفيتوس، وبذلك صار ذلك الأمبراطور صنيعة القوط الغربيين؛ ولم يلبث أن توجه أفيتوس إلى إيطاليا، فوصل روما في ٢١ سبتمبر من نفس العام؛ وحتى لا يبدو في صورة مغتصب للعرش، كان لابد له من الحصول على موافقة الأمبراطور الشرقي مرقيان (٤٥٠ – ٤٥٧)، فوافق الأخير على مضض بعد أن وجد نفسه عاجزاً عن الوقوف أمام أقوى شخصية في الغرب الأوربي، يساندها القوط الغربيون آنذاك[١]. على أنه بعد انقضاء قرابة عام على أفيتوس في منصب الأمبراطور، حدثت مجاعة في روما بسبب انقطاع إمدادات القمح من أفريقية، أدت إلى حرج موقف أفيتوس، في الوقت الذي دبرت فيه مؤامرة ضده، قام بها ريكيمر Ric-emer أحد قادة الفرق البربرية والمسئول عن حماية إيطاليا، مع صديقه ماجوريان Majorian أحد النبلاء الرومان العسكريين، وسرعان ما ظهرت تلك المؤامرة في صورة عصيان، جعل أفيتوس يقرر أن يتوجه إلى إيطاليا القضاء عليه، ولكن الموقف لم يكن في صالحه، إذ انفض الناس من حوله، في وقت كان صديقه ثيودوريك الثاني ملك القوط الغربيين متغيباً في أسبانيا على رأس جموعه، لتطهيرها من شعوب السويفي الجرمانية. وكان أن أكره ريكيمر الأمبراطور على التنازل عن العرش[٢].

وعلى أي حال، فمنذ عام ٤٥٦م، وهو العام الذي عزل فيه أفيتوس، حتى عام ٤٧٢م، سيطر ريكيمر طوال تلك الفترة على مصير الأمبراطورية الغربية[٣]،

---

(١) Lot & Dfister and Ganshof, op. cit., pp. 78 - 79.

(٢) Lot & Dfister and Ganshof, op. cit., p. 79.

(٣) Lot & Les Invasions Germaniques., p. 115; Taylor, op. cit., p. 83.

وصار صاحب النفوذ الفعلي فيها يقيم العروش ويثلها، يصنع الأباطرة ويخلعهم. وبمعنى آخر، أضحت الأمبراطورية في قبضة القواد العسكريين؛ الذين يأتى ريكيمر في مقدمة سلسلتهم، ومن ناحية المولد، فهو - أى ريكيمر - من أب ينحدر من بيت أمارة سويفي، وأمه ابنة واليا[١] Wallia، الذى أسس مملكة القوط الغربيين في تولوز سنة ٤١٨م، وفضلاً عن ذلك، له أخت قد تزوجت من جوندياك Gundiac ملك برجنديا، صار ابنها جندوباد بعد أن نفاه أخوه شلبريك الثانى، يده اليمنى، ثم خليفته في روما. وجندوباد هذا هو الذى قدر له بعد ذلك الرجوع من منفاه إلى مملكة برجنديا، والإطاحة بأخيه، وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى ذلك، فإن الغرض من التكرار هذه المرة تبيان أن ريكيمر لم يكن مجرد مغامر بربرى، ولكنه من ناحية المنشأة ونبل المحتد، يضارع في أصله أعظم النبلاء الرومان عراقة. ويكفى ريكيمر فخراً أنه ينتمى إلى النبالة الجرمانية التى كرست حياتها لخدمة الأمبراطورية، وهى في ذلك تختلف عن الارستقراطية الرومانية - سواء في الغال أو إيطاليا - التى لم يكن لها خبرة واسعة بفنون الحرب آنذاك، بعد أن سحرتها الثقافة الأدبية، فعاشت في عالم الوهم، وغرقت في لجة الضعف، تحاول إحياء ماض اندثر منذ زمن بعيد، بعكس الزعماء البرابرة، الذين كانوا يعيشون في عالم الحقيقة القاسية، مؤمنين بأن المستقبل لهم، وهو عالم يناقض تماماً عالم الارستقراطية الرومانية. ومن المعروف أن ريكيمر كان محارباً عظيماً، له سجل حافل بالأمجاد الحربية، وأيسر ما يقال في هذا الشأن أنه كان ينتمى إلى مدرسة أتتيوس، تلك المدرسة التى أنجبت العسكريين العظام، ممن كان لهم الفضل في إحياء الأمجاد العسكرية من ناحية، ومحاولة إرجاع النفوذ الرومانى إلى ما كان عليه من ناحية أخرى[٢]. وقد تدرج ريكيمر في المناصب، فحصل أولاً على لقب كونت، ثم القائد العام للقوات الرومانية، وأخيراً حصل على لقب البطريق Patriciate - عام ٤٥٧م - الذى

---

(١) Lot & Dfister and Ganshof, op. cit., p. 79., Barker, "Italy and the West", p. 422.

(٢) Dill, Roman Society in Gaul., p. 18.

يعطى صاحبه أسمى منزلة بعد الأمبراطور؛ وفى الفترة التى ارتفع فيها شأن ريكيمر تقلد المنصب الأمبراطورى خمسة من الأباطرة، اثنان منهم رفعهم إلى العرش، وأربعة منهم ثل عروشهم أو حكم عليهم بالموت[١].

بعد أن عزل ريكيمر، صار المنصب الأمبراطورى فى الأمبراطورية الغربية شاغراً، وكان بوسع ريكيمر أن يتقلده، ولكن أصله البربرى حال دون تحقيق تلك الرغبة. وعلى أى حال، فقد مكن ريكيمر صانع الأباطرة فى الغرب الأوربى صديقه القدير ماجوريان Majoran من ارتقاء عرش الأمبراطورية الغربية، لاسيما بعد أن حاز ماجوريان إعجاب الرومان بانتصاره الساحق على قبائل الأليماني. ومنذ اليوم الأول الذى تقلد فيه ماجوريان المنصب الأمبراطورى لم يدخر وسعاً فى إعادة الأمن والنظام إلى الولايات، كما أنه أحس بما تعانيه تلك الولايات من تدهور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، فعول على تخفيف الأعباء عن كاهلها، ومن ثم أصدر عدة قوانين تساعد على ذلك[٢]. على أنه لم يوفق فى مشروعه الحربى الضخم ضد الوندال، الذين حطموا أسطوله أمام قرطاجنة سنة ٤٦٠م، بفضل دهاء زعيمهم جنزريك. ومما يؤسف له أن أعمال ذلك الأمبراطور وجهوده من أجل رفعة الأمبراطورية وسعادتها لم ترض أطماع ريكيمر صاحب السلطة الفعلية، كما أنها لم تستطع أن تنقذه من ثورة عارمة قام بها أتباع ريكيمر ضده قرب مدينة تورتونا Tortona عند سفح جبال الإلب، انتهت إلى إرغامه على التنازل عن العرش فى ٧ أغسطس سنة ٤٦١م، وبعد خمسة أيام من تنازله أشيع موته بسبب مرض الدوسنتاريا؛ وقد اختلفت الآراء حول موته، والراجح أنه قتل غدراً بإيعاز من ريكيمر الذى أخذته الغيرة من نشاطه[٣]. ويلمس المتتبع لأحداث الأمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوربى أن ماجوريان

(١) Ibid., pp. 18 - 19.

(٢) Dill, Roman Society in the last Century, p. 340; Downey, op. cit., p. 83.

(٣) Bréhier, The Life and Death of Byzantium., p. 12; Hadas, op. cit., p. 243; Barker, op. cit., pp. 423 - 424.;

جيبون، اضمحلال الأمبراطورية، جـ ٢ ص ٣٠٦ – ٣١١.

كان آخر أباطرة تلك الأمبراطورية حقيقة، ذلك أنه كان يحكم إيطاليا، وجزءاً عظيماً في إقليم الغال، وبعض أجزاء من أسبانيا، أما الأباطرة الذين تقلدوا عرشها خلال الخمسة عشر عاماً الباقية من عمرها، فقد كانوا في الواقع أشباحاً هزيلة ليس لها من الأمر شيء، بدليل أنها لم تمارس إلا نفوذاً صورياً في إيطاليا فقط(١).

ولم يلبث ريكيمر صانع الأباطرة أن قلد صنيعته ليبيوس سيفيروس (٤٦١ – ٤٦٥م) Libius Severus المنصب الأمبراطوري. والواقع أننا لا نعرف عن ذلك الأمبراطور شيئاً إلا أنه كان أشد أباطرة تلك الفترة غموضاً وأقلها شأناً، وليس أدل على ذلك من أن القسطنطينية لم تشأ الاعتراف به امبراطوراً، كما أن الرومان في الغال لم يعترفوا به فحسب، بل اتجهوا بأنظارهم نحو الأمبراطورية الشرقية؛ ومهما يكن من أمر، فقد توفي سيفيروس في عام ٤٦٥م، وظل ريكيمر يمارس نفوذه وسلطته في الأمبراطورية الغربية(٢).

ولم تكن الأحوال التي أحاطت بالجزء الشرقي من الأمبراطورية تختلف كثيراً آنذاك عن أحوال الجزء الغربي منها. فبعد وفاة الأمبراطور مرقيان Marcian تولى عرش الأمبراطورية الشرقية ليو الأول (٤٥٧ – ٤٧٤) Leo I، وهو ضابط من أصل داكي، يرجع الفضل في تعيينه إلى أسبار Aspar الآلاني الأصل، صاحب السلطة الفعلية في الأمبراطورية الشرقية، وينافس نفوذه نفوذ ريكيمر في الغرب. ومن الملاحظ أن قوة أسبار كانت تستند إلى القوط الشرقيين، الذين ازدادت أعدادهم في الشرق بعد زوال امبراطورية الهون، بالإضافة إلى أن الأمبراطورية اتفقت معهم على إمدادها بالرجال وقت الحاجة نظير مبلغ سنوي ضخم(٣). وكان لأسبار آماله وأطماعه الخاصة في الأمبراطورية الشرقية، فقد

---

(١) Lot & Dfister and Ganshof, op. cit., p. 83.

(٢) Dill, Roman Society in Gaul, p. 19; Roman Society in the Last Century, p. 340; Downey, op. cit., p. 83.

(٣) Bradley, The Goths., p. 133.

كان يأمل في وصول ابنه باتريكيوس Patricius إلى العرش، ولذلك اتفق مع ليو الأول على ترقيته إلى منصب قيصر طبقاً للنظام الذى أوجده دقلديانوس، حتى يتمكن الابن من الوصول إلى العرش فيما بعد[١]. غير أن ليو لم يكن فى الواقع غافلاً عما يعتمل فى ذهن أسبار، فقد عزم منذ اليوم الأول الذى ارتقى فيه العرش على الحد من نفوذ أسبار والقوط الشرقيين معاً، وشرع فى تحقيق رغبته مستعيناً بالأيسوريين المحاربين Isaurians وهم أصلاً أهل جبال مرتفعات أيسوريا بجنوب آسيا الصغرى، فى المنطقة الواقعة بين قيليقية وفريجيا، عرفوا بالمغامرة والميل إلى الحرب، وكانوا أشد مراساً من البرابرة أنفسهم؛ ومن زعمائهم الذين عملوا تحت طاعة ليو الأول بالقسطنطينية تراسيكوديسا Trara-sicodissa، الذى اتخذ لنفسه اسماً يونانياً هو زينون Zeno، إحياء لذكرى أحد مواطنيه الذى وصل إلى منصب هام فى الأمبراطورية من قبل، ولم يلبث أن عينه الأمبراطور قائداً عاماً للجيوش فى الشرق magister militum per Orien-tem وزوجه من كبرى بناته أريادن Ariadne سنة ٤٦٦م.

وفى تلك الأثناء ظهر خطر البحرية الوندالية التى دأبت على تهديد تجارة ومواصلات الأمبراطورية فى مياه البحر المتوسط. وكان لظهور ذلك الخطر أثره فى تغيير سياسة ريكيمر تجاه الأمبراطورية الشرقية، بغية الحصول على مساعدتها ضد ذلك الخطر. وترتب على ذلك أن صار الشطر الشرقى من الأمبراطورية يهتم بما يجرى من أحداث فى الغرب. وبعبارة أخرى غدا الأمبراطور الشرقى يمارس نفوذاً اسمياً على الغرب، إذ ظل النفوذ الحقيقى فى أيدى ريكيمر. ولما كان العرش الأمبراطورى الغربى مازال شاغراً بعد وفاة سيفيروس سنة ٤٦٥م، فقد وقع اختيار ليو الأول فى عام ٤٦٧م على أنثميوس Anthemius لشغله، كما تقرر فى الوقت نفسه تجهيز حملة ضخمة ضد مملكة الوندال في أفريقية، وحتى يتأكد التعاون بين الأمبراطوريتين - الشرقية والغربية - جرى زواج ريكيمر من أبنة أنثميوس. على أن ما لقيته الحملة من فشل ذريع،

---

(١) Lot, The End of the Ancient World., p. 218.

علاوة على ما سببته من خسائر جسيمة في الأرواح والأموال، أفلست خزانة الأمبراطورية الشرقية، أدى ذلك كله إلى إحباط سياسة الوفاق القائمة بين شطرى الوادى من ناحية، وازدياد الكراهية للجرمان من ناحية أخرى. وفي وسط تلك الظروف اتهم أسبار وابنه بالخيانة في كارثة الأسطول الرومانى أمام قرطاجنة، وانتهى الأمر إلى إعدامهما، والتخلص من جميع أفراد أسرتهما في عام ٤٧١م(١).

وبينما كانت الأحداث تجرى في الأمبراطورية الشرقية على هذا النحو، أخذت العلاقات بين ريكيمر وأنثميوس تسوء، ذلك أن أنثميوس ضاق ذرعاً بالقيود التي فرضها ريكيمر، وعزم على التحرر من سطوته، في الوقت الذى أثارت حفيظة ريكيمر صلات التعاون والتقارب بين الأمبراطور الشرقى وصنيعته أنثميوس. ولم تلبث روح العداء أن ظهرت سافرة بين الشخصيتين، فجمع ريكيمر أتباعه حوله، واتخذ من ميلان مركزاً لعملياته الحربية في عام ٤٧١م، وهناك بعد أن اطمأن إلى قوته وموقفه، أعلن رفضه الاعتراف بالأمبراطور الشرقى وصنيعته الأمبراطور الغربى أنثميوس، وبادر بتعيين الارستقراطى أوليبريوس Olybrius ليجلس على عرش الأمبراطورية في الغرب(٢). وكان أوليبريوس يعيش في القسطنطينية، بيد أن الأمبراطور الشرقى شك في تصرفاته وإخلاصه، فعقد العزم على التخلص منه، ومن ثم أرسله إلى روما في ربيع سنة ٤٧٢م بحجة تسوية الموقف بين أنثميوس وريكيمر، في الوقت الذى كتب فيه رسالة مختومة إلى أنثميوس يطلب منه قتله ولكن تلك الرسالة وقعت في أيدى ريكيمر، فأخبر أوليبريوس بأمرها، الأمر الذى جعل الاثنين يتفقان على العمل يداً واحدة ضد الأمبراطور الشرقى، وانطلاقاً من هذا المبدأ رفع أوليبريوس إلى عرش

---

(١) Brooks (E.W.), The Emperor Zenon and the Isaurians., (London, 1893), pp. 212 - 216.; Bréhier, op. cit., p. 10.; Hodgkin, Italy and her Invaders., Vol. III., p. 36.; Barker, op. cit., pp. 425 - 426.

(٢) Downey, op. cit., p. 83.;

إبراهيم طرخان، نهاية الأمبراطورية الرومانية، ص ٨٤.

الأمبراطورية الغربية[١]، وعلى أى حال، استطاع ريكيمر أن يدخل روما ظافراً، ويقضى على أنثميوس؛ غير أن ريكيمر لم يلبث أن مات في نهاية أغسطس سنة ٤٧٢م بسبب نزيف أصابه، وتبعه بشهرين فقط صنيعته أوليبريوس الذى لم تزد مدة حكمه عن ثلاثة شهور.

بعد أن مات ريكيمر صانع الأباطرة خلفه ابن أخته الأمير البرجندى جندوباد، الذى رفع جليكريوس Glycerius إلى عرش الأمبراطورية الغربية فى رافنا، ولكن القسطنطينية لم تعترف به امبراطوراً، لأنه لم يكن متعاطفاً مع سياستها، واختارت بدلاً منه يوليوس نيبوس (٤٧٣ – ٤٧٥م) Julius Nepos حاكم دلماشيا ليرتقى عرش الغرب. وفعلاً أبحر إلى إيطاليا فى ربيع عام ٤٧٤م، واستطاع إزاحة جليكريوس دون صعوبة، غير أن أورستيز البانونى Orestes قائد الجيش الجديد لم يلبث أن قام بثورة ضد نيبوس أطاحت به، وأرغمه على الهرب في ٢٨ أغسطس سنة ٤٧٥م، والعودة إلى ولايته دلماشيا[٢]. ولسنا هنا فى مجال الإفاضة فى أحداث تلك الفترة المظلمة من تاريخ الأمبراطورية الغربية، فكل ما يهمنا من أمرها شخصية أورستيز. الواقع أنه كان رومانيا، لم تجر فى عروقه الدماء الجرمانية، دخل فى خدمة الزعيم الهونى أتيلا عندما كان صغيراً، حتى صار سكرتيره، وفى عام ٤٨٨ أرسله أتيلا على رأس سفارة إلى الأمبراطور الشرقى ثيودوسيوس الثانى، ثم عاد إلى إيطاليا، واستطاع بفضل شجاعته ومهارته التدرج فى مناصب الجيش، حتى وصل إلى منصب القائد العام للجيش الرومانى، وبذلك صار صاحب السلطة الفعلية فى الأمبراطورية الغربية. وكان بإمكان أورستيز أن يصل إلى عرش الغرب، بعد أن فر نيبوس إلى دلماشيا، ولكنه آثر أن يبتعد عن ذلك المنصب، كى يتجنب ما يجره عليه من متاعب. وفضل أن يهدى التاج الأمبراطورى لابنه روملوس أوغسطولوس Romulus Augustulus فى ٢٩ أكتوبر سنة ٤٧٥م، وهو صبى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره آنذاك،

---

(١) Hadas, op. cit., p. 243.; Barker, op. cit., pp. 428 - 429.

(٢) Lot, Les Invasions Germaniques., p. 116; Bradley, The Goths, p. 126.

لا يمتلك من المواهب سوى جمال الطلعة[١]، وإن ظل أورستيز فى حقيقة الأمر هو الحاكم الفعلى، والمهيمن على مقاليد الأمبراطورية من وراء ستار.

والواقع أن الأمبراطورية الغربية لم تعد لديها القدرة آنذاك على الاحتفاظ بكيانها وسط العواصف الشديدة التى هبت عليها من كل جانب. ففى عام ٤٧٦م أخذت جموع الجرمان والبرابرة تتدفق على إيطاليا من الشمال الشرقى بحثاً عن الحظ والمغامرة، وامتلأت صفوف الجيش بالمعاهدين منهم، مثل قبائل الهيرولى، والقوط، والروجيين Rugii، والآلان، والأسكيريين، والتورسيلنج Turcilingi وغيرهم[٢]. غير أن أولئك المعاهدين سرعان ما استفحل خطرهم فى إيطاليا، وصاروا مصدراً للفوضى والقلاقل، ودفعهم الجشع إلى التمرد وطلب المزيد، فتطلعوا إلى البحث عن مواطن يلتمسون منها سبل العيش والإقامة، أسوة بما فعلته القبائل الجرمانية الأخرى التى أقامت كيانها السياسى فى صورة ممالك متمتعة بالاستقلال[٣]. وبدأت المتاعب تأتى من قبل أولئك الجرمان عندما طالب زعماؤهم فى الجيش برفع رواتبهم وزيادة مخصصاتهم، ولما كانت خزانة الدولة خاوية، رأوا أن يطلبوا والحالة هذه ثلث أراضى إيطاليا من أورستيز. وهنا وقف أورستيز موقفاً يدعو إلى الإعجاب، ذلك أنه لم ينس أصله الرومانى فى ذلك الوقت العصيب، ورأى أن واجبه يقتضى الحفاظ على حياة السكان الآمنين من الرومان، والعمل على إبعاد شبح الجوع والفناء عن إيطاليا، ولهذا قابل مطالب زعماء الفرق الجرمانية بالرفض[٤]. وفى أثناء ذلك استغل أودواكر الأسكيرى Odoaker الموقف، ودعا زملاءه زعماء الفرق الجرمانية للانضواء تحت لوائه، كى يحقق لهم ما يصبون إليه من آمال. وكان أن التفوا حوله، وبادروا بإعلانه ملكاً عليهم فى ٢٣ أغسطس سنة ٤٧٦م. ولم يهدأ له بال إلا بقتل أورستيز فى إحدى

(١) Lot, op. cit., p. 116.; Bradley, op. cit., pp. 126 - 127.; Barker, op. cit., pp. 429 - 430.

(٢) Taylor, op. cit., pp. 113 - 114.; Barker, op. cit., p. 430.

(٣) Pirenne, op. cit., p. 30; Hadas, op. cit., p. 117.; Barker, op. cit., p. 430.

(٤) Bradley, The Goths., pp. 127 - 128.

الفتن التي شبت في روما في ٢٨ أغسطس من نفس العام. أما الامبراطور الصغير رومولوس أوغسطولوس، فقد عفا عنه أودواكر، ثم قام بعزله، وسمح له بالإقامة في قصر في كمبانيا، وقرر له معاشاً سنوياً طيلة حياته(١). ومن المصادفات العجيبة أن مؤسس روما العظيمة كان اسمه رومولوس، الذي اتفق في الاسم فقط مع آخر امبراطور جلس على عرش الأمبراطورية الغربية.

والجدير بالذكر أن أودواكر لم يستبح لنفسه اغتصاب لقب الأمبراطور بعد أن عزل آخر أباطرتها، لأن ذلك الأمر كان فوق طاقة زعيم متبربر، ليس له الحق في حمل ذلك اللقب(٢)، لاسيما بعد أن فقد اللقب جاذبيته وبريقه منذ حوالي سبعين عاماً(٣). ولذلك اكتفى ببعث شارات الأمبراطورية إلى زينون (٤٧٤ – ٤٩١) الأمبراطور الشرقي المعاصر، رمزاً لولائه، وحثاً له على الاعتراف به حاكماً نيابة عنه في إيطاليا، واكتفى بأن أطلق على نفسه ملك الجرمان في إيطاليا(٤).

وهكذا جنحت شمس الأمبراطورية الرومانية في الغرب إلى المغيب، وولى مجدها، وضاعت عظمتها، وقدر لروما ذات الماضي العريق أن تشهد انحسار الأضواء عن تلك الأمبراطورية، وأسدل الستار عليها، بعد سبعة قرون من تاريخها الجمهوري، وخمسة قرون من تاريخها الأمبراطوري، وبعد أن عاصرت على مدار السنين أباطرة، منهم من كان شجاعاً قوياً حافظ على مجدها وعظمتها، ومنهم من كان ظلا باهتاً، لم يكن اسمه إلا نقشاً على الرمال أذرته الرياح.

وعلى أي حال، إذا حاولنا أن نلقي نظرة على خريطة أوربا السياسية عام ٤٧٦م من البحر الادرياتي شرقاً إلى خليج بسكاي غرباً، ومن مصب نهر الراين

---

(١) Bradley, The Goths., pp. 128 - 129.; Lot, op. cit., pp. 117 - 118; Taylor, op. cit., p. 114.

(٢) Cantor, Medieval Hist., p. 120.

(٣) Deanesley, A Hist. of Early Medieval Europe., p. 8.

(٤) Hadas, op. cit., pp. 244 - 245.

شمالاً إلى طرابلس جنوباً، لشاهدنا خليطاً من الممالك التي تأسست في المناطق الآتية :

١ – دولة القوط الغربيين الذين سيطروا على أسبانيا وجنوب الغال، وبذلك امتدت مملكتهم من اللوار حتى جبل طارق، وعاصمتهم تولوز.

٢ – مملكة الوندال في أفريقية وجزر البحر المتوسط الغربية، وعاصمتها قرطاجنة.

٣ – مملكة الفرنجة في شمال الغال، حول وديان الموز والموزل والراين الأعلى.

٤ – مملكة البرجنديين في وديان الرون والساون حتى أقاصي أعاليهما، وعاصمتها ليون.

٥ – مملكة أودواكر في إيطاليا.

٦ – مملكة السويفي في البرتغال وشمال أسبانيا[١].

٧ – مملكة الروجيين في الأقاليم الواقعة الآن في بافاريا والنمسا، وقد ظلت قائمة حتى قضى أودواكر عليها (٤٨٧ – ٤٨٨م)[٢].

أما المناطق التي ظلت في أيدي النفوذ الروماني من الناحية الاسمية، فكانت :

١ – مملكة سياجروس التي استقل بها القائد الروماني في شمال الغال وعاصمتها سواسون، وقد ظل نفوذه قائماً حتى استطاع كلوفيس ملك الفرنجة سنة ٤٨٦م القضاء عليها.

٢ – بريتاني : باستيلاء السكسون على الجنوب الشرقي من الجزيرة البريطانية، هاجر الكلتيون أهل الأقاليم الجنوبية من تلك الجزيرة، فراراً من السكسون

---

(١) Pirenne, op. cit., p. 31; Deanesly, op. cit., p. 2.

(٢) على الغمراوي، ملحمة البطولة الجرمانية، ص ٤٢ – ٤٣.

إلى جهات أرموريكا بأقصى الشمال الغربي من فرنسا الحالية، التي أطلق عليها منذئذ بريتانى تحريفاً من اسم بريطانيا القديم[١].

٣ - ولاية بريطانيا : لم تتخل عنها روما رسمياً، ولكنها تركت البريطانيين وشأنهم للدفاع عن أنفسهم، بما استطاعوا من وسائل المقاومة ضد الإنجليز والسكسون، خاصة بعد أن سحبت الفرق الرومانية من الجزيرة البريطانية للذود عن كيان الأمبراطورية نفسها[٢].

٤ - ولاية دلماشيا المطلة على البحر الأدرياتي.

---

(١) فشر، تاريخ أوربا العصور الوسطى، القسم الأول، ص ٣١.

(٢) رواس، التاريخ الإنجليزى، ص ١٧ - ١٩؛ نظير سعداوى : تاريخ إنجلترا، ص ٣١ - ٣٢.

بعض الآراء حول سقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب الأوربي

من الثابت أن حدود الأمبراطورية الرومانية قد تعرضت لغزوات الجرمان منذ عهد ماريوس (ت ٨٦ ق.م)، واشتدت تلك الغزوات في القرنين الثالث والرابع الميلاديين، متخذة طابعاً عنيفاً، فما من ولاية إلا واجهت الخراب، حتى إيطاليا نفسها؛ ولكن تلك الغزوات رغم عنفها وضخامة أعداد الغزاة التي قاموا بها، كانت الجيوش الرومانية قادرة على مواجهتها في حينها، ونقل المعارك إلى أراضي الجرمان فيما وراء الحدود أحياناً. أضف إلى هذا أن ما خلفته تلك الغزوات من تدمير وخراب في مناطق عديدة من الأمبراطورية، لم يؤثرا على مسيرتها، إذ سرعان ما كانت تقف على قدميها، مواصلة حياتها المألوفة[1]. غير أن تلك الغزوات ابتداء من القرن الخامس الميلادي أخذت شكلاً جديداً اختلف في طابعه عن غزوات القرنين الثالث والرابع، فقد قامت بها جموع ضخمة من الجرمان والبرابرة مثل الفرنجة والأليماني والسكسون والقوط وغيرهم. وقد أدت تلك الغزوات إلى تدمير ولايات ومدن طالما نعمت بالاستقرار والحضارة في ظل السلام الروماني، الأمر الذي يجعل المرء يتساءل : هل أتت النهاية الأليمة حقاً؟ نهاية الأمجاد الحافلة ومختلف الجوانب الحضارية التي أعطتها الأمبراطورية للعالم.

ورغم أن الأمبراطورية الرومانية في الغرب الأوربي قد سقطت أواخر القرن الخامس الميلادي، ولم يعد لوجودها السياسي القديم بقاء، إلا أن فكرة تلك الأمبراطورية ظلت راسخة في الأذهان طوال العصور الوسطى. وليس أدل على ذلك من أن الأباطرة الشرقيين اعتبروا أنفسهم امتداداً للأباطرة الرومان السابقين، وما حدث في رأيهم سنة ٤٧٦م أنه لم يعد ثمة سوى امبراطور واحد للأمبراطورية يحكم في الجزء الشرقي منها. هذا ولم تعدم الأمبراطورية الغربية

(١) Dill, Roman Society in the Last Century., pp. 285 - 290.

بعد زوالها بعض الأباطرة العظام، الذين وضعوا نصب أعينهم ضرورة إحيائها، فحاولوا، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل. ومن أولئك الأباطرة جستنيان في القرن السادس الميلادي، الذي بذل قصارى جهده بغية إعادة الامبراطورية إلى سابق العهد بها، قوية موحدة، ولكن الظروف كانت أقوى منه. كذلك عندما منح شارلمان اللقب الأمبراطوري في ليلة عيد الميلاد سنة ٨٠٠م في كنيسة القديس بطرس في روما، لم تستطع أمبراطوريته أن تلعب نفس الدور الذي لعبته الامبراطورية الرومانية القديمة، فهي فضلاً عن سيطرتها على الكنيسة الغربية، لم يتعهد نفوذها إقليم الغال، وأصابها التفكك عقب وفاته سنة ٨١٤م. ومرة أخرى ظهرت فكرة إحياء الامبراطورية مرة أخرى في ألمانيا، على يد أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ - ٩٧٣) حفيد شارلمان، غير أن تلك الامبراطورية التي عرفت باسم الأمبراطورية الرومانية المقدسة، لم تستطع بسط سيادتها إلا على ألمانيا وإيطاليا فحسب. وهكذا ظلت فكرة الامبراطورية ماثلة في أذهان الأوربيين طوال فترة العصور الوسطى، رغم فشل المحاولات التي قامت من أجل إحيائها.

ويعترضنا في هذا المقام سؤال : ما الأسباب التي أدت إلى تدهور وزوال الأمبراطورية الرومانية في الغرب الأوربي؟ من الواضح أن الفترة الواقعة بين وفاة الأمبراطور ماركوس أوريليوس سنة ١٨٠م وأواخر القرن الخامس الميلادي، شاهدت الامبراطورية خلالها انحطاطاً في جميع أوجه النشاط السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي. ورغم أن مظاهر الضعف والذبول قد تغلغلت في الجزء الغربي من الأمبراطورية بصورة أشد من الجزء الشرقي، إلا أن الانحطاط - في الواقع - لم يقتصر على تلك الامبراطورية، بل شمل في طياته حضارة العالم القديم كلها، الأمر الذي أدى إلى انتقالنا إلى عصر جديد ذي سمات جديدة، عرف بالعصر الوسيط(١).

وموضوع انتقال العالم من العصور القديمة إلى العصور الوسطى ظل - كما هو معروف - مثار جدل وبحث طويل بين المؤرخين. ويرى مؤرخو القرن

(١) Lyon & Herbert and Hamerow, A Hist. of the Western World., Vol. I., p. 96.

التاسع عشر أن نهاية العالم القديم ترجع إلى الكوارث الفادحة التى توالت على الأمبراطورية الغربية خلال القرنين الرابع والخامس، وفى اعتقادهم أيضاً أن تأسيس الممالك الجرمانية فى الغرب الأوربى، نقل العالم الأوربى إلى فترة طويلة مظلمة تعرف بالعصور الوسطى، والحقيقة أن أولئك المؤرخين قد استمدوا وجهة نظرهم هذه من باحثى عصر النهضة، التى افتتن بها مؤرخو القرن الثامن عشر بدورهم، خاصة فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨م) وجيبون (١٧٣٧ – ١٧٩٤). أما مؤرخو القرن العشرين، ففى رأيهم أن الغزوات الجرمانية التى اجتاحت الغرب الأوربى ليست وحدها المسئولة عن نهاية العالم القديم، فالجرمان لم يكن باستطاعتهم غزو الأمبراطورية الغربية، ما لم يكن هناك فساد داخلى ساهم فى إضعافها، قبل أن تحل غزوات الجرمان[١]. وعلى أية حال، سنعرض لبعض الآراء التى تناولت تدهور وسقوط الأمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوربى.

يرى المؤرخ الانجليزى إدوارد جيبون Edward Gibbon فى كتابه «اضمحلال وسقوط الأمبراطورية الرومانية» أن تدهور روما واضمحلالها كان نتيجة طبيعية وحتمية، فالرفاهية التى عاش الرومان فى ظلها أثمرت مبدأ الاضمحلال، ولقد تضاعفت عوامل الدمار بامتداد الغزو وتوسع الامبراطورية، حتى إذا أزاح الزمن ماكان هناك من دعائم واهية مصطنعة قامت عليها الأمبراطورية، انهار الكيان الضخم تحت وطأة ثقله هو نفسه. ويرى جيبون أيضاً أن الديانة المسيحية كانت من أهم سقوط الأمبراطورية الرومانية، لأنها – على حد قوله – قد قضت على العبادات القديمة التى كانت الدعامة الخلقية للرومان، كما أنها ناصبت الثقافة القديمة العداء، فحاربت العلم والفلسفة والأدب والفن، وأتت بالتصوف الشرقى الواهن بدلاً من الفلسفة الرواقية التى كانت متغلغلة بواقعيتها فى الحياة الرومانية، وحولت أفكار الرومان عن واجباتهم، وأغرتهم بالجرى وراء النجاة الفردية عن طريق الزهد والصلاة، وشجعت أتباعها على

---

(١) Ibid.,

(٢) جـ ٢، ص ٢٥٢ – ٢٥٣.

الامتناع عن أداء الخدمة العسكرية، وبهذا كله كان انتصار المسيحية إيذاناً بالقضاء على روما. والواقع أن ذلك الرأى قد وصمه الكثير من المؤرخين بالضعف نذكر منهم بينز الذى انبرى قائلاً : «يرجع ذلك الاتهام الموجه للديانة المسيحية إلى أيام القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠م)، لاسيما بعد أن سقطت روما فى أيدى آلاريك ملك القوط الغربيين سنة ٤١٠م، فقد دب خلاف واسع النطاق بين المفكرين الوثنيين والمسيحيين آنذاك حول تدهور روما، وبمعنى آخر تبادل الفريقان الاتهام، اتهم الوثنيون المسيحية بأنها السبب فى زوال مجد الأمبراطورية الرومانية، واتهم المسيحيون الوثنية بأنها أشاعت الانحلال والفساد والشرور فى المجتمع الرومانى، ونتيجة لذلك صب الله جام غضبه على مخالفى الكنيسة ومضطهديها. ومن الواضح أن ذلك الاتهام قد ثبت عقمه وفساده، ومرد ذلك أن الكنيسة المسيحية أعطت الأباطرة الوازع الدينى، ومدت يدها إلى المحرومين خلال المجاعات والغزوات البربرية التى هددت الشعب الرومانى بالموت، وكان أثر المسيحية فى أخلاق الرومان أثراً طيباً، ففى الوقت الذى كانت فيه شمس الأمبراطورية الرومانية تميل إلى الغروب، كانت الكنيسة تبنى تنظيماً، قدر له أن يواصل رسالته بعد زوال تلك الأمبراطورية، حتى تبوأ ذلك التنظيم مكانة السيادة فى روما، وصار القوة الوحيدة فى أوربا»[١]. ولا يقل رد المؤرخ كولتون[٢] إقناعاً عن ردبينز، فقد ذكر قائلاً : «كانت المسيحية كسباً حقيقياً للأمبراطورية الرومانية، فالمجتمع الرومانى كان قد وصل إلى مرحلة تفشى فيها الانحلال والمساوىء، فى الوقت الذى تدهورت فيه الأصالة فى الآداب والعلوم والفنون، وعهد بأمر الدفاع عن الأمبراطورية إلى الجرمان والمتبربرين، وكانت الطبقة الوسطى، عصب الحياة فى المجتمع الرومانى، تسام الاضطهاد والقسوة عن طريق نظام ضرائبى مرهق، وفى وسط مظاهر ذلك الانحلال ظهر الدين الجديد الذى قاد الناس إلى قيم جديدة، وأخلاق سامية تخالف ما كان مألوفاً من قبل».

---

(١) Baynes, Decay of the Western Power and its causes., p. 2233.

(٢) عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة، ص ٤٦ - ٤٧.

وهناك المؤرخ ج. ليبيج J. Liebig وأتباعه الذين أرجعوا تدهور الأمبراطورية إلى أسباب اقتصادية، ففي رأيهم أن الأرض الزراعية أصابها الضعف والانهاك يوماً أثر يوم، واستنفذت قدرتها على الإنتاج، ولم يعد الفلاح يستطيع الاعتماد عليها في كسب معاشه. وقد رفض رستوفتزف ذلك الرأى، وذكر أنه قد يصدق على بعض أجزاء اليونان وإيطاليا، فالسبب الأساسى فى جدب التربة فى بعض جهات إيطاليا يرجع إلى قطع الغابات وإهمال صرف المياه، والقول بانهاك التربة فى إيطاليا فى القرنين الثانى والثالث تعميم غير مقبول[1]. ويضيف بينز ذاكراً أن هذا الرأى لا ينطبق على جميع ولايات الأمبراطورية، فكل قرى مصر قد أصابها الخراب والبوار رغم خصوبة أراضيها الزراعية ووفرة وسائل الرى بها، على حين أن الزراعة فى إقليم الغال قد ازدهرت خلال القرنين الرابع والخامس، بفضل العناية الدائبة التى أبداها أصحاب الملكيات الزراعية من الطبقة الارستقراطية[2].

أما المؤرخ الانجليزى أرنولد توينبى[3] Arnold Toynbee فقد اعتقد فى كتابه «مختصر دراسة التاريخ» أن الامبراطورية الرومانية قد سبقها عصر اضطرابات يعود امتداده إلى الوراء، إلى حرب هانيبال (٢١٨ – ٢٠٢ ق.م) على الأقل، وهو عصر أخفقت فيه الحضارة الإغريقية وتوقف المجتمع الهلينى خلاله عن الابتداع، وبدأ تدهوره الفعلى أمراً واضحاً، وإن كان قد أمكن وقفه حقبة من الزمن بفضل قيام الأمبراطورية الرومانية. ولكن تلك الامبراطورية – كما يستطرد توينبى – سقطت لأنها عجزت عن منافسة الكنيسة، لأن الكنيسة تولت الزعامة، وكسبت ولاء الناس لها، بينما فشلت الأمبراطورية فى الفوز بهذا أو ذاك.

---

(١) Rostovizeff, Social and Economic Hist. of the Roman Empire., Vol. I., pp. 374 - 377.

والترجمة العربية : رستوفتزف، تاريخ الأمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى، جـ ١، ص ٤٤٤ – ٤٤٥.

(٢) Baynes, op. cit., pp. 2232 - 2233.

(٣) مختصر دراسة التاريخ، جـ ١، ص ١٨ – ٢٥.

ويرى المؤرخ الروسى ميخائيل رستوفتزف[١] M. Rostovtzeff فى كتابه «تاريخ الأمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى» أن لإنحلال الأمبراطورية الرومانية وسقوطها وجهين : أولهما سياسى واجتماعى واقتصادى، وثانيهما ثقافى. فمن الناحية السياسية اصطبغت تلك الأمبراطورية من الداخل - بالتدريج - بصبغة همجية، وخاصة فى الغرب، وقد وصل الجرمان فى القرنين الثالث والرابع إلى مناصب عالية فى الحكومة والجيش، إما عن طريق التغلغل السلمى، أو عن طريق الغزو. ومن وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية يرى رستوفتزف أن العالم القديم قد عاد تدريجياً إلى أشكال بدائية من الحياة الاقتصادية، فالمدن التى كانت مزدهرة وساهمت فى نمو تلك الحياة، انحطت تدريجياً، واختفى أكثرها من على وجه الأرض اختفاء يكاد يكون تاماً. وقد سار النظام الاجتماعى فى الأمبراطورية فى نفس الطريق المؤدى إلى الانحلال. أما الظاهرة الأساسية من وجهة النظر الثقافية، فهى انحلال حضارة المدن فى العالم اليونانى الرومانى، فالمدن اليونانية شهدت انتصارات عظيمة فى ميادين العلم والأدب والفن، بدأ الانحلال يدب فيها منذ القرن الثانى قبل الميلاد. ثم أعقبت ذلك الانحلال نهضة مؤقتة تحققت فى مدن الأمبراطورية الرومانية، ولكن تلك النهضة توقفت وقوفاً يكاد يكون تاماً فى القرن الثانى بعد الميلاد، وبعد فترة من الركود، دب مرة أخرى انحلال سريع مطرد، ولم تعد تلك المدن تصبغ بصبغة رومانية، فالطبقات الدنيا من السكان أخذت تطغى على سكان المدن أو الطبقات العليا. وهناك وجه آخر لتلك الظاهرة، هو الاختلاف الفكرى بين عقلية الطبقات السفلى والطبقات العليا، والذى حدث أن الطبقات السفلى أعرضت عن الثقافة الأصيلة ووقفت منها موقفاً عدائياً، واستطاعت فى النهاية أن تقضى على مكانتها. ويخرج رستوفتزف من هذا كله إلى أن الطابع البارز فى انهيار الحضارة الرومانية، هو احتواء الطبقات السفلى للطبقات العليا فى جميع المجالات السياسية والاجتماعية

---

(١) Rostovtzeff, op. cit., Vol. I., pp. 532 - 533.;

والترجمة العربية : رستوفتزف، المرجع السابق، جـ ١، ص ٦٣٨ - ٦٤١.

والاقتصادية والثقافية والدينية فى القرن الثالث الميلادى، وأن تسدد ضربة قاتلة للحضارة الرومانية فى المدن، وفى النهاية طغى طوفان من العناصر البربرية الآتية من الخارج، عن طريق التغلغل السلمى أو الغزو، فاغرق تلك الحضارة، ولم تستطع تلك الحضارة وهى تغالب سكرات الموت أن تستقطب ولو جانباً صغيراً من هذه العناصر.

أما المؤرخ نورمان بينز[١] Norman H. Baynes، فقد درس مختلف النظريات التى جاءت بها شتى المدارس التاريخية، حول انهيار وسقوط الأمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوربى، فى مقالته «اضمحلال النفوذ الغربى وأسبابه»، وبعد أن قام بالرد عليها، اختتم مقالته فى هذا الموضوع موضحاً رأيه الخاص بقوله : «لقد اعتمد الأباطرة على الجنود الجرمان فى الدفاع عن الأمبراطورية، وهو إجراء محكوم عليه بالفشل، ذلك أن الأمبراطورية من أجل الحفاظ على مصالحها حرصت على خدمات حلفائها من الجرمان، الأمر الذى استلزم دفع مبالغ طائلة لهم، فى وقت كانت تعانى فيه خزانة الدولة الإفلاس الشديد، حتى أنها لم تستطع توفير الموارد الكافية للحفاظ على الأسطول والجيش. إذاً هناك حقيقة أساسية تكمن فى أن حكومة الغرب الأوربى لم تستطع أن تفعل أكثر مما فعلت فى أيامها الأخيرة، لأنه لم يكن لديها ما تواجه به متاعبها. ولذلك خرجت بريطانيا من أيدى الأمبراطورية، ووقعت أغنى أراضى فرنسا فى أيدى القوط، وسقطت أفريقية فريسة فى أيدى الوندال، الأمر الذى ترتب عليه أن فقدت روما سيادتها على البحر المتوسط. لقد تغلغل الجرمان فى أراضى الأمبراطورية، وحاربوا إلى جانبها، فى الوقت الذى كانت فيه أشد الحاجة لمواجهتهم، وهنا نلاحظ أن الارستقراطية الرومانية، رغم أنها كانت على درجة عظيمة من الثراء، لم تساهم فى المحافظة على كيان الأمبراطورية، بإنقاذها من وهدة الإفلاس التى تردت فيها».

(١) Decay of the Western Power and its causes., pp. 2233 - 2234.

ويرى المؤرخ الفرنسي فرديناند لوت(١) Ferdinand Lot في كتابه «نهاية العالم القديم وبداية العصور الوسطى»، أن الجرمان لم يحطموا الامبراطورية الرومانية في الغرب، ولكنها ماتت بسبب ما كانت تعانيه من أمراض في داخلها، وقد حاولت الأمبراطورية خلال القرنين الأخيرين من حياتها أن تقاوم متاعبها الاقتصادية والاجتماعية والعنصرية التي كانت السبب في انحلالها، ولكن محاولتها باءت بالفشل، بسبب ما تبنته من سياسة تقليدية جامدة (محافظة) غير مرنة؛ ولم يكن باستطاعة الأمبراطورية أن تهرب من قدرها المحتوم، فالوقت الذي ينبغي فيه أن تزول قد جاء. والمشاهد أن مقاومة الأمبراطورية من أجل البقاء أخذت تنهار سريعاً منذ نهاية القرن الرابع، حتى إذا أقبل القرن الخامس لم تعد لها القدرة على إنقاذ نفسها من الانهيار، وانفلت آخر رمق من القوة من بين يديها الواهنتين.

ويرى المؤرخ كاتز(٢) Katz في كتابه «أفول روما ونشأة أوربا العصور الوسطى» أن انهيار روما لم يأت فجأة أو نتيجة كارثة عنيفة حادة، وإنما أتى تدريجياً خلال أزمنة امتدت قروناً عديدة. وأشار كاتز إلى أن الباحثين تناولوا مشكلة اضمحلال النفوذ الروماني في الغرب الأوربي، ووضعوا لها حلولاً تجنح إلى المبالغة، فأحياناً يقع اختيارهم على أحد عوامل ذلك الاضمحلال، ويجري تركيز الضوء عليه باعتباره السبب الوحيد، مع التقليل من شأن العوامل المشتركة الأخرى، وعلى سبيل المثال لا الحصر غزوات البرابرة أو إجهاد التربة الزراعية. وفي رأيه أن سبب الاضمحلال لا يرجع إلى عامل واحد، بل إلى عدة عوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية متفاعلة ومتداخلة، وفي اعتقاده أيضاً أنه من المستحيل - من الناحية العملية - أن نعطي أولوية لأي عامل من عوامل الانهيار، طالما أن كل عامل يتفاعل مع الآخر، أو يكون سبباً له.

(١) The End of the Ancient World., p. 236.

(٢) The Decline of Rome., pp. 72 - 74.

ويذكر المؤرخ الفرنسى أندريه بيجانيول[١] André Peganiol فى كتابه «الأمبراطورية المسيحية» أن روما قد أقدمت على اتخاذ خطوة جريئة فى القرن الرابع الميلادى، عندما عهدت بمهمة الدفاع عن حدودها إلى قبائل بربرية سبق أن احتضنتها وتحالفت معها. فسمحت للفرنجة بالإقامة فى توكساندريا (شمال بلجيكا الحالية) نظير الدفاع عن الراين، وعهدت بحراسة جبهة الدانوب لجماعات الوندال والقوط الشرقيين الذين أقاموا فى بانونيا، والقوط الغربيين الذين استقروا فى مؤيسيا. وعلاوة على ذلك، أدخلت روما العديد من الجرمان فى الجيش الرومانى، وجعلت أحسن الفرق العسكرية مؤلفة منهم، فى الوقت الذى شغل فيه ضباط برابرة أعلى المناصب فى الجيش، فوصل البعض منهم إلى رتبة قائد القوات الرومانية. وقد دفع ذلك كله المؤلف الكلاسيكى سنيسيوس (حوالى ٣٧٠ – ٤١٣) Synesius إلى توجيه اللوم إلى الأمبراطور أركاديوس قائلاً : «لقد أصبحنا تحت حماية جيوش مؤلفة من رجال، يرجعون فى أصولهم إلى نفس سلالة عبيدنا». ثم أشار عليه أن حل تلك القضية سوف لا يتحقق إلا بالأخذ بنظام الخدمة العسكرية الاجبارية (التجنيد الجبرى). ولما رفضت روما صبغ جيشها بصبغة رومانية تامة، أدى ذلك فى النهاية إلى هلاكها. وقد استبعد بيجانيول فكرة انهيار الأمبراطورية فى القرن الرابع، ورغم أن غزوات البرابرة قد نهبت روما وشوهت صورتها فى القرن الثالث، إلا أنها كانت تنهض من جديد، واستطاعت فى نفس الوقت أن تحدث عملية تحول داخلى على حساب الأزمة الخطيرة، وأخذت تتكون رؤية جديدة للسلطة الأمبراطورية، اعتنقتها بيزنطة فيما بعد. وليس صحيحاً أن كل الآلام التى قاستها الأمبراطورية، مثل الضرائب المرهقة، واهتزاز الثروات، وتحلل الطبقات الاجتماعية، كانت بسبب عملية التحول، وإنما كانت نتيجة الحروب المتواصلة التى أشعلتها جماعات البرابرة عند حدود الأمبراطورية. وقد استنكر بيجانيول الادعاء القائل أن «كل شىء كان ميتاً» عند

(١) L'Empire Chrétien., 325 - 393., pp. 421 - 422.

وصول البرابرة إلى الأمبراطورية، واستبعد أيضاً أنها تلقت ضربة قاصمة من الجرمان أتت عليها. فالواقع أنها كانت جسداً مرهقاً، مثخنا بالجراح، غلبها «نعاس طويل» لم يقض عليها قضاء تاما، وإنما تم اغتيالها غدراً على أيدى أعدائها الجرمان.

ويطلعنا المؤرخ ليسنر[1] Laistner في كتابه «فكر وآداب الغرب الأوربى من ٥٠٠ إلى ٩٠٠» على رأيه موضحاً أن غزوات الجرمان لم تكن الطوفان العنيف المفاجىء الذى اجتاح الأمبراطور الغربية وأودى بها، ذلك أن اضمحلال تلك الأمبراطورية وسقوطها كانا عملية تدريجية بطيئة استمرت قرنين من الزمان. وكان من الممكن أن تتخذ تلك العملية مسيرة أبطأ، لولا غزوات قبائل الهون المتبربرة التى أفزعت المجتمع الرومانى والجرمان على حد سواء. ومن الواضح أنه حدثت تغيرات شملت الرومان والجرمان معاً خلال هذين القرنين، بدليل أن كل الغزاة على وجه التقريب صاروا على دراية بالحضارة الرومانية بصورة متفاوتة، وينبغى ألا ننساق وراء الكتاب اللاتين المعاصرين وهم بصدد الحديث عن اضمحلال وسقوط الأمبراطورية فى الغرب، فقد أشاروا إلى أن البرابرة ألحقوا الدمار الشامل بالمدن، على حين أثبتت الكشوف الأثرية أنهم كانوا مبالغين إلى حد بعيد. صحيح أن كثيراً من الأماكن قد قاست بسبب غزوات البرابرة، ولكنها سرعان ما كانت تستعيد مظاهر ازدهارها القديمة، أما الأماكن التى قدر لها أن تتحول إلى حطام فى أعقاب غزوة جرمانية، فإنها في الواقع لم تهجر تماماً. ويصل ليسنر فى ختام حديثه إلى أنه مثلما اختلطت دماء الأمبراطورية الرومانية بالدماء الجرمانية قبل سقوطها بأمد طويل، فكذلك صارت الشعوب الجرمانية خلال زحفها على الامبراطورية الرومانية.

ويصور هودجكين[2] Thomas Hodgkin فى كتابه «إيطاليا وغزاتها» سقوط الأمبراطورية الرومانية فى الغرب قائلاً : «لقد سقطت الأمبراطورية

---

(١) Thought and Letters in Western Europe. A. D. 500 To 900., 24.

(٢) Italy and her Invaders., Vol. II., pp. 532 - 533.

الرومانية في الغرب الأوربي، لأنها استنفذت الغرض التي قامت من أجله، وحان الوقت الذي يجب فيه أن تزول بعد أن شاخت وهرمت. كان قيام تلك الأمبراطورية وامتداد نفوذها إلى كل بلاد العالم المتحضرة نعمة جليلة للبشرية، وعلى قدر تلك النعمة كان حكمها الطويل نقمة لعينة، رغم سلسلة الأباطرة المصلحين الذين اعتلوا عرشها مثل تراجان (٩٨ – ١١٧) وماركوس أوريليوس (١٦١ – ١٨٠). لقد منحت تلك الأمبراطورية جميع الشعوب المطلة على البحر المتوسط السلام والنظام وسيادة القانون، كما أنها مهدت لانتشار المسيحية. ولكن بعد أن طال عمرها، وابتعدت عن الطريق المستقيم، سلبت تلك الشعوب حريتها، وقضت على فضائل الرجل الحر بعد أن طال وقوعه تحت نير السلطة الغاشمة المستبدة. وعندئذ حانت الفرصة للشعوب الجرمانية لتجدد شباب العالم الأوربي، وتأتي بالصخب النشيط لبلاد ذلك العالم الذي ران عليه السكون والانقباض الموحش، وامتلأ بالعبيد والطغاة المستبدين. وفي إيجاز، لقد قام بناء الأمبراطورية وسقط في النهاية، وهذه إرادة الله، ولا راد لقضائه وحكمه».

وتناول المؤرخ سيدني بينتر[١] Sidney Painter في كتابه «تاريخ العصور الوسطى» تدهور وسقوط الأمبراطورية الرومانية في سطور قليلة قائلاً : «إن ازدهار الأمبراطورية المادي والحضاري كان قد بدأ السير في طريق الأفول، قبل أن يقتحم الجرمان والمتبربرون حدود الأمبراطورية في أعداد هائلة، وكل مافعله أولئك الجرمان أنهم عجلوا بأمر كان قد بدأ فعلاً».

ويذكر المؤرخ كلوف[٢] Clough وآخرون في كتابهم «تاريخ العالم الغربي» أن الغزوات البربرية كان لها تأثير فعال علي خيال المؤرخين المعاصرين لأحداثها، لدرجة جعلتهم يقررون أن البرابرة كانوا سبب القضاء على الأمبراطورية الرومانية. ولكن الباحثين المحدثين رفضوا أي تفسير بذاته. ذلك أن أزمات الأمبراطورية الرومانية المتأخرة ترجع إلى عوامل متداخلة، داخلية وخارجية.

---

(١) A Hist. of the Middle Ages., pp. 26 - 28.

(٢) A Hist. of the Western World., p. 120.

وتكمن العوامل الداخلية في فشل الأمبراطورية في إيجاد نظام ثابت لوراثة العرش، وسياسة الأمبراطورية تجاه البرابرة، ونقص القوى البشرية، وهروب الموظفين المدنيين من ثقل الأعباء الملقاة على أكتافهم، وتحلل الطبقات الاجتماعية، وثقل الضرائب الملقاة على الأقاليم والولايات لمساعدة الجيوش الرومانية، كل تلك العوامل ساهمت في حدوث الأزمات التي ألمت بالأمبراطورية، في الوقت الذى ضاعفت فيه غزوات البرابرة من خطورة تلك العوامل.

وأخيراً، لم يكن سقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب الأوربي سنة ٤٧٦م سببه غزوات الجرمان الذين سددوا إليها ضربات تلو أخرى فحسب، بل جاء أيضاً نتيجة عوامل التحلل والتفكك التي أخذت تنهش فيها من الداخل منذ القرن الثالث الميلادي. وهنا نلاحظ أن تلك العوامل كانت بطيئة، غير مباشرة، لم تظهر فجأة على السطح، ولم تفلح المحاولات المخلصة التى قام بها بعض الأباطرة الغيورين على مجد الأمبراطورية ووحدتها في إيقافها. ومهما يكن الاتفاق أو الاختلاف حول أسباب سقوط تلك الأمبراطورية، فإن ذلك يعني في كلمات قليلة أنه من المستحيل القضاء على أية حضارة عظيمة من الخارج، ما لم تكن تلك الحضارة قد قضت على نفسها من الداخل.

المراجع

١- المراجع العربية والمترجمة :

ابراهيم العدوى : (دكتور)

١- المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى .
(القاهرة١٩٦١)

٢- المدخل إلى أوربا العصور الوسطى .
(القاهرة ١٩٦٨)

ابراهيم طرخان : (دكتور)

١- دولة القوط الغربيين.
(القاهرة١٩٥٨)

٢- نهاية الإمبراطورة الرومانية فى الغرب(٤٧٦).فصل من مجلة كلية الاداب-جامعة القاهرة،المجلد ٢٠، العدد الثانى،ديسمبر ١٩٥٨.

٣- تاكيتوس والشعوب الجرمانية .
(القاهرة ١٩٥٩)

اسحق عبيد تاوضروس : (دكتور) .

١- الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية.
(القاهرة١٩٧٢)

٢- من ألاريك إلى جستنيان .
(القاهرة ١٩٧٧)

أسدرستم:

الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب.
الجزء الأول (بيروت ١٩٥٥)

أومان(شارل):

الإمبراطورية البيزنطية.ترجمة د.مصطفى طه بدر.
(القاهرة ١٩٥٣)

بارو (د.هـ):
الرومان، ترجمة عبد الرازق يسري، مراجعة د. سهير القلماوى.
(القاهرة ١٩٦٢)

ترنتن (كرين) :
أفكار ورجال، قصة الفكر الغربى، ترجمة محمود محمود.
(القاهرة ١٩٦٥)

بل (هـ. آيدرس) :
مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى . دراسة فى انتشار الحضارة الهلينية واضمحلالها. نقله إلى العربية وأضاف إليه د. عبد اللطيف أحمد على.
(القاهرة ١٩٦٨)

بينز (نورمان) :
الإمبراطورية البيزنطية. ترجمة د. حسين مؤنس، محمود يوسف زايد.
(القاهرة ١٩٥٧)

تارن (وليم وود ثورب) :
الحضارة الهللينستية، ترجمة عبد العزيز جاويد، مراجعة زكى على.
(القاهرة ١٩٦٦)

تشارلزوورث (م. ب) :
الإمبراطورية الرومانية، ترجمة رمزى عبده جرجس،مراجعة د. محمد صقر خفاجة.
(القاهرة ١٩٦١)

توينبى (آرنولد):
مختصر دراسة التاريخ . ترجمة فؤاد محمد شبل،مراجعة محمد شفيق غربال،الجزء الأول، الطبعة الثانية.
(القاهرة ١٩٦٦)

جيبون (ادوارد) :
اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها. الجزء الأول نقله إلي العربية محمد على أبودره، راجعه أحمد نجيب هاشم، والجزء الثانى نقله إلى العربية لويس اسكندر، راجعه أحمد نجيب هاشم.
(القاهرة ١٩٦٩)

حسن بيرنيا :
تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساسانى. ترجمة د.محمد نور الدين عبد المنعم، د. السباعى محمد السباعى، مراجعة د.يحيى الخشاب.
(القاهرة ١٩٧٩)

ددلى (دونالد .ر) :
حضارة روما.ترجمة جميل يواقيم الذهبى،فاروق فريد،راجعه د.صقر خفاجة.
(القاهرة ١٩٦٤)

دوسن (كريستوفر) :
تكوين أوربا. ترجمة ومراجعة د. محمد مصطفى زيادة،د. سعيد عبدالفتاح عاشور.
(القاهرة١٩٦٧)

ديورانت (ول) :
قصة الحضارة،الجزء الثانى من المجلد الثالث،قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية،الطبعة الثانية (١٩٦٣)،الجزء الثالث من المجلد الثالث،عصر الإيمان،الطبعة الثالثة، ترجمة محمد بدران. (القاهرة ١٩٧٣).

راوس (أ.ل) :
التاريخ الإنجليزى، نقله إلى العربية د. محمد مصطفى زيادة.
(القاهرة ١٩٤٦).

رستوفتزف (م) :
تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة ومراجعة زكي علي، محمد سليم سالم،
الجزء الأول (القاهرة ١٩٥٧)

رنسيمان (ستيفن) :
الحضارة البيزنطية ـ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكي علي،
(القاهرة ١٩٦١)

سعيد عبدالفتاح عاشور : (دكتور)
أوربا العصور الوسطى، جزءان .
(القاهرة ١٩٧٥)

السيد الباز العريني : ٣٢٣–١٠٨١م
(القاهرة ١٩٦٠)

عبد اللطيف أحمد علي: (دكتور) .
١–مصادر التاريخ الروماني .
(القاهرة١٩٦٤).
٢–مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية .
(القاهرة ١٩٦٥)

علي الغمراوي:(دكتور).
١– موضوعات في الثقافة الأوربية في العصور الوسطى .
(القاهرة ١٩٧٢)
٢– ملحمة البطولة الجرمانية.
(القاهرة ١٩٧٢)
٣– دراسات في تاريخ العصور الوسطى،
جزءان (القاهرة١٩٧٥)
٤– مدخل إلى التاريخ الأوربي الوسيط.
(القاهرة ١٩٧٧)

عمر كمال توفيق : (دكتور).

تاريخ الإمبراطورية البيزنطية.

(القاهرة ١٩٦٧)

فشر (هـ . أ . ل) :

تاريخ أوربا في العصور الوسطى، الجزء الأول،ترجمة د. محمد مصطفى زيادة،د. السيد الباز العريني.

(القاهرة ١٩٦٩، ١٩٧٥)

كانتور (نورمان ف .) :

تاريخ العصور الوسطى، قصة حياة حضارة ونهايتها. ترجمة د. قاسم عبده قاسم،مراجعة د. على الغمراوى، الجزء الأول.

(القاهرة ١٩٧٧)

كولتون (ج . ج) :

عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة،ترجمة وتعليق د.جوزيف نسيم يوسف.

(الأسكندرية١٩٦٧)

محمود محمد الحويرى : (دكتور) .

اللومبارديون في التاريخ والحضارة .

(القاهرة ١٩٨٦).

موس (هـ. سانتى ل. ب) :

ميلاد العصور الوسطى. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة،د. السيد الباز العريني.

(القاهرة١٩٦٧)

نظير حسان سعداوى (دكتور)

تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى.

(القاهرة ١٩٦٨)

هارتمان (ل.م) باراكلاف (ج) :

الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى، ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف.

(الاسكندرية ١٩٦٦)

هرنشو (ف. ج. س) :

علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادى.

(القاهرة ١٩٣٧)

يوسف كرم :

تاريخ الفلسفة اليونانية.

(القاهرة ١٩٧٠)

(٢)المراجع الأجنبية:

Alfoldi(A.):

The Invasion of Peoples from the Rhine to the Black Sea. ", in Camb. Ancient Hist., Vol.x11. (Cambridge, 1975).

Bang (Martin):

"Expansion of the Teutons. (To A.D.378)", in Camb. med. Hist., Vol.1. (Cambridge, 1975).

Barker (Ernest):

"Italy and the West , 410-476 ", in Camb. Med. Hist Vol.1. (Cambridge, 1975).

Baynes (Norman H.).

1- " The Dynasty of Valentinian and Theodosius ", in Camb.med.Hist Vol. 1. (Cambridge, 1975).

2- Decay of the Western Power and its causes,in Universal Historyof the World., Edited by J.A.Hammerton., vol. 4. (London,no date of printing)

Beatty (John Louis) & Johnson (Oliver A .):

Hertiage of Western Civilization.Fourth edition.vol. 1 .(U. S. A., 1977).

Beck (F. G. M.):

" Teutonic Conquest of Britain.", in Camb. Med. Hist Vol.1. (Cambridge, 1975).

Boak (ArthurE. R.):

A History of Rome to 565 A. D. (New York, 1930).

Borrow (R.H.) :

The Romans. (Great. Britain, 1975).

Bradley (Henry):

The Goths. Fifth editon (London, 1887).

Bre`hier (Louis) :

The Life and Death of Byzantium.Translated by Margaret Vaugham. (Singapore, 1977).

Brooks (E. W.) :

The Emperor Zenon and the Isaurians.English Historical Review. (London, 1893) .

Bury (J.B):

AHistory of the Roman Empire from its Foundation to the death of Marcus Aurelius (27B.C.-180A.D). (london, 1930).

Cantor (Norman E.)

Medieval History. The Life and Death of a Civilization Second ed. (U. S. A., 1969).

Cary (M.) & Scullard (H.H.) :

A History of Rome. Third ed. (London, 1975).

Cary (M.) & Wilson (John) :

A Shorter History of Rome. (London, 1963).

Chapat (Victor):

Le Monde Romain. (Paris, 1951).

Charleswoth (M.P.) :

The Roman Empire. (Great Britain, 1961).

Church (A.J.) & Brodribbe (J.) :

The Complete Works of Tacitus. (New York,1942) .

Clough (Shepard B.), Garison (Nina G.), Hicks (David L.), Brandenburg (David J.), Gay (Peter),Planze (Otto) , Payne (Stantley G.) :

A History of the Western World. (U. S. A., 1965).

Copeland (W. O. L.):

The Germanic Invaders : Their Origins and Culture., in ui-

versal History of the world. Edit by. H. A. Hammerton., Vol. 4. (No date of printing).

Deanesly (Magaret) :

A History of Early Medieval Europe. from 476 To 911. (London, 1960).

Dill (S.) :

1- Roman Society in the Last Century of Western Empire. (London, 1925).

2- Roman Society in Gaul in the Merovingian Age. (U. S. A., 1966).

Downey (Glanville) :

The Late Roman Empire. (U. S. A., 1969).

Glover (T. R.) :

The Conflict of Religions in the Early Roman Empire. Fourth edition. (London, 1910) .

Grant (Michael) :

The World of Rome. (London, 1960) .

Gregory of Tours :

The History of the Franks., translated by Dalton (O.M.) (Oxford, 1927), in Heritage of Western Civilization., ed. by Beatty & Johnson. (U. S. A., 1977) .

Gwatkin (H. M.) & Dixie (M. A.):

" Constantine and his City", in Camb. Med. Hist.,Vol. 1. (Cambridge,1975) .

Hoyt (Robert S.) & Chodorow (Stanley) :

Europe in the Middle Ages. (U. S. A., 1975) .

Jones (A. H. M.) :

The Decline of the Ancient World. (London, 1975) .

Katz (Solomon) :

The Decline of Rome and the Rise of Medival Europe. (New York, 1955) .

Kent (J. P. C.) & Painter (K. S.):

Wealth of the Roman World. Gold and Silver A. D 300-700. (British Museum, 1077) .

Lindsay (T. M.) :

"The Triumph of Christianity", in Camb. Med. Hist., Vol. 1. (Cambridg, 1975)

Lot (F.) :

1- The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Ages. (London, 1931) .

2- Les Invasions Germaniques. (Paris, 1931) .

Lot (F.) & Pfister (C.) and Ganshof (F. L.) :

Les Destinees de L'Empire en Occident de 395 à 768. (paris, 1940)

Lyon (Bryce) & Herbert (H. Rowen) and Hamerow(TheodoreS.):

A History of Wesrern Word: Vol. 1, Second edition. (U.-S. A., 1974)

Manitius (M.) :

"The Teutonic Migrations, 378-421", in Camb. Med. Hist., Vol.I. (Cambridge, 1975) .

Painter (S.) :

A Histoty of the Middle Ages. 384-1500. (Lodon, 1964).

Piganiol (Andre`):

L'Empire Chrétien. 325-395. (Pairs, 1947).

Pirenne (Henri) :

A History of Europe. from the Invasions to the xvl Century. Transtlated by Bernard Miall from French. (London, 1961).

Previté-Orton (C. w.) :

The Shorter Cambridge Mdieval History ., Vol. 1. (Cambridge, 1971).

Robinson (Cyril E.):

A History of Europe :Ancient & Medieval., (U. S. A., 1920).

.Rostovtzeff (M.):]

The Social and Economic History of the Roman Empire. 2 vol. (London, 1957).

Salmon (E. T.) :

A History of the Roman World 30 B: c: to A. D. 138. (Great Britain, 1974).

Shmidt (Luewig) :

1- " The Visigoths in Gaul, 412-507 ", in Camb. Med. His.,Vol. 1. (Cambridge, 1975).

2- " The Sueves, Alans and Vandals in Spain, 409-429. in Camb. Med. Hist., Vol. 1. (Cambridge, 1975).

Sellery (George C.) & Krey (A. C.) :

Medieval Foundations of Western Civiization. (U. S. A., 1929).

Simons (Gerald) :

The Birth of Europe. (Spain, 1978).

Sinnigen (william G.) & Boak (E. R.) :

A History of Rome To A. D. 565. Six edition. (U. S. A., 1977).

Stephenson (C.) :

Mediaeval History. Europe from the second to the sixteenth century, Fourth edition (U. S. A., 1962).

Tacitus :

A treatise on the Situation, Manners, and Inhabitants of Germany. The Oxford translation., (London,1854),in Heritage of Western Civilization , fourth edtion, Vol. 1., ed. by Beatty (J.l.) & Johnson (Oliver A.)

(U. S. A., 1977).

Taylor (Henry Osborn):

The Mediaeval Mind. 2 Vols. (London, 1936).

Thompson (J. W.):

History of the Middle Ages. 300-1500. (London, 1931).

Universal History of the World., Edited by Hammerton (J. A.), Vol. 4. (London, no date of printing).

Vasiliev (A. A.):

History of the Byzantine Empire. 2 Vol. (Paris, 1952).

Wand (J. W. C.):

A History of the Early Church to A. d. 500 . (London, 1977).

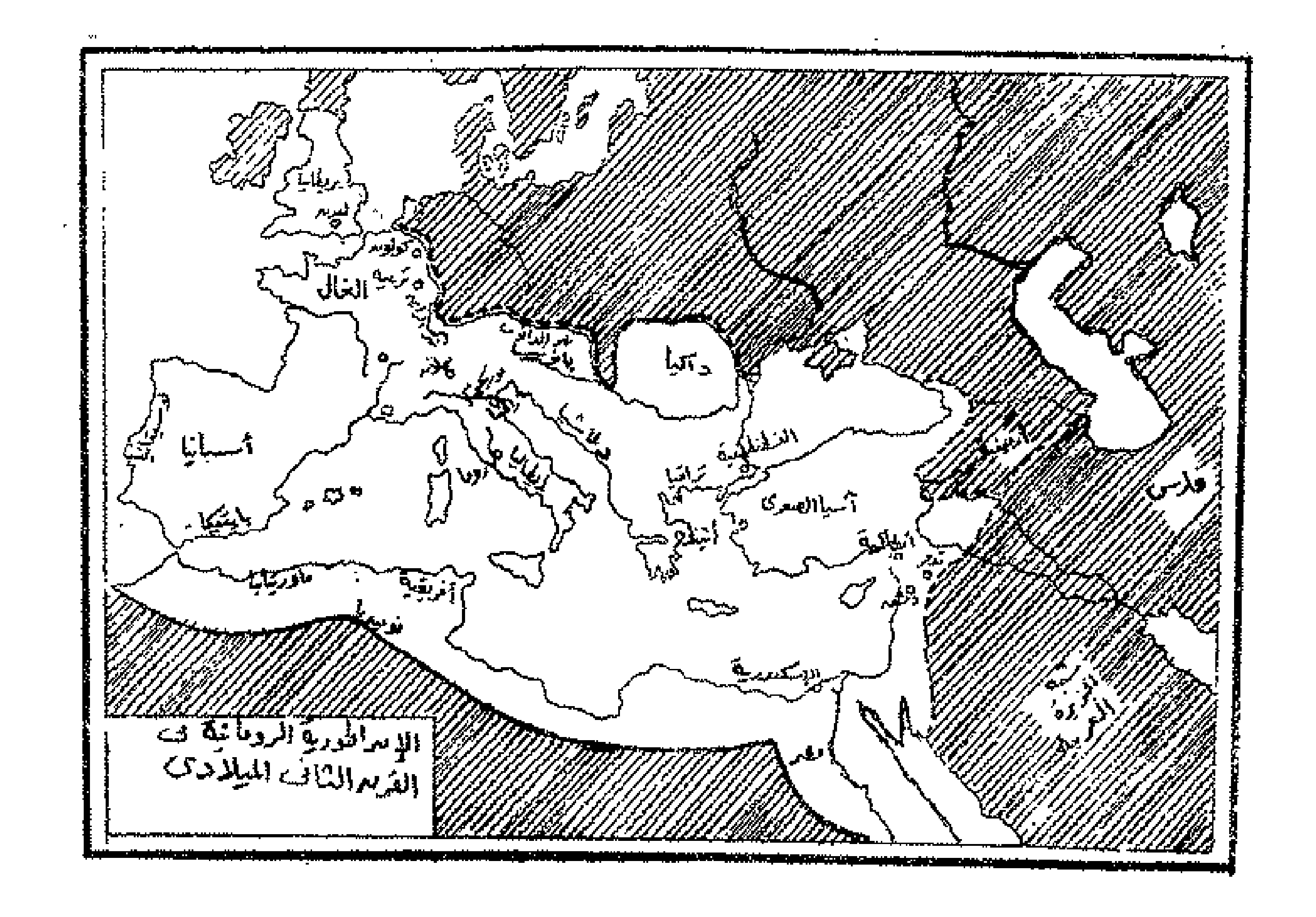
Wdedck (H. E.) :

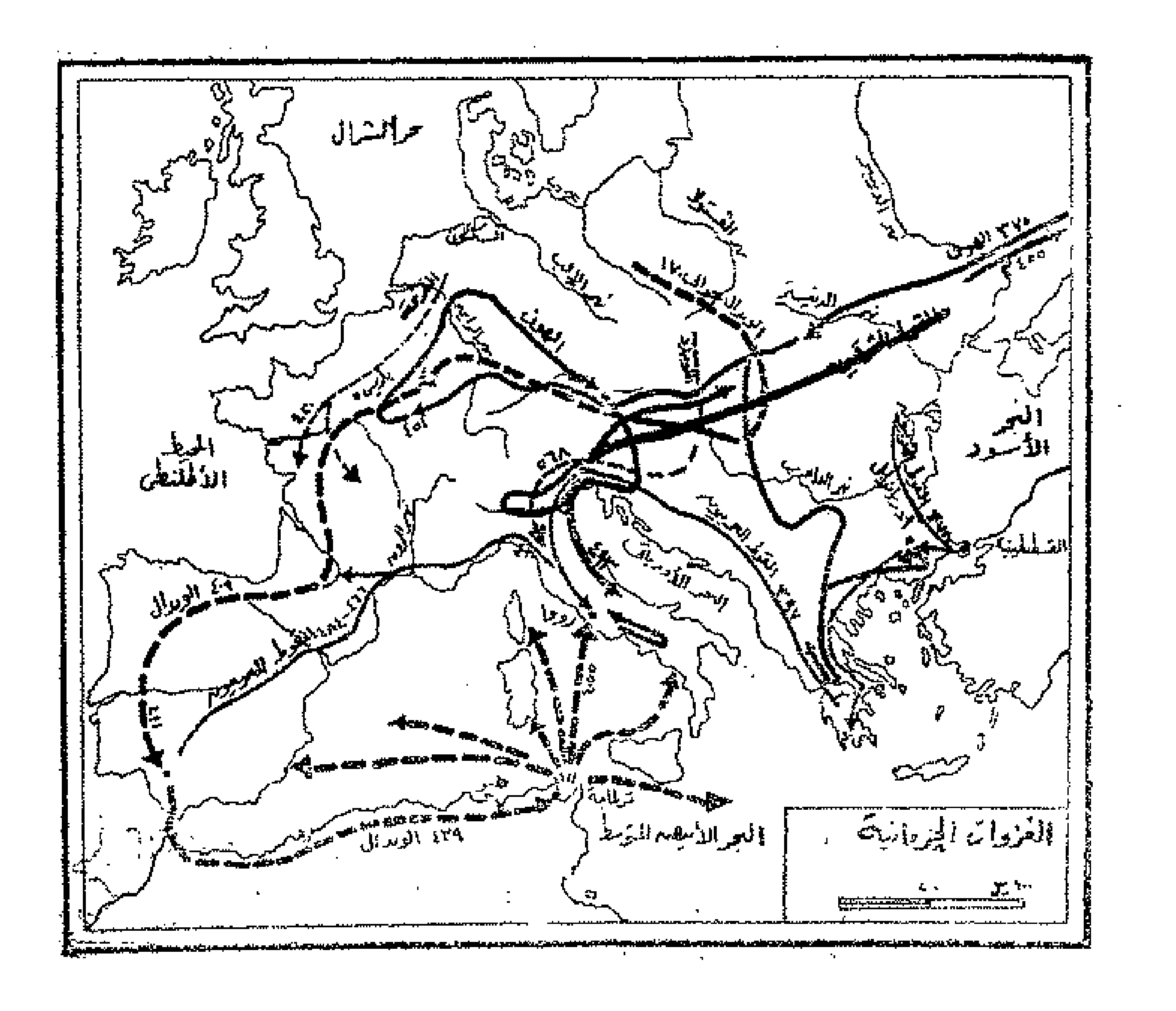
Concise Dictionary of Medieval History (London,1964).

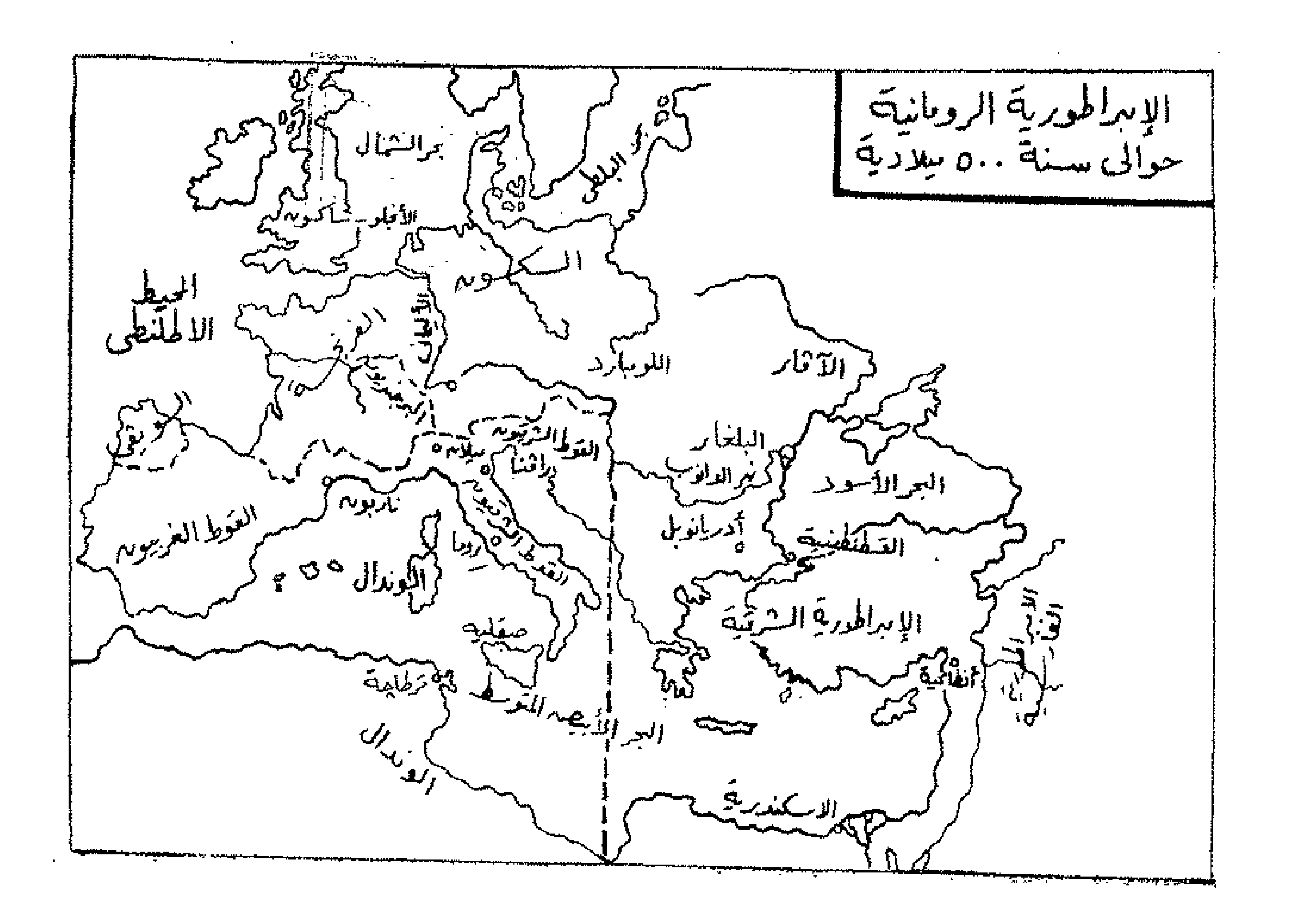
Encyclopaedia Britannica. Vol. .1. (London, 1965)

Encyclopaedia Americana. Vol. 1. (U. S. A., 1962).

The Oxford Classical Dictionary.


الإمبراطورية الرومانية في
القرن الثاني الميلادي
بريطانيا
الغال
أسبانيا
روما
إيطاليا
داكيا
تراقيا
آسيا الصغرى
فارس
موريتانيا
أفريقية
الإسكندرية
مصر
الجزيرة العربية


الغزوات الجرمانية
بحر الشمال
المحيط الأطلنطى
البحر الأسود
البحر الأبيض المتوسط
البحر الأدرياتى
القسطنطينية
روما
قرطاجة
٤٠٩ الوندال
٤٣٩ الوندال
الهون
القوط الغربيون


الإمبراطورية الرومانية
حوالى سنة ٥٠٠ ميلادية
بحر الشمال
بحر البلطى
الأنجلو ساكونيه
السكسونيه
المحيط الاطلنطى
الفرنجه
اللومبارد
الآفار
البلغار
نهر الدانوب
البحر الأسود
أدريانوبل
القسطنطينية
الإمبراطورية الشرقية
انطاكية
رافنا
ميلانو
القوط الشرقيون
القوط الغربيون
ناربونه
روما
الوندال
صقلية
قرطاجة
البحر الأبيض المتوسط
الاسكندرية
الوندال

محتويات الكتاب

صفحة

رقم الإيداع	١٩٩٥/٩١١٧
الترقيم الدولي	977 – 02 – 5006 – 4 ISBN

٢٨ / ٩٥ / ٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)